أخبار اليوم
قطاع الثقافة
والكتب والمكتبات

مجموعة الأعمال الكاملة

أيام السعادة والشقاء

فريق
متميزون
E-BOOK

عبد الوهاب مطاوع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر:

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: أيام السعادة والشقاء.. للكاتب عبدالوهاب مطاوع الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي. وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كتب مجمعة لبريد الجمعة:

أيام السعادة و الشقاء

25 قصة واقعية من دراما الحياة..

عبدالوهاب مطاوع

الشتاء بارد على من لا يملكون ذكريات دافئة!

«عبارة من قصة أمريكية قصيرة عن رجل وحيد يعاني من الأرق ولا تؤنس وحدته ذكريات أيام سعيدة سابقة!»

عبد الوهاب مطاوع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشيء المجهول!

أنا سيدة في الأربعين من عمري جامعية ولا أعمل ومن أسرة طيبة، تزوجت منذ 15 عاما من رجل فاضل ومن أسرة عريقة وانجبت منه بنتين في غاية الجمال، ولقد أحببت زوجي حبا هائلا سري في دمي ومشاعري وراح يتعملق داخلي يوما بعد يوم، وكانت رحلة حياتي معه هناء دائما وسعادة غامرة وهو لا يبخل على بشيء من مأكل أو ملبس أو مال أو ذهب أو سيارة خاصة أو شقة في المصيف للأسرة، كما منحني حريتي الكاملة في التصرف، والخروج من البيت بسبب معدنه الطيب وقلبه الحنون وثقته التامة بي من ناحية وبسبب حبي الغامر له وأمانتي معه ورعايتى لحدود ربي فيه وفي بيتي وأسرتي من ناحية أخرى.

وعلى هذا النحو مضت بنا الحياة ونحن نتبادل الحب والعطف والاحترام ولا يعلو أبدا صوت أحدنا على الآخر ولا نعرف المشاحنات العنيفة أو المشاجرات الزوجية التي يسمع بها الجيران لأنه عف اللسان حلو العشرة واحسبني أنا ايضا كذلك، إلى أن شعرت منذ حوالي عام وبغير سبب سوى إحساس الزوجة الصادق بزوجها، أنه قد طرأ شيء جديد لا أعرفه على حياة زوجي، وحاولت جاهدة أن اكتشف هذا الشيء المجهول في حياته، فلم اوفق إلى ذلك أبدا وشعرت بأنه شديد الحذر والحيطة فازدادت رغبتي ولهفتي لمعرفة هذا المجهول وليتني ما اكتشفته فلقد أشقى حياتى وبدد سعادتي وقتل هنائي. لقد عرفت أن زوجي الحنون الرقيق ابن الأسرة العريقة قد تزوج من واحدة ممن يعملن تحت رئاسته قبل ثلاث سنوات وأنه قد ارتبط بها وهي تعرف جيدا أنه رجل متزوج وله زوجة صالحة تسمع عنها في عملها كل خير، وبنتان تحتاجان لأبيهما وأمهما، لكنها تجاهلت كل ذلك ولم تر فيه إلا ما يخرج من يده من مال وفير، فألقت عليه شباكها واستجاب لها ونشأت بينهما القصة المألوفة من علاقة غير مشروعة في البداية ثم بعد فترة من الوقت قالت له كالعادة: أهلي.. والجيران وماذا أفعل إلخ.. فتزوجها عرفيا في بيت أسرتها وعلى فراشها القديم، واستمر الحال هكذا ثلاث سنوات تحول خلالها زواجه العرفي منها لزواج شرعي مع استمرار إقامتها بين أهلها، وزوجي يتردد عليها من حين لآخر ولا يقضي الليل عندها إلا إذا كنت غائبة عن بيتي في الاسكندرية، كما حملت أيضا هذه الفتاة من زوجي مرتين وتم إجهاضها في كل مرة استجابة لرغبة زوجي أو بضغط شديد منه، ثم حملت للمرة الثالثة وتكتمت حملها عنه هذه المرة إلى أن ثبت الحمل ثم وضعته أمام الأمر الواقع، فلم يملك إلا القبول به وأنجبت طفلا جميلا وراحت هي تنفث فحيحها في عقل زوجي وتحدثه عن «الولد» الذي يحمل اسمه، ويخلد ذكراه وهو الذي لم ينجب سوى البنات.. إلخ.

ولم أعلم بزواج زوجي وإنجابه من أخرى إلا بعد عشرة شهور من مجئ الطفل للحياة وبعد أن أصرت أمه على أن تعرف «أم البنات» وأهل زوجي بوجود هذا الطفل، لم تطلب أن يكون لها كيان عائلي مستقل عن أسرتها، ولا أن يقيم معها زوجي إقامة دائمة أو متقطعة وإنما طلبت فقط أن أعرف بوجودها في حياة

زوجي وبوجود طفلها وأن يعرف أهل زوجي بذلك، وهكذا عرفت مالم أكن أعرف ومن زوجي نفسه الذي جاء إلي ذات يوم ثم صارحني به وكأنما قد هدم جبلا هائلا فوق رأسي، ورغم ثقل هذا الجبل فلقد تماسكت بقوة حبي له وعمق الإحساس الذي يقوم عليه بيتي معه، وقال لي من خلال دمعه الذي امتزج بدمعي إنها «سقطة» و «غلطة» و «حفرة» وقع فيها، هو يطالبني بأن أساعده على الخروج منها وأن أقف إلى جواره وألا أفضحه وسوف يحل المشكلة ويطلقها ليس فقط إكراما لي، وإنما أيضا لأن الأخرى لا تناسبه خاصة أن فارق السن كبير، والتفاوت في المستوى الاجتماعي هائل.

وصدقت زوجي واستجبت إلى نداء العقل وقررت أن أقف إلى جواره وأن أسانده في هذا المشكلة واتفقنا على أن يطلقها ويعطيها مبلغا عادلا من المال، وبعد أسبوع تم الطلاق بحضوري في بيت أحد الأصدقاء، وسلمت هذه «الفتاة» أنا بيدي مبلغا محترما من المال كنفقة لها ولطفها وكحقوق شرعية لها، ووجدت من واجبي بعد ذلك أن احتضن زوجي لأخفف عنه فراق ولده، وأملت أن تختفي هذه «الفتاة» إلى الأبد من حياتنا ولكن هيهات أن تفعل، فلقد راحت تلاحقه من حين لآخر مرة بحجة أن الولد تعبان وثانية بحجة أن حرارته مرتفعة، إلى أن ردها إلى عصمته بعد أقل من شهر واحد من طلاقه لها، وعلمت بذلك فلم أنهر مرة أخرى ولم أقلب الدنيا رأسا على عقب ولم أهدم بيتي وأسرتي، ولم أشرك أهلي في مشكلتي وإنما كافحت مع زوجي من جديد من أجل بيتي وأسرتي، وحاربت لكي أحميه من هذه «الفتاة» التي شعرت بعد الطلاق بنقص المال والسهرات والملبس والمظاهر الاجتماعية التي كان زوجي يغدق بها عليها، فسعت لإعادته إليها، واستمر كفاحي مع زوجي هذه المرة حوالي ثلاثة شهور إلى أن استجاب وطلقها للمرة الثانية، وبدأ يزهدها بالفعل، لكنها لم تيأس منه بالرغم من ذلك وراحت تلف حوله خيوط العنكبوت مرة أخرى فلم يمض وقت طويل حتى كان قد تزوجها للمرة الثالثة أو رجع إليها وعلمت بذلك أيضا فلم أفقد أعصابي مع زوجي، ولم أنفجر فيه، وإنما تمسكت بمطلبي الذي لا أقبل بغيره وهو أن يطلق هذه الفتاة وواصلت حياتي معه أتبادل معه الحديث الودي واهتمّ بشئونه وأعد له ملابسه وطعامه وأشياءه الخاصة وأرعى الطفلتين اللتين يحبهما أبوهما حب العبادة وتحبانه بنفس الدرجة، وتمسكت بالصبر والأمل في الحب العميق الذي يجمع بيننا لكنه راح يطلب مني القبول بالأمر الواقع، والتسليم بوجود الأخرى في حياته لأنه لا يستطيع كما يقول أن يتخلى عن طفله، فأرفض ذلك بإصرار، وتنتهي المناقشة عند هذا الحدّ، وأرجع إلى طبيعتي الهادئة معه!

لكن الصبر فاض بي أخيرا وانفجر البركان المكتوم في أعماقي ولم أعد أستطيع الاستمرار. وقد طلبت منه إما أن يطلق هذه الفتاة ويخرجها من حياته وإما أن يتركني مع الطفلتين في سلام ويخرج هو من بيت، الأسرة مع استمرار رابطة الزوجية بيننا لكي يجرب «الحياة الكاملة» مع الفتاة التي لا يلتقي بها إلا لقاء العشاق لساعات قصيرة، ولا يعايشها المعايشة الكاملة لكي يكتشف إذا كان يستطيع احتمال الحياة معها أم لا يستطيع، وهو يرفض ذلك حتى الآن ويقول لي

إنني لو تمسكت بهذا المطلب فإنه سوف يبيع شقة الإسكندرية ويشتري شقة في القاهرة ويؤثثها ويقيم فيها معها ويتوقع مني أن أرجع عن هذا المطلب، لكني لا أستطيع احتمال الحياة مع زوجي الذي أحببته بكل جوارحي وهو يتردد بيني وبين امرأة أخرى، ولن أحتمل الحياة أيضا إذا انفصلت عنه وانقطعت روابطي به، فبماذا تنصحني أن أفعل وهل تراني أخطأت حين صدقت ندمه على ارتباطه بهذه «الفتاة» واستجبت لطلبه بأن أقف إلى جواره واسانده في مشكلته؟ إنني أعرف أنني أخطأت واريدك أن تقسو علي في الرد على هذه النقطة. لأنني لم أصدقه مرة واحدة بل مرتين وها هي النتيجة أنه رجع لهذا الفتاة بحجة الولد، وبحجة أنه لا يستطيع أن يُلقي بابنه إلى مجهول فماذا تقول لي؟

ماذا تقول عن مثل هذه الفتاة التي تتساهل مع رجل يكبرها بـ ٢٢ سنة وتعلم أنه متزوج وله زوجة وأطفال وتقبل بالزواج العرفي منه وهي مقيمة بين أهلها إلى أن تستدرجه للزواج الشرعي، وماذا تقول عن مثل هذا الزواج الذي يذهب فيه الزوج إلى بيت أهل زوجته ليقضي لديها حاجته لساعة أو ساعتين فقط ثم يرجع لبيته الذي يليق به وبعائلته وكأنه لم يفعل شيئا. وكيف يقبل الأهل ذلك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لو عرفنا كل «المجهول» لنا لربما قتلتنا هذه المعرفة غما وحزنا وتمنينا لو لم نكن قد سعينا لكشف حجبه وأستاره تماما كما قال العالم الهندي الذي انتحر منذ ثلاثين عاما لأنه قد «عرف» أكثر مما يطيقه عقله وأعصابه، فأنهى حياته تاركا وراءه رسالة قصيرة تثير التأمل تقول: «قتلتني المعرفة»!

لكنها قصة أخرى أثارها لدى ما شقيت أنت به حين «عرفت» ما كان مجهولا لك من أمر زوجك، وعلى أية حال فإني أقول لك إنك لم تخطئي يا سيدتي حين صدقت ندم زوجك على تورطه في هذه المغامرة السرية التي لا تليق به أو بسنه أو مكانته العائلية والاجتماعية، واستجبت لمطلبه منك أن تتستري عليه وتسانديه في الخروج من حفرتها العميقة، نعم لم تخطئي في ذلك بكل تأكيد فهذا هو ما تفعله الزوجة المحبة الحريصة على زوجها وسعادة أطفالها وكيان أسرتها، إذا رغبت في ألا ينهار هذا الكيان كله عند أول هزة أرضية. بل إنك لم تخطئي كذلك حين أعدت الكرة معه مرة ثانية، وصدقت ندمه من جديد وواصلت الكفاح معه على أمل استرداده إليك وإلى طفلتيك كاملا، لكنك أخطأت فقط في تقدير عمق ذلك الرباط الأبدي الذي نجحت هذه «الفتاة» في أن تكبل به زوجك بحيث أصبح من غير الميسور الآن إخراجها من حياته نهائيا بغض النظر عن استمرار علاقته الزوجية معها أو انقطاعها، وهو هذا الطفل الوليد! فلقد ساهم مجيئه للحياة في تعقيد المشكلة وتعذر فرص احتوائها وحلها بغير خسائر إنسانية يتحملها هذا الطفل البريء الذي لا ذنب له للأسف في ضعف أبيه أمام نداء المغامرة، ولا في تساهل أمه الأخلاقي الذي سمح لها ببدء علاقتها بزوجك منذ البداية ولأن معظم شقاء الإنسان إنما ينجم عن تعارض وسائل البشر في طلب سعادتهم كما يقول لنا

الأديب الفرنسي ألبير كامي، فلقد أصبحت سعادتك الآن رهينة بشيء واحد لا تقبلين بغيره وهو طلاق زوجك لزوجته الأخرى هذه وحرمان هذا الطفل الوليد من مظلة أبيه ومن الحياة العائلية الناقصة التي تهيأت له وأصبحت سعادة زوجته الأخرى كذلك رهينة بأن تنجح في البداية في إقناع زوجك باستمرار الوضع الحالي بينهما على ماهو عليه وهي في بيت أهلها وهو يقيم مع زوجته الأولى وطفلتيه في بيتهم اللائق به وبين وسطه العائلي المناسب لوضعه الاجتماعي، إلى أن تنجح مع الأيام في إقناعه بأن يهيئ لها مسكنا مستقلا ويمنحها اعتراف أهله ومجتمعه بوضعها كزوجة ثانية له وأم لطفل من صلبه، أما زوجك فلقد أصبح «سلامه» ولا أقول سعادته بعد أن تبطر على حياته العائلية الوادعة واختار طريق الزوابع والقلاقل رهينا بأن تقبلي أنت ذات يوم قريب أو بعيد بالأمر الواقع الذي لا يرغب في تغييره أو لا يقوى عليه تحت ضغط حاجة الابن الوليد إليه ومسؤوليته الإنسانية والأخلاقية عنه، أما أمنيته الصامتة فهي أن تصدق زوجته الجديدة فيما تزعمه له من قناعة ورضا بوضعها الحالي لبعض الوقت وبلا بيت مستقل بها.. ولا مساكنة دائمة من زوجها لها وهكذا تتعارض الوسائل.. والأهداف ويدور الجميع في حلقة الأمنيات الصعبة وشبه المستحيلة إلى مالا نهاية فماذا تختارين لنفسك يا سيدتي في حلبة هذا الصراع الذي فاجأك وأنت في سن النضج وقمة الإحساس بالأمان والاطمئنان!

إنك وحدك من تملكين أن تختاري لنفسك ما ترينه جديرا بك و محققا لسعادتك وسعادة طفلتيك وكرامتك، ولا يستطيع أحد أن يلومك على أي خيار تختارينه حتى ولو اخترت أن يدفع زوجك ثمن مغامرته كاملا وانفصلت عنه بالطلاق؟ ليس فقط لأنه قد خان عهد الوفاء معك بارتباطه بأخرى وزواجه منها بغير أن يبلغك بذلك قبل الإقدام عليه ويخيرك بين القبول به أو الانفصال عنه وإنما أيضا لأنك لم تسلمي بالهزيمة ولم تنسحبي من المعركة من أول طلقة، وإنما كافحت مع زوجك وحاولت مساعدته على أمره وصدقتي ندمه على مغامرته ورغبته في تصحيح أخطائه، وفعلت ذلك مرتين وليس مرة واحدة.

غير أن الإنسان ينبغي له أيضا أن يعرف أين سوف تصب مياه نهره ومن الذي سيستفيد منها؟

والواضح يا سيدتي هو أن مطالبتك لزوجك بأن يغادر بيته ويقيم مع الأخرى إقامة دائمة عسى أن يكتشف صعوبة أو استحالة تواؤمه معها، لن تستفيد منها في البداية على الأقل سوى الأخرى، ولست أنت كما أنه من المحتمل أيضا أن تسفر هذه الخطوة غير المحسوبة عن إتاحة الفرصة الذهبية التي تترقبها الزوجة الأخرى لأن تلح على زوجك أن يتخذ لها مسكنا لائقا به وبوضعه العائلي، ولا يدري أحد بعد ذلك بما يمكن أن يحدث في المستقبل، فلقد يتواءم هو مع هذه الحياة الجديدة، ويضعف ارتباطه بك أنت وبطفلتيه، وقد يحدث العكس، وفي كل الأحوال فإن الأخرى سوف تحقق أقصى ما تستطيع من استفادة من هذا الوضع الجديد، ولن «تقل» غنائمها منه حتى في حالة عودته إليك نادما عن الفوز بمسكن مستقل ومطالبتها له بأن يساكنها في بيت الزوجية الجديد نصف أيام

الأسبوع فهل أنت مستعدة لهذا الاحتمال؟ وهل يحقق ذلك أهدافك من الصراع بينك وبين الأخرى حول زوجك؟

إنني لا أفضل عادة انسحاب الزوجة الأولى من حياة زوجها وإخلاء الساحة للغازية الجديدة التي اقتحمت عليها حياتها وهددت استقرار اسرتها.. وأنت لم تقرري الانسحاب الكامل بالفعل لكنك ترغبين في ممارسة نوع جديد من الضغط على زوجك بوسيلة إنهاء حياته العائلية اللائقة به اجتماعيا، وإرغامه على أن يعايش واقعه العائلي الجديد الذي تورط فيه معايشة كاملة عسى أن يؤدي ذلك إلى نفوره منه وعودته إلى حياته الطبيعية معك.

لكنك لا تدركين فيما يبدو خطورة هذا الرهان، ولا طبيعة غريمتك في الصراع أو نوع أسلحتها فيه، فهي كما يبدو لي ممن يؤمنون بسياسة «الممكن الواقعي» الذين لا يطلبون في البداية على الأقل «الأمثل» و «الأفضل» أملا في أن يتمكنوا في المستقبل من تحقيق كل ما يهدفون إليه بسياسة الخطوة خطوة والاستدراج الناعم ولقد نجحت «سياستها» ، هذه حتى الآن في تحويل علاقتها غير المشروعة بزوجك في البداية إلى زواج عرفي شبه سري، ثم إلى زواج شرعي بغير مسكن للزوجية سوى بيت أسرتها وبغير توافر ركن «المساكنة» وهو من أركان الزواج الشرعي الأساسي إلى جانب الإشهار والعلانية والإعالة، ومطالبتك لزوجك بمغادرة بيته الآن سوف تمكنها من تحقيق الخطوة التالية في خطتها الاستدراجية. وهي المسكن المستقل والمساكنة.. فهل هذا ما تهدفين إليه؟ ومن ناحية أخرى فلقد لاحظت في رسالتك إنك قد شددت النكير على هذه الزوجة الأخرى وأصررت على أن تصفيها دائما بلقب «الفتاة» مع أنها لم تعد كذلك منذ أصبحت زوجة لزوجك، ولست ألومك في ذلك لأن موقفها غير الأخلاقي من زوجك قد ساهم في قيام علاقته غير المشروعة بها في البداية ثم زواجه منها وخلق هذه المشكلة المعقدة، لكنني اعترض فقط على إعفاء زوجك من كل لوم في القصة كلها وتصويره في رسالتك في صورة الحمل الوديع البريء الذي خدعته فتاة تصغره ب ٢٢ عاما «وغررت» به واستدرجته للزواج منها لدوافع مادية بحتة! ولقد يرضي كرامتك كزوجة محبة وأنثى أن تشعري بذلك أو تتوهميه لكن تجاهل الحقائق لا يغير من الواقع شيئا.. والواقع يقول لنا إن زوجك يتحمل النصيب الأكبر من المسؤولية عن قيام هذا الوضع المعقد الذي تشقين به الآن، لأنه حين ارتبط بهذه الفتاة كان رجلا مسؤولا عن أسرة وزوجة وطفلتين.. ولم يكن غرا ولا غريرا.. فتعاملي مع الموقف على ضوء هذه الحقيقة ولا تلقي بالمسؤولية كلها على هذه «الفتاة» الأخرى وحدها وأنما أشركي معها زوجك، وتعاملي معه على هذا الأساس وواصلي الكفاح معه إذا رغبت في الحفاظ عليه وعلى السقف الأمن الذي تستظل به طفلتاك، وتعاملي مع غريمتك في هذا الصراع وليس مع زوجك بمنطق الملك ماكبث في رائعة شكسبير، حين قال قبل مبارزته الأخيرة لخصمه ماكدوث: اللعنة على من يقول قبل الآخر.. كفى قتالا لكن «القتال» هنا ليس بالسلاح أو الكلمات وإنما «بالعقول» التي تحدد الهدف المطلوب تحقيقه بدقة ثم تختار من الوسائل ما يصل بالإنسان إليه وليس بعيدا

عنه، بالحكمة والفهم والصبر وبعد النظر واللعنة بالفعل بعد كل ذلك على كل من يضطر زوجة محبة مثلك لأن تخوض مثل هذا الصراع المرير دفاعا عن أطفالها وحياتها وسعادتها، سواء أكان زوجا لم يقدر مسؤولياته عن زوجته وأطفاله أو «فتاة» غازية لم تتردد في الاستجابة لنداء المغامرة العاطفية أو الحسية معه بغير أن تتوقف ولو لحظات أمام مسؤوليتها الأخلاقية عمن سوف تزرع ألغام التعاسة والشقاء في حصونهم التي كانت آمنة قبل أن تقترب منها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحل السحري

أكتب إليك للمرة الثالثة وأعتب عليك لعدم اهتمامك بمشكلتي، لكني في حاجة إلى مشورتك وأرجو ألا تبخل علي بها حتى ولو كانت رسالتي لا تعجبك فأنا إنسانة أبلغ من العمر ٢٠ عاما، نشأت في أسرة مكافحة.. في مدينة من مدن الأقاليم وكنا نقيم في بيت قديم متهالك، تم إخلاؤه من سكانه قبل أن ينهار عليهم وأنا طالبة بالمدرسة الثانوية التجارية، ومنحتنا المحافظة مسكنا من مساكن الإيواء فواصلنا حياتنا المتقشفة فيه وحصلت على الدبلوم وخرجت للعمل فعملت في عدة أماكن مختلفة وارتبطت خلال ذلك بشاب يعمل حرفيا من جيران البيت القديم، حافظ على مودتنا بعد انتقالنا لمساكن الإيواء، وواصل زياراته لنا واهتمامه بي.. وكان ظاهرا للجميع أنه يحبني ويرغب في الارتباط بى وتجاوبت معه وبادلته بعض الحب وشجعته على التقدم إلي والتغلب على العقبات التي تعترض طريق الزواج وأهمها قلة دخله وإمكاناته المادية، فراح يدخر من رزقه المحدود لكي يشتري لنا أثاث الزوجية ويقدم لي الشبكة والمهر ويعيد طلاء الغرفة التي خصصتها لنا عائلته في بيتهم القديم، وتم عقد القران، وحاولت بمرتبي الصغير أن أشتري لنفسي بعض لوازم العروس، فكنت أعطي أسرتي جزءا من مرتبي وأدخر الباقي واشترك في جمعيات للتوفير، لكي اشترى بعض الملابس واللوازم وخطيبي يحاول بقدر جهده أن يوفر المطلوب منه إلى أن نجح في تدبير كل مطالب الزواج وتحدد موعد الزفاف، وخلال ذلك كنت قد انتقلت إلى عمل جديد بمرتب أفضل في معرض تجاري و منذ اليوم الأول لعملي بهذا المعرض لاحظت أن صاحبه الذي يبلغ من العمر 41 عاما ينظر إلى جمالي بإعجاب ويهتم بي ويكافئني من حين لآخر على عملي ببعض النقود الإضافية وتقبلت إعجابه واهتمامه برضا وسعادة إلى أن وجدته يعرض علي الزواج ولم يبق على زفافي إلى خطيبى سوى شهر واحد، ولن أكذب عليك فأقول لك إنني قد اندهشت لغرابة العرض او استنكرته فالحق هو أنه قد انتابني «الفرح» ، لرغبة صاحب المعرض في الزواج مني، لأنني سوف انتقل معه من حياة إلى حياة ولأن الرجل لديه كل الإمكانات المادية للحياة ولا يعيبه كعريس سوى شيء واحد هو أنه متزوج وله أسرة وأطفال ولم أتوقف طويلا عند مشكلتي الأخرى، وهي أنه معقود، قراني على شاب آخر ولم يبق على موعد زفافنا سوى أسابيع و إنما صارحت صاحب المعرض بقبولي له لكنني سألته، بغير قلق: وماذا سأفعل مع خطيبي؟ فطلب مني أن أدع له هذا الأمر لأنه قادر على مواجهته وبالفعل فقد قابل خطيبى وصارحه بالأمر وبموافقتي على الزواج منه وطلب منه أن يطلقني مقابل أن يعوضه ماديا عما تكلف من مهر وشبكة ونفقات للإعداد للزواج ولم يكن خطيبى مرتاحا لعملي في المعرض منذ البداية لشعوره باهتمام صاحبه الزائد بى فأيقن بصحة ما يقوله له الرجل وجاءني في العمل وسألني هل ما يقوله فلان صحيح؟ فأومأت إليه برأسي مؤيدة في صمت وأنا أتفادى النظر إلى عينيه فأحنى رأسه منكسرا.

وانصرف صامتا مخذولا والغريب أنني بدلا من أن أحزن من أجله أو أشفق عليه و جدتني أتنفس الصعداء كأن حملا ثقيلا قد انزاح عن

صدري، ولم تمض أيام حتى كان خطيبي قد تسلم المبلغ المتفق عليه من صاحب المعرض وأرسل إلي بورقة الطلاق، وفي اليوم الذي تلقيت فيه هذه الورقة قام صاحب المعرض بنقل أسرتي من مساكن الإيواء إلى شقة اشتراها لها وقدم لى شبكة قيمة وملابس كثيرة وعقب انتهاء فترة العدة عقد قرانه علي وأنا في أتم السعادة وسافرت معه لنقضي أسبوع العسل في إحدى المدن البعيدة ونهلت من رحيق السعادة والبهجة حتى ارتويت، وانتهى أسبوع العسل ورجعنا إلى مدينتنا فرجع هو إلى بيته وأسرته وأولاده ورجعت أنا إلى بيت أمي وإخوتي الجديد، ومضت حياتنا بعد ذلك في طريقها وفي كل يوم يأتي إلينا في الظهر أو في المساء ويقضي معي بعض الوقت ثم ينصرف في الليل إلى بيته وأسرته وأولاده إلى أن علمت زوجته بسر زواجه مني «وأوقعت» بيني وبينه، فتصور أنني المسؤولة عن علمها بزواجه وغضب مني وتم الطلاق بيننا، وتجهمت لي الحياة بعض الوقت، لكن تجهمها لم يستمر طويلا، فلقد عرف زوجي أنني « مظلومة» ، وأعادني إلى عصمته، لكنه تجنبا لمشاكل زوجته قرر أن ينقل أسرتي كلها من المدينة التي يعيش بها مع أسرته إلى مدينة أخرى على بعد نصف ساعة بالسيارة منها وباع الشقة الأولى واشترى لنا شقة أخرى في المدينة الجديدة وأثثها بأحسن الأثاث وجميع الأجهزة الكهربائية وتغير نظام حياتنا بسبب ذلك وبعد أن كان يقضي معنا فترة المساء كل يوم أصبح يجيء إلينا فيقضي معنا ثلاثة أيام كل أسبوع ويرجع لأسرته وبيته، ومضي بنا الحال على هذا النحو بضعة شهور، ثم بدأ يقضي معنا ليلتين فقط كل أسبوع ثم ليلة واحدة أسبوعيا إلى أن أصبح لا يجيء إلينا إلا مرة واحدة كل عشرة أيام ويقضي الليل معنا وبدأت أشعر بالفراغ والوحدة في غيابه وبدأت أيضا أشعر بالضيق بالرغم من أنه لا يحرمني من شيء وقد وفر لي مسكنا لم أكن أحلم بمثله وبدأت أتساءل: أين مكاني من حياته؟ ولماذا لا يصبح لي طفل كالأخريات ولماذا يشترط على عدم الإنجاب؟ وحملت منه وأبلغته بذلك وأنا خائفة فإذا به يعترض على حملي بشدة ويصر على التخلص منه، ولم أجد مفرا من الاستجابة لطلبه وذهبت معه إلى عيادة أحد الأطباء حيث تم إجهاضي، ورجعت حزينة ومكتئبة، ومنذ ذلك اليوم استقر الخوف في نفسي ولم أعد أشعر بالأمان والاستقرار خاصة أنه قد أصبح لا يأتي لزيارتنا إلا مرة كل أسبوعين، وبالرغم من أنه يتصل بي تليفونيا كل يوم إلا أنني أشعر بالخوف ولست سعيدة، وأحس بأن الله يعاقبني لأنني تركت خطيبي الأول لقلة امكاناته وفضلت عليه آخر ثريا لأنه سيقدم لي الحل السحري لمشكلتي ومشكلة أسرتي.
لقد مضى على زواجنا الآن ثلاث سنوات، و أصبح عمري 25 عاما وعمره 49 سنة وأشعر بأنني وحيدة في معظم أوقاتي وزوجي دائما مع أولاده وزوجته يقضي الأعياد معهم ويسافر بصحبتهم وأنا على الهامش في حياته ويشترط علي عدم الإنجاب فهل يكون ضميري قد استيقظ فأصبح يفسد على حياتي التي سعيت إليها بإرادتي؟ إنني أشعر بأنني لو أنجبت منه طفلا، فسوف أصبح في أمان فهل أحمل منه وأخفي عنه حملي إلى أن تمضي أربعة شهور ثم أصارحه به وأتحمل

ثورته؟ وهل أطلب منه الطلاق وأتركه لزوجته وأولاده أم أستمر في «العز والمال» وأنسى موضوع الإنجاب هذا إلى الأبد؟

∞∞∞∞∞∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

من يعرف قواعد اللعبة قبل المشاركة فيها لا يحق له الشكوى من قسوتها فيما بعد وإلا فلماذا شارك فيها من الأصل وقبل بقواعدها؟

وأنت يا سيدتي حين «انتابك الفرح» وأنت تتلقين عرض صاحب العمل عليك بالزواج منه والتخلص من خطيبك الذي تستعدين للزفاف إليه بعد شهر واحد كنت تعرفين جيدا أن الرجل الذي ابتهجت برغبته في الزواج منك زوج وأب ورب أسرة أخرى، وأنك سوف تصبحين إن عاجلا أو آجلا وبغض النظر عن الصيغة الشرعية للعلاقة الزوجية بينكما امرأة أخرى على هامش حياته يتسلل إليها في جنح الظلام ويقضي معها بعض الأوقات البهيجة ثم يرجع من عندها إلى حياته العائلية المقبولة من المجتمع وعالمه المرتبط بهما ولأن من يدفع أجر العازف يحق له أن يختار اللحن الذي يعزفه، كما يقول الكاتب والمؤرخ الانجليزى الدوس هكسلي، فلقد اختار لك زوجك وضع زوجة الظل التي يقضي منها وطره حين يشاء، ولا يرغب في أن ينجب منها مراعاة لأوضاعه العائلية والاجتماعية ولكيلا تصبح روابطها به أبدية، فيتعذر عليه فض «الشركة» معها بغير خسائر نفسية وتربوية وإنسانية جسيمة إذا جاءت النهاية أو تعقدت الأمور بينهما وإذا كانت السرية في الزواج مما يتعارض أصلا مع طبيعته المشروعة التي تشترط العلانية والإشهار فإن اشتراط عدم الإنجاب على الزوجة الشابة لغير أسباب صحية ضرورية، يتدنى بهذا الزواج خطوات أخرى في الطريق الهابط به من قداسة الشرعية إلى ما يشبه علاقة العشق السرية مهما كان اسمها على الورق ولأنك تدركين ذلك في تصوري بشكل أو بآخر وتعرفين أن علاقة العشق الجسدي قصيرة مهما طالت، فأنت تشعرين بعدم الأمان، وقد تأكد لديك هذا الشعور منذ تجربة إجهاضك المؤلمة وحين ترغبين الآن في هذا الحمل فإنك تربطين بينه وبين رغبتك في الأمان والاطمئنان إلى استمرار الزواج أو استمرار «الحل السحري» الذي قبلت به لمشاكلك المادية والاجتماعية ولا تربطين وبين تطلعك إلى الأمومة أو رغبتك المشروعة في أن تمارسيها كأي زوجة أخرى، ولهذا فإن الخواطر كلها تتفاعل عندك في بوتقة حسابات الأمان والضمان، وليس في بوتقة المشاعر الإنسانية أو العاطفية وأنت محقة في مخاوفك وعدم إحساسك بالأمان لأن الحلول السحرية لمشاكل الحياة كالبرق الذي يلمع بشدة في السماء.. ثم يختفي بأسرع من لمح البصر على عكس الحلول الطبيعية للمشاكل التي يتوصل إليها الإنسان عبر كفاح السنين «فتبقى في الأرض» ولا تذهب جفاء مع أي عارض من عوارض الحياة وأنت قد فضلت هذا الحل السحري البراق الذي يختصر الزمان ويقرب المسافات بغير عناء ولا صبر ولا كفاح، وضحيت من أجله بشاب مكافح ارتبط بك ورضي بظروفك الاجتماعية وعقد قرانه عليك، وجاهد

بضع سنوات لكي يوفر متطلبات الزواج منك وكان يستعد لزفافك إليه بعد شهر واحد حين اعترضه هذا المنافس الخطير الذي لا يقوى على الصمود أمامه، فسلم بالهزيمة وانسحب كسيرا محسورا، والحق أنه لم ينهزم أمام هذا المنافس في حد ذاته وإنما انهزم في الحقيقة أمام تطلعاتك المادية التي رحبت بالمنافس وسلمت له بلا أي مقاومة ولو كان الأمر على غير ذلك لما استطاع قارون نفسه بأمواله أن ينتزع فتاة ممن تحبه وترغب في الحياة إلى جواره مهما كانت ظروفها العائلية أو الاجتماعية قاسية، لهذا لم أعجب كثيرا لتخليك عن خطيبك لكني عجبت كثيرا لشيء واحد هو أنك لم تترددي لحظة واحدة في التضحية به حين أتيحت لك فرصة هذا الحل السحري حتى ولو من باب التجمل أمام الغازي الجديد ولم يدر داخلك أي صراع من أي نوع ولو لبضع دقائق قليلة بين إحساسك بالواجب الأخلاقي تجاه خطيبك الذي تستعدين للزواج منه وبين تطلعاتك المادية لحياة أفضل مع رجل متزوج وأب لأطفال صغار وإنما قبلت بعرض الرجل المتزوج وأنت في حكم الزوجة لرجل آخر بلا ادنى تردد أو «محاورة» داخلية ولو قصيرة عندك بين نداء الواجب وبين نداء الطمع والتطلعات المادية وأقدمت على ما أقدمت عليه دون أدنى إحساس بالذنب تجاه «زوجك» الذي ستزفين إليه بعد أيام ناهيك بالطبع عن أي إحساس بالذنب تجاه زوجة صاحب المعرض وأبنائه فبماذا تفسرين هذه «الحالة» يا سيدتي؟ وماذا جرى للبعض حتى لم يعد الإقدام على ما يخجل منه الحر يتطلب منهم حتى ولو بضع دقائق من الرفض أو المقاومة أو حتى التحسب والتخوف من نظرة الآخرين إليهم حين يستجيبون للإغراء؟ ثم ماذا كنت تنتظرين من زواج هذا شأنه منذ البداية وهذا هو «الثمن» المدفوع فيه إلا أن يكون نوعا من العشق السري يخف إليه صاحبه كلما وجد الفرصة أو الرغبة في ذلك ولا يحق للطرف الآخر فيه أن يطالبه بغير ما تسمح به ظروفه أو بغير ما يرغب فيه؟

لقد دفع الرجل «الثمن» كاملا ووفى بعهوده كلها فحل مشكلة أسرتك ونقلها من مساكن الإيواء إلى شقة مناسبة، وتولى أمر مشكلة خطيبك السابق وتكفل بدفع ما تكلفه الشاب البائس في الاستعداد لزواجك، وقدم إليك شبكة قيمة وملابس كثيرة وينفق عليك وعلى أسرتك ويتحمل مسؤوليتكم المادية وهذه هي حدود عطائه لك وليست لديه الرغبة أو النية لأن يقدم إليك ما هو أكثر من ذلك وهو في النهاية تاجر يتعامل مع الأشياء بمنطق المثل الأمريكي الذي يحسم المساومة والجدل حين ينطق به أحد فيقول: «خذها أو أتركها» وبهذا المنطق الصارم فإما أن تقبلي بما يقدمه لك من عطاء في الحدود التي يسمح بها وإما أن ترفضيه وتتحرري من تطلعاتك وتضحي «بالعز والمال» انتصارا لإنسانيتك المهدرة، وتتحملي تبعات ذلك بشجاعة وتواجهي الحياة والمستقبل بالحلول الطبيعية المرهقة التي تتطلب الكفاح والصبر ولا تنقل الإنسان من حال إلى حال في غمضة عين.

فهل أنت على استعداد لتقبل ذلك وتحمل تبعاته؟

لا أظن ذلك ولست أتصورك قادرة على هذا الاختيار الآن على الأقل مع اشتداد حاجتك المادية وحاجة أسرتك لاستمرار هذا «الزواج الناقص». أما تساؤلك عما إذا كان ضميرك قد استيقظ وهل هو المسؤول عما تشعرين به الآن من ضيق

يفسد عليك بعض أوقاتك وتساؤلك عما إذا كان الله سبحانه وتعالى يعاقبك على تركك لخطيبك الأول وتفضيلك عليه آخر ثريا فجوابي عليهما أن علم ذلك عند ربي وهو وحده سبحانه علام الغيوب لكني أميل لأن اتصور أنه لا دخل «للضمير» غالبا فيما تعانين منه الآن من ضيق لأنك إنما تشكين الوحدة وغياب زوجك وانصرافه عنك إلى زوجته الأولى وأسرته وأبنائه وتشكين من عدم إحساسك بالأمان مع زوجك ومن تخوفك من عدم الاستقرار واستمرار هذا الحل السحري في حياتك وتفكرين في توريط زوجك في الإنجاب منه بدون علمه تعميقا لروابطك به، وضمانا لاستمرارك في حياته لأطول فترة ممكنة.

وكل ذلك من شكوى أو حسابات لا مكان لوخز الضمير فيه ولا لعذاب الإحساس بالذنب تجاه من ظلمناهم وتجنينا عليهم حين استجبنا لتطلعاتنا ومطامعنا على حساب سعادتهم وثقتهم في أنفسهم ولو كان الأمر يتعلق بالضمير في أي وجه من الوجوه لكان أحرى بك أن تشعري بالذنب أولا لاستجابتك لرغبة زوجك في إجهاض حملك، أو لكنت قد تمسكت بهذا الحمل المشروع على غير إرادته وتحملت تبعات ذلك راضية حتى ولو أدى الأمر لانفصاله عنك وترميم حياتك من بعد هذه التجربة، ثم مواجهة الحياة الحقيقية باختيارك الحر لنفسك وكرامتك وطفلك وتفضيلك لكل ذلك على اختيار «العز و المال» مع قهر الإرادة في أبسط حقوق الزوجة في الإنجاب والامتثال الذليل لما يريده «دافع الأجر للعازف» مهما كان ظالما ولا إنسانيا بغير رضا منك ولا قبول وإنما طلبا فقط لاستمرار الحال على ما هو عليه لأطول فترة ممكنة .

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحقيقة العارية!

قرأت رسالة «الشريد» عن السيدة التي لم ترض بقضاء الله عليها بأن يأتي طفلها إلى الحياة معاقا، فأردت أن أروي لك قصتي مع الحياة واستشيرك فيها، فأنا رجل في الأربعين من عمري وقد تزوجت منذ خمسة عشر عاما من ابنة خالي التي تمنيتها لنفسي وكانت حلم حياتي منذ تفتحت مداركي الحياة.. ولقد كان الحائل الوحيد بيني وبينها هو ضعف إمكاناتي المادية، لكنها قبلتني بظروفي وضغطت على أهلها لكي يعينوني على إتمام الزواج منها.. وتزوجنا بالفعل، وسعدت بها سعادة طاغية، واكتملت سعادتنا بمجيء الطفل الأول للحياة، وكان جميل الطلعة، خفيف الظل فتمتعنا بمناغاته وسعدنا به حين درج على الأرض يحبو، ثم فوجئنا بعد قليل بأن ظهرت عليه تلك العلامات التي سميتها في بابك من قبل بالعلامات المخيفة، وفي خلال أيام كان قد تحول إلى جثة عاجزة عن الحركة ولا يتحرك فيها سوى عينيه وأنفاس صدره، وبعد رحلة يائسة بين الأطباء سلمنا أمرنا إلى الله، وكررنا محاولة الإنجاب مرة أخرى وأنجبنا طفلا آخر ليعوضنا مأساة أخيه، فبدأت رحلته مع الحياة مبشرة وواعدة، ثم لم تلبث أن ظهرت عليه هو الآخر العلامات المخيفة نفسها لكنه لم يطل شقاؤنا به كثيرا إذ استرده الله إلى جواره بعد قليل وبكيناه طويلا والتمسنا في طفلنا الأكبر السلوى والعزاء.. وبعد المحنة المؤلمة قررنا عدم الإنجاب مرة ثالثة لكيلا تتكرر المأساة واكتفينا بالسعادة الزوجية والوفاق القائم بيننا وتحملت زوجتي بالرغم من حزنها على الطفل المفقود كل واجباتها المنزلية والعائلية بصبر جميل فكانت تعهد بطفلنا العاجز إلى جليسة ترعاه خلال فترة عملها وترجع من العمل لتقوم بأعبائها المنزلية وترعى طفلنا واعتدت أنا أن أحملها وحدها كل مسؤولياته باعتبارها الأم، وقررت بيني وبين نفسي أن هذا حق لي، لكن أهلي بدأوا يذكرونني من وقت لآخر بأنه يجب أن تكون لي ذرية سليمة تحمل اسمي، وبأن الشرع يعطيني هذا الحق نظرا لظروف زوجتي مع أنها ظروفنا معا وليست ظروفها وحدها، ورغم رفضي للفكرة في البداية إلا أنني بدأت أتأثر بها، ولم يمض وقت طويل حتى كنت قد اقتنعت بمنطق أهلي في أنه من الأفضل لي أن أحيا مع زوجة لا أحبها وأبناء أصحاء، من أن أعيش مع زوجة أحبها وتحبني، ولكن بغير أطفال، أو بطفل في حكم غير الموجود اللهم إلا من أعبائه، فبدأت افتعل بطريقة لا شعورية المشاكل مع زوجتي وأتصيد الأخطاء لها وبدأت سلسلة المشاكل بأن أعلنت أن كرامتي لا تسمح لي بالاستمرار في الحياة في شقة مؤجرة باسمها هي وليست باسمي، لأن العمارة مملوكة لوالدها، مع إنني أدفع الإيجار بانتظام، وكحل لهذه المشكلة قررت زوجتي أن تسدد هي الإيجار بدلا مني ما دام عقد الشقة باسمها، لكني لم أتوقف عن اصطياد الأخطاء وافتعال المشاكل، واتهمتها هي بأنها تفتعل المشاكل معي لكي أطلقها وتتزوج رجلا آخر تنجب منه طفلا سليما، فبكت طويلا وأكدت لي أنه لو كانت لها رغبة في طفل جديد لأنجبته مني أنا، لكنها قد اكتفت بي زوجا وابنا وحبيبا. ولم يرق لها قلبى يا سيدى بالرغم من ذلك، وبدأت بإيعاز من أهلي في إدخار معظم مرتبى وحوافزي وكل إيراد خارجي أحصل عليه بغير علم زوجتي،

إلى أن تجمع لدي ما يؤهلني للزواج مرة أخرى وشراء شقة جديدة، وتحينت الفرصة لتنفيذ ما عقدت عزمي عليه في السر، إلى أن جاءت الفرصة مشكلة بسيطة يمكن أن تقع بين أي زوجين فاسمعت زوجتي خلالها ما لا ترضاه لنفسها وكرامتها، وبكت هي طويلا وقالت لي من بين دموعها إنه ما دام الحال قد وصل بيننا إلى هذا الحد فإنه من الأفضل لكل منا أن يمضي في طريق آخر، فكانت الفرصة التي أترقبها بلهفة وسارعت فقلت لها إنها ما دامت هي التي تطلب الطلاق، فلا حقوق لها عندي ثم جمعت متعلقاتي وغادرت البيت وهي ذاهلة لا تصدق أن عبارة طائشة كهذه العبارة التي قد لا يخلو منها حديث بين زوجين في حالة الخلاف العابر يمكن أن تقوض كل ما بيننا في لحظة واحدة.. لكني تمسكت بالفرصة للنهاية وتماديت فيها ولم أقبل أي وساطة للصلح بيننا وطلقتها بالفعل، واعتمدت على «طلبها»، للطلاق في حرمانها من حقوقها المادية فيما عدا مبلغا بسيطا للإنفاق على طفلي المسكين، ومع ذلك فلقد حزنت عليها في أعماقي رغم رفضي للصلح معها من قبل، وحاولت الانشغال بعملي وبمن يعرضهن على أهلي لأختار منهن من ارتبط بها، إلى أن استقر الاختيار على إنسانة من معارفنا من مستوى اجتماعي لامع، انبهرت بها كثيرا وتم الزواج منها، وتغاضيت عن أشياء كثيرة من جانبها وبررتها بأنها صغيرة السن ومدللة، ومضى العام الأول من زواجنا ثم وضعت طفلنا الأول فكان طفلا صحيحا معافى، والحمد لله وفرحت به فرحة طاغية، ونسيت في غمار فرحتي وانشغالي به طفلي الآخر المسكين فلم أعد أراه أو اسأل عنه، وكأنما لم يعد له أي وجود في الحياة وأدركت زوجتي الجديدة ذلك فشعرت بأنها قد تملكتني للأبد بعد أن أصبحت لا أرفض لها طلبا وبدأت تتمرد عليّ، وأصبح دخلي المناسب جدا لا يكفي مطالبها. ولا يوفر لها الحياة التي تليق بها.. وأصبحت ساخطة على كل شيء ولا يرضيها شيء، ناهيك عن عدم اهتمامها بشئوني وشئون البيت، ووجدت نفسي فجأة أمام الحقيقة العارية وتذكرت منطق أهلي في أن الحياة مع زوجة لا وفاق معها وسط أطفال، أفضل منها مع زوجة محبة بغير أطفال، وبدأت اتشكك فيه، وأراه منطقا خاطئا وجهولا ثم أنجبت طفلة جميلة، فازداد مع مولدها تمرد زوجتي وترفعها علي وإهاناتها لي أمام أهلي وأهلها على السواء. وأنا أحاول الصمود والاستمرار ثم شاءت إرادة الله أن ترتفع حرارة طفلي الصحيح المعافى الذي أنجبته من زوجتي الجديدة ذات يوم فلا يمضي إلا سواد الليل فقط إلا ويكون الله سبحانه وتعالى قد استرد وديعته الغالية بغير مقدمات وغرقت في أحزاني العميقة وتذكرت طفلي الآخر الذي أودعته التراب قبل سنوات وطفلي الأكبر المعاق الذي نسيته تماما وأهملت أمره، وزوجتي الأولى التي اختارتني زوجا وأبا وابنا لها واغدقت علي من حبها وعطفها، فتنكرت لها و ضاعف من حزني ومعاناتي أن حزن زوجتي الثانية على طفلها قد تحول عندها إلى شراسة مضاعفة، ومبالغة في التمرد والسخط على كل شيء، فتحملت شراستها وتمردها صابرا وبررته بظروفها النفسية المؤلمة لكن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد، فقد هجرت البيت بعد قليل مصطحبة معها طفلتي واشترطت لعودتها أن أتنازل لها عن ملكية الشقة التي تقيم بها، وفي محاولة من جانبي لاحتواء الموقف وافقت على شرطها ونقلت ملكية الشقة إليها بالفعل

ورجعت زوجتي إلى بيتها، لكن المشاكل لم تتوقف من جانبها بعد ذلك ابدا وحاولت جاهدا الصبر والتحمل.. وبدأت أشعر بأعراض مرضية معينة بسبب الضغط العصبي الذي تعرض له وشكوت لزوجتي من ذلك ورجوتها أن نحيا حياتنا في سلام بعد كل ما جرى فلم تعبأ بما قلته ولم تتغير، ووجدت نفسي استجمع شجاعتي فجأة واتخذ قراري بترك زوجتي هذه غير نادم عليها بعد أن عشت معها بضع سنوات طاردت خلالها سراب السعادة بغير أن أنالها.. ووجدتني أيضا أتذكر زوجتي الأولى وأستعيد ذكرياتي ومشاعر الحب والعطف والحنان التي عشتها معها، ومساندتها لي قبل الزواج.. وبعده.. فأرسلت إليها بعض الأهل والأقارب ليتوسطوا لي في العودة إليها مرة أخرى بعد أن تلقيت درسا قاسيا من دروس الحياة المؤلمة، لكنها رفضت ذلك قائلة أنه لم تشف بعد جراح ظلمي لها وغدري بها وهي من ضحت بأمومتها في سبيل حياتنا معا، ورجع إلي الوسطاء برفضها فظننتها تأبى لنفسها وضع الزوجة الثانية في حياتي، مع إنني لم أكن أفكر في ذلك وكنت قد عقدت العزم على طلاق زوجتي الثانية.. فقررت أن أنفذ هذه الخطوة أولا قبل أن أجدد مساعي الصلح معها وطلقت زوجتي الثانية.. ولم يعد لدي بعد الطلاق سوى مرتبي.. وجددت مساعي الصلح مع زوجتي الأولى.. فإذا بها متمسكة بالرفض وإذا بي أعرف أن هناك من يطرق بابها وأنها تفكر جديا في الزواج منه خاصة بعد أن أبدى استعداده لرعاية طفلي المعاق إنني أثق في أن زوجتي مازالت تحبني لكن كرامتها تأبى عليها الرجوع إلي بعد ما فعلت معها، لهذا فإني أرجوك أن توجه لها كلمة بأنه من الأفضل لطفلنا المسكين أن يكون بيننا بدلا من أن يكون له أب بديل وأبوه الطبيعي على قيد الحياة، نعم لقد ظلمتها وظلمت ابني معها، إذ لم أقبل بقضاء الله فيه وحاولت تغييره لكني نادم على ما فعلت وأرجوك مناشدتها القبول برجوعي إليها لأنني أحتاج إليها أضعاف ما تحتاج إلي، ولست أريد بذلك التكفير فقط عن ذنبي معها ومع ابني وإنما أريد أيضا أن أعيد السعادة إليها وإلى حياتها، والاستقرار إلى حياة طفلي المسكين الذي حرم مني وأنا على قيد الحياة، كما أرجوك أيضا أن توجه كلمة لكل من ابتلاه الله سبحانه وتعالى في نفسه أو في طفله أن يتقبل قضاء الله فيما قضى عليه به، وألا يتمرد على قدره أو يرفضه لأن تدبير الله أفضل وأحسن ولأن انتقامه أيضا أكبر من أن يتحمله أي إنسان، والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

الندم المتأخر.. كالعدل البطيء الذي يجيء بعد فوات الأوان لا يشفي الغليل ولا يداوي الجراح، ولا يعوض الإنسان عما فقده من سنوات العمر الثمينة في التعاسة والمعاناة والإحساس المرير بالظلم الإنساني.

فإذا كان لمثل هذا الندم أيضا بواعثه الشخصية التي تتعلق بظروف النادم وليس بظروف ضحيته، كان يتجرع مرارة الغدر من الآخرين فيعرف لنا إخلاصنا أو يفقد كل شيء مع غيرنا، فيرجع إلينا نادما وباحثا في نفس الوقت عن تعويض لما فقده

مع الآخرين لدينا، فإن فاعلية هذا الندم في تذويب المرارات القديمة تصبح ضعيفة للغاية، وقد تثير الشك لدى الضحية في أن دوافعه ربما كانت اضطرارية أكثر منها اختيارية.

والندم الاضطراري الذي لا يختاره صاحبه بملء إرادته وقدرته الكاملة على الاختيار، ندم غير نبيل، ولا قيمة له ولا كرامة في كثير من الأحيان.

وفي تقديري فإن مطلقتك الأولى تتشكك في تجرد ندمك على أخطائك البشعة معها من الدوافع الشخصية والمصلحية التي تتعلق بك أنت، وليس بندمك على غدرك بها ورغبتك المخلصة في التكفير عنه وإعادة السعادة إليها وإلى طفلك المعاق منها، ولها كل الحق في هذا التشكك يا صديقي، فلقد فقدت، كل شيء في تجربتك الثانية، فخسرت الشقة التي أدخرت ثمنها وأنت تشارك زوجتك الأولى الحياة تحت سقف واحد، لكي تتزوج من غيرها وتنجب أطفالا أصحاء كما تقول! واقتطعت منك مطلقتك الثانية حين تعذر عليك احتمال الحياة معها «رطل اللحم كاملا» من جسمك كما أراد أن يفعل المرابي اليهودي مع مدينه في مسرحية تاجر البندقية لشكسبير العظيم، وحصلت منك على كل حقوقها المادية وخلفتك وراءها لا تملك شيئا سوى مرتبك، في حين تعللت أنت بادعاء أن الأولى التي أحسنت عشرتك، وكانت تدفع عنك إيجار مسكنك وتتحمل فيما يبدو معظم نفقات الأسرة، هي التي طلبت الطلاق لكي تحرمها من حقوقها المشروعة عند الانفصال فإذا تشككت الأولى الآن في صدق دوافعك للعودة إليها وتصورت أنك لا ترجع إليها نادما لاستشعارك جسامة غدرك بها وإنما لاحتياجك إلى المأوى والأسرة والحياة العائلية التي فقدتها فلا يستطيع أحد أن يتهمها بسوء الظن فيك أو بتغليب عامل الشك على عامل الثقة في حسن نيتك تجاهها، كما أنك على الناحية الأخرى لم تقدم إليها من سلوكك وأفعالك خلال السنوات الماضية ما يرجح لديها حسن الظن فيك على الشك في «ذاتيتك»، وسعيك الدائم لما تراه محققا لاعتباراتك الشخصية وحدها بغض النظر عن اعتبارات الآخرين، فانت لم تتوقف مثلا عند أية اعتبارات إنسانية وعاطفية خاصة بها حين «عقدت العزم» كما تقول في رسالتك على طلاقها والزواج من غيرها، ولم تتوقف أيضا أمام مسؤوليتك الإنسانية عن طفلك المعاق هذا، وأنت تدبر للانفصال عن أمه وتخطط له، ولم تهتم بأمره بعد الانفصال ولم تؤد إليه حقوقه في الرعاية والعطف والاهتمام الإنساني، وإنما نسيت أمره تماما ولم تره.. «ولم تتذكره» إلا بعد أن تجهمت سماء حياتك الزوجية الجديدة، وعجزت عن مواصلة الاحتمال والاستمرار، وكل ذلك لا يرجح دوافع الثقة فيك من جانبها على بواعث الشك والارتياب فيك، ولا شك في أن الوضع الأمثل والأفضل لكل طفل في الوجود هو أن ينشأ بين أبويه الطبيعيين، وليس بين أب بديل وأم طبيعية، ولو قبلت هي بعودتك إليها بهذا الدافع وحده، لما لامها أحد على اختيارها، لكنه لا يستطيع أحد كذلك على الناحية الأخرى أن ينكر عليها حقها في أن تتطلع لطلب سعادتها مع غيرك إذا تحمل مسؤولية طفلها المعاق هذا وقبل بها راضيا، بعد أن ضجرت من غدرك بها وتخليك عن واجبك الإنساني تجاه طفلك منها، ولعلها إذا ناقشت وضع طفلها المعاق من أحلامها في

السعادة مع غيرك تستطيع أن تقبل بغير عناء التنازل عن الوضع الأمثل له بين أبوين طبيعيين وترضى له بالوضع الأقل تفضيلا إذا كان كفيلا بان يحقق لها سعادتها التي افتقدتها معك، ولا يحرم طفلها في الوقت نفسه من حقوقه العادلة في الرعاية والأمان. وقد يغريها بذلك إلى جانب عدم استشعارها للأمان معك، إنك لم تكن هذا «الأب الطبيعي» لابنها المعذب خلال السنوات الماضية، إذ لم تقبل به منذ اللحظة الأولى ولم ترض بقضاء الله فيه ولم تتحمل مسؤولية رعايته أو العطف عليه واعتبرت ذلك من واجبات أمه وحدها تجاهه، ثم هدمت سقف الأسرة التي كان يستظل بها، ولم تعوضه عنه حبا ولا عطفا ولا رعاية طوال سنوات الانفصال. ففيم يحتاج إليك هذا الطفل الآن وأي زوج أمين لأمه يعرف حقوق ربه عليه يستطيع أن يشاركها تحمل مسؤوليته الإنسانية، ويرعاه معها بإخلاص؟

ولا عجب في ذلك إذا فكرت زوجتك في أمر طفلها بهذا المنطق لأن احتياجاته محدودة للأسف بسبب ظروفه الإنسانية المؤلمة بحدود الاحتياجات الغريزية البدائية كالمأوى والمشرب والمأكل والملبس، فإذا قدرت ذلك ورجحت على أساسه حقها في أن تطلب سعادتها الشخصية مع غيرك، مع التضحية بدور الأب الطبيعى الذي لم يقدم له الكثير من قبل، فلا لوم عليها ولا تثريب، وحقوق الأبوة في النهاية لا تتعلق فقط بالعوامل البيولوجية وإنما أيضا بنهوض الآباء بمسؤولياتهم تجاه ابنائهم وبما يقدمونه إليهم من حب وعطف ورعاية.

لقد اعتمدت يا سيدي في سعيك للعودة إليها على ثقتك في إنها مازالت تحبك لكن كرامتها تاني عليها الرجوع إليك بعد ما نالها منك من غدر وإنكار، لكن الأمر لا يبدو لي على نفس هذه الدرجة من الثقة واليقين فلقد غاب عنك في غمار همك بمشكلتك الشخصية بعد انفصالك عن الثانية، أن الحب ليس رصيدا أبديا يصمد إلى ما لا نهاية مهما نال المحب من جفاء المحبوب وجموده وإنكاره له على مر السنين، وإنما هو رصيد إنساني حي وليس جامدا يقبل الخصم والإضافة، وينفد على مر السنين إذا تكرر السحب منه بغير إيداع أو إضافة إليه.

والواضح هو أنك قد أسرفت في السحب من هذا الرصيد القديم لديها دون أية محاولة لإضافة إليه، فكانت النتيجة أن نفد منذ فترة غير قصيرة ووجدت زوجتك في نفسها القدرة والرغبة في أن تتطلع لغيرك وتبحث عن سعادتها معه، ولهذا لست أستطيع مناشدتها قبول عودتك إليها إذا كانت هي الأخرى قد «عقدت العزم» على الارتباط بغيرك ووجدت لديه ما يعوضها عن تعاستها السابقة معك.

إن تصحيح الأخطاء حين يترتب عليه ارتكاب أخطاء جديدة قد يصبح في بعض الأحيان ضربا من التخبط ومضاعفة الخطايا وأنت في محاولتك المتأخرة لإصلاح خطئك الجسيم تجاه زوجتك وطفلك المعاق، إنما ترتكب خطأ لا يقل جسامة عنه في حق طفلتك الصغيرة التي أنجبتها من الثانية، وربما كانت أكثر احتياجا الآن إليك من الناحية التربوية والعاطفية من طفلك المعذب بأقداره هذا، لكنك فيما يبدو لي لست مؤهلا لاحتمال ما لا يرضيك طلبا لسعادة أعزاءك، وما زلت تنظر للأمور كلها من زاوية اعتباراتك الشخصية وحدها بغض النظر عن اعتبارات أبناء وحقهم في الاستقرار والأمان، ولو أنصفت لاعتبرت رفض الأولى عودتك إليها

مبررا عادلا لكيلا تظلم هذه الطفلة الصغيرة بعد أن ظلمت طفلك المعاق من قبل، ولتحملت عناء الحياة مع الثانية التي سعيت إليها بإقدامك وقبلت بها.. كعقابك في الدنيا، كما قبل صاحب الحوت يونس عليه السلام بزوجته كعقوبة له في الدنيا حين سأل ربه إن كان معاقبا له بشيء في الآخرة أن يعجله له في الدنيا، فقال له ربه سبحانه وتعالى كما روى الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه عن «النكاح»: عقوبتك فلانة ابنة فلان فتزوجها، فتزوجها وتحمل أذاها صابرا.

فحاول إصلاح الأمور بينك وبين الثانية طلبا لمصلحة الطفلة الصغيرة التي أنجبتها منها، ودع الأولى لنفسها وحياتها ما دامت قد وجدت طريقها مع غيرك وعقدت النية على المضي فيه للنهاية، وأقبل بما لا يرضيك من حياتك مع الثانية ولا تضف إلى رصيد أخطائك خطأ جديدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التساؤلات المريبة!

أنا سيدة شابة من أسرة طيبة، منذ سنوات تقدم إلي شاب وسيم أنيق يعمل في نفس مجالي المهني، ومن أسرة لائقة اجتماعيا وماديا، فأعجبت به على الفور وشجعته على التقدم لأبي.. وتقدم إليه فرحب به بلا تردد وتحمس لارتباطي به لأنني صغرى ابنتيه ويتيمة الأم منذ طفولتي المبكرة ويريد أن يطمئن علي كما اطمأن من قبل على أختي الكبرى.

ولأن أبي لم يتزوج بعد رحيل أمنا عن الحياة، فقد تفرغ لتربيتنا ورعايتنا والعطف علينا وخصنا بحبه الغامر ووفر لنا حياة طيبة كريمة، فتعلمنا في المدارس الراقية وتخرجت أختي في كلية مرموقة وتزوجت رجلا مرموقا، والتحقت أنا أيضا بكلية مرموقة وتخرجت فيها، ثم جاء هذا الشاب ليطرق بابي وتمت الخطبة وأبي وأختي سعيدان من أجلي وبعد فترة قصيرة من الخطبة بدأ خطيبي يوجه إلي أسئلة مريبة عن ثروة أبي وكم يبلغ نصيبي منها، وكم دفع لأختي حين تزوجت، وكم سيعطيني من مال لكي أتزوج فكنت أجيبه على كل هذه الأسئلة بأنني لا أعرف إجابة لا يسألني عنه، وكنت صادقة في ذلك بالفعل فلقد كنت أعرف أن أبي بالمعاش ويملك بعض الأملاك والأموال التي ورثها عن أبويه لكني لا أعرف تفاصيلها ولم أهتم يوما بأن أعرف ذلك، وبالرغم من إحساسي بما وراء هذه الأسئلة من نية الطمع لدى خطيبي إلا أنني تجاهلتها وتجاوزت عنها لأنني كنت قد أحببته وأردته لنفسي، كما تكتمت هذه التساؤلات المريبة أيضا عن أبي وأختي وزوجها لكيلا يتشككوا فيه، وبدأنا الاستعداد للزواج فراح خطيبي يتحدث عن أن أباه قد تعرض لخسارة مادية كبيرة في تجارته، وأنه قد لا يستطيع توفير الشقة التي سنتزوج بها قبل بضع سنوات واكتأبت لذلك ولم يحتمل أبي حزني واكتئابى، فقام بشراء شقة مناسبة لي وتأثيثها بأثاث فاخر دون أن يعرف حتى ماذا سيدفع خطيبى من مهر لكي يسعدني بعد أن لاحظ تعلقي به، واقترب موعد الزفاف وتوقع أبى أن يتكفل خطيبى بنفقات الحفل، كما هو المفروض، وخاصة أنه لم يدفع مهرا ولم يتكلف سوى قيمة الشبكة التي قدمها لي، لكن خطيبي راح من جديد يتعلل بالخسارة المادية الفادحة التي تعرض لها والده والتي غلت يده عن أن يقدم لابنه ما كان ينبغي أن يقدمه له في هذه الظروف، وبدا واضحا أنه لا يريد أو لا يستطيع تحمل تكاليف الزفاف، واكتأبت مرة أخرى لذلك فإذا بأبي يفاجئني بأنه قد أعد كل شيء لإتمام حفل زفافنا في فندق كبير، وأنه قد تكفل بكل نفقاته وطرت فرحا بذلك وقبلت أبي شاكرة وممتنة وازددت حبا وإعجابا بأبي العظيم الحنون، فإذا بزوج شقيقتي يجيئني بأخبار مزعجة تكدر صفوي، فلقد قال لي ولأبي إنه قد تحرى أحوال أسرة خطيبى، وتأكد من أن والده لم يواجه أية كارثة مالية، كما يزعم خطيبى، بل إن أحواله المادية جيدة للغاية ويملك أموالا طائلة، لكن كل من سأله عنه أكد له أن هذه الأسرة تتميز بالطمع الشديد.. والبخل الأشد، فثرت عليه ثورة عنيفة واتهمته بالحقد على خطيبي والغيرة منه، وتحمل الرجل ثورتي وغضبي في صمت ثم غادرنا وهو يقول لي إنه يتمنى أن أكون على حق فيما أقول عن

خطيبي وأن يكون هو المخطىء، لكن أبي بدا يفكر فيما قاله زوج أختي ويراجع تصرفات خطيبي معي منذ عرفته ويتشكك فيه، ولم أدع له الفرصة للتراجع وإنما ضغطت عليه بشدة بدموعي ورجائي له ألا يأبه لما قاله زوج أختي، وواصلت ضغطي عليه، فلم يملك في النهاية سوى الاستجابة لدموعي والموافقة على استكمال المشوار لكيلا يشعر بأنه قد أرغمني على ترك خطيبي، الذي أردته لنفسي، وتم عقد القران والزفاف وتوقعت أن يقاطع الحفل زوج شقيقتي بعد ما جرى بيننا، لكني فوجئت بالرجل يحضر الزفاف ويهنئني ويطلب مني ألا أتردد في الاتصال به إذا احتجت إليه في أي لحظة لأنني بمثابة الأخت الصغيرة له وانتقلت للعيش مع زوجي في الشقة التي اشتراها لي أبي.

وبعد أسابيع قليلة راح يسألني من جديد عن أموال أبي ويطلب مني الانفصال المادي عنه، كما بدأ أيضا يستولي على مرتبي كاملا كل أول شهر، وتكتمت هذه المشاكل المادية عن أبي وأختي، وبدوت أمامهما سعيدة بحياتي مع زوجي، الذي تمسكت به وفرضته على أبي، لكنه تمادى أكثر وأكثر في طريقته المادية المقززة هذه، حتى بلغت به الجرأة أن يتحدث إلى أبي مباشرة أمامي ويطلب منه أن يقسم ماله بيني وبين أختي لكيلا يشاركنا أحد فيه بعد وفاته، ورغم إيلام الموقف لأبي، فقد تمالك نفسه واعتذر له بلطف وأدب عن عدم تلبية هذه الرغبة لأسباب يراها، ولم يرض زوجي بالطبع عن ذلك، لكنه لم يكتم مشاعره، كما فعل أبي وإنما انصرف غاضبا وهو يتوعدني بأنني سوف أدفع ثمنا غاليا لرفضي تحقيق رغبته وبدا واضحا أمام أبي وأختي أن زوجي يهددني بالطلاق إن لم يعطني أبي نصيبي في ماله لكي يوضع تحت يده هو وشعرت بما يتفاعل في نفس أبي من إحساس بالألم والمرارة والضيق وشاركته مشاعره هذه، ووجدتني لأول مرة لا أرغب في التأثير عليه لكي يرضخ تحت ضغط دموعي لمطلب من مطالب زوجي، وفوجئت به وهو يقول لي إنه مستعد لأن يفعل ما يطلبه زوجي إيثارا لسعادتي معه وتجنبا للمشاكل معه، فرفضت ذلك بإصرار وأكدت له أنني لا أريده أن يحقق رغبة زوجي مهما كانت الأسباب والنتائج وتمسكت بعدم تنفيذ رغبة زوجي هذه، فبدأ يثور علي ويضربني ويعاملني باحتقار شديد حتى أمام زملائي في العمل، وتمادى في ذلك حتى بلغ به الأمر أن ضربني أمام الجيران لأنني تجاسرت على اقتطاع جزء من مرتبي لشراء أشياء كنت في حاجة إليها، ثم تعددت مرات الضرب المبرح لي منه وتكرر حضور أختي وزوجها إلى مسكني لإنقاذي من بين براثن هذا الوحش، وفشلت محاولاتهما المضنية للصلح بيننا، وأبي يتعذب بالحسرة من أجلي وبإحساسه بالعجز عن إنقاذي وهو الشيخ الضعيف، ولم يجد ما يفعله مع زوجي سوى أن يعرض عليه مبلغا من المال مقابل أن يطلقني ويدعني لحال سبيلي، لكن زوجي رفض هذا العرض، الذي لا يشبع نهمه إلى مال أبي، وطلبت من والدي أن يكف عن تقديم العروض إليه ويكفيه ما فعله من أجلي، بسبب تدليله الزائد لي ولولا ذلك لما كان لمثل هذا الرجل أن يتزوجني بعد أن خدعنا بالأكاذيب من اليوم الأول وتوقفت العروض ومحاولات الصلح ولم يجد زوجي ما يفعله لكي يشدد من ضغوطه علي سوى أن يبلغني أنه سوف يتزوج من أخرى، لأنني لا أنجب بدليل مرور عامين علينا بغير إنجاب.

وبدأ يخرج بالفعل مع امرأة مطلقة من أقاربه، وبدأت هذه المرأة تقول للجميع إن زوجي سيتزوجها لأن زوجته «عاقر»، ولم يكتف بذلك، بل جاء إليَ معها في عملي لكي يذلني أمام زملائي ويجبرني على قبول شروطه للطلاق وإعطائه ما يريد من مال وازدادت المشاحنات بيننا إلى أن جاء يوم تصادمنا فيه بالبيت فطردني بملابسي التي كنت أرتديها وضربني ورفض دخولي للبيت وهرولت إلى أبي فذهب مع زوج أختي إلى البيت فوجداه قد غير كالون الشقة وأغلقها واختفى، وبحثنا عنه لدى أهله فلم يجدا منهم سوى الجفاء والإهانة، وانهار أبي صحيا، ولم يعد قادرا سوى على البكاء من أجل ابنته التي قدم لها كل ما يستطيع لإسعادها بلا جدوى، أما أنا فلقد غضبت من نفسي لإضاعتي هذه السنوات الثمينة من عمري مع هذا الرجل، الذي لم يكن يستحق أن ارتبط به، ولا أن أضعف أمام مطالبه، واسودت الدنيا في وجهي وبدأ زوجي يستعد للزواج في المسكن الذي اشتراه لي أبي وأثثه من ماله، ولا تسألني كيف والشقة ملكي، فهذا هو ما حدث، فقد وضع يده على الشقة والأثاث، ولم يكن هناك من سبيل أمامنا لاستردادهما إلا الشرطة والنزاعات الطويلة وزوجي مستعد للمشاكسة والتهرب وتقديم الاعتراضات التي تحتاج إلى سنين للفصل فيها، ونحن قوم مسالمون ونريد التفاهم الودي بغير نزاعات.

وخلال فترة الأمل في التفاهم حول الانفصال بطريقة ودية فوجئت بالسيدة التي سيتزوجها زوجي ترسل إلى ملابسي ملفوفة في ملاءات السرير القديمة لأن زوجي قد بخل حتى بشراء حقيبة رخيصة ليرسل إلي فيها ملابسي، وازداد إحساسي بالقهر والمرارة، وتعجبت لسوء اختياري لهذا الزوج البشع، الذي حولني من طفلة مدللة في بيت أبي إلى خادمة ذليلة ينعتها زوجها بأبشع الصفات لمجرد أنها لم تدفع له ما يريد.

ثم حدث فجأة شيء غريب زلزل كياني.. فلقد ذهب زوجي قبل زواجه بأسبوع واحد إلى زيارة قريب له يقطن بعمارة عالية، فإذا بمصعد العمارة يسقط به من ارتفاع شاهق ويلقي مصرعه فيه على الفور!

هل تصدق ذلك؟

لقد تسبب عجزي أنا عن تصديقه في حينه في إصابتي بصدمة عصبية شديدة ورقدت طريحة الفراش بالمستشفى لبعض الوقت عولجت خلاله نفسيا وعصبيا وغادرت المستشفى كالعليلة.. فلقد تخيلت أن يحدث أي شيء.. لكنه لم يخطر لي ببال أن تكون هذه النهاية المفجعة هي خاتمة القصة معه أو طريق خلاصي منه غفر الله له.

ولقد شاءت إرادة الله أن استرد كل ما عجزت من قبل عن استرداده بالحسنى وتقديم العروض والتنازلات، فاستردت شقتي المسلوبة وأثاثي بلا مشاكل وشاركت أيضا أهل زوجي الراحل في ميراثه باعتباري زوجته، وورثت من حيث لم أرغب من أراد أن يرثني حية ويرث أبي معي في حياته، ولم يكن زوجي معدما

ولا محتاجا لكنه طمع الدنيا لعنة الله عليه فماذا تقول عن ذلك سوى أن الظالم لا يظلم في النهاية سوى نفسه.

إنني، وأرجو أن تصدقني في ذلك، لم أشعر بالشماتة فيمن أذلني وأهانني واستغلني واستولى على مالي، لكني لن أخدع نفسي فأقول لك إنني قد شعرت بالحزن عليه، لأنني قد شعرت فقط بالأسف له ولكل من يعميه غروره وقوته وقدرته عن أن قدرة الله فوق قدرته فيظلم غيره ويتمادى في الظلم والاغترار بالقوة الزائلة. إنك لن تصدق لو قلت لك أن «المرأة»، التي كان زوجي سيتزوجها لكي يذلني ويكسر أنفي بها كما كان يقول قد تزوجت بعد رحيله عن الحياة بثلاثة شهور، وحين أفكر الآن في مأساتي بعد أن ذهب كل شيء إلى سبيله أجدني قد تعرضت لهذه التجربة القاسية بسبب التسرع في الاختيار وعدم التريث والتروي فيه، وبسبب تدليل أبي الزائد لي وضعفه العاطفي أمام دموعي ورغباتي، فإذا كنت لا أستطيع أن ألومه على حبه وحنانه الزائد لي، فإني ألوم نفسي آلاف المرات على استغلالي لهذا الحب فيما أضر بى وعرضني للذل والمهانة، وأنصح كل الآباء والأمهات بعدم تدليل أبنائهم، وعدم الاستجابة لكل رغباتهم لمجرد إرضائهم إذا عرفوا أنها ليست في مصلحتهم. وأطالبهم بأن ينصحوهم ويرشدوهم للطريق السليم ويحموهم حتى من أنفسهم إذا ضعفت أمام الأهواء. والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

كان الإمام أبو حامد الغزالي يقول:

ليس المشكل النصيحة ..وإنما المشكل قبولها!

وهذا صحيح أننا نستطيع بلا عناء كبير أن ننصح أبناءنا بما فيه خيرهم وصلاحهم، ونستطيع كذلك أن نرشدهم إلى الطريق الصحيح الذي يتجنبون فيه العثرات والزلات وأن نحميهم عند الضرورة من شر أنفسهم وأهوائهم واندفاعهم لكن قليلين منهم هم الذين يقبلون، النصيحة ويعملون بها، ويرون وجه الحق والعدل والخير فيها. بل إن كثيرين من الأبناء لا يرون في هذه «الحماية» التي تطالبين بها الآن بعد أن تعلمت الحكمة بدروس الأيام، إلا محاولة من الآباء والأمهات للاستمرار في التحكم في حياتهم بعد أن بلغوا سن الاستقلال. وهم يفضلون أن يأخذوا بزمام حياتهم بأيديهم ويخوضوا اختبار الحياة معتمدين في ذلك على خبرتهم القليلة بالبشر والحياة، ولا يسلمون غالبا بوجاهة رأي الآباء والأمهات إلا حين يتعثرون في الطريق ويدفعون ثمنا غاليا لرفضهم نصح الناصحين من حياتهم وسعادتهم بعد فوات الأوان، ولسنا ننكر على الأبناء حقهم العادل في أن يأخذوا زمام حياتهم بأيديهم في الوقت الملائم لذلك لكننا ننكر عليهم فقط تحسسهم من أية محاولة من جانب الآباء والأمهات لإعانتهم على أمرهم بما اكتسبوه من خبرة السنين الطويلة وتجارب الحياة، وتفسيرهم لهذه المعونة

الصادقة لهم بأنها مجرد رغبة أبوية في التسلط على حياتهم، مع أنهم يملكون، أن يتفكروا بعقل مفتوح فيما يقال لهم، ويعملوا إذا أرادوا بما يستشعرون فيه الحق

والعدل وصدق الرغبة في سعادتهم، بل لعل السعداء منهم هم الذين إذا ترددوا بين أمرين اختاروا أبعدهما عن هوى نفوسهم، وأقربهما للتوافق مع أحكام العقل وحكمة الشيوخ ونظرتهم الخبيرة بالحياة، ولا تعارض بالرغم من ذلك بين استقلالية الأبناء بحياتهم وبين حمايتهم هم أنفسهم لهذه الحياة بالاستعانة بخبرة الشيوخ وتجربتهم مع الحياة ومن عجب أننا نجد أكثر الأبناء تمسكا برأيهم ورفضا لنصيحة الأهل.. هم أكثرهم لوما فيما بعد لهؤلاء الأهل أنفسهم لأنهم على حد تعبيرهم الذي أقرأه كثيرا في رسائل بعض الشباب، لم «يرغموهم»، في الوقت المناسب على الاستماع لصوت

العقل والعمل بنصيحتهم حين تمسكوا باختياراتهم الخاطئة في وجه معارضة الأهل وإشفاقهم عليهم، مما يسيرون إليه في طريق

الشقاء.

ولست أعرف كيف يستطيع الآباء والأمهات «إرغام» شباب يتمسكون بما اختاروه من اختيارات وفشلت معهم كل الحيل لإثنائهم عنها في الوقت المناسب، ومع ذلك فهم يتهمون الآباء والأمهات بعد أن زالت الغشاوة عن أعينهم بانهم لم يكونوا

«بالحزم الواجب» ، معهم حين كان من الممكن إنقاذهم من سوء المصير وحتى حين يعترفون بأخطائهم وسوء اختيارهم بعد فوات الأوان فإنهم لا يعدمون الحيلة النفسية التي يخففون بها من إحساسهم بالذنب عما جنوه على أنفسهم، فيلقون ببعض المسؤولية على الأهل ويشركونهم معهم في الجناية فإن عدموا الحجة على اتهام الآباء والأمهات بعدم الحزم الواجب معهم في الوقت المناسب، رغم معارضتهم الصارمة لهم في حينها، لم يعدموا الحجة الأخرى على اتهامهم بالضعف العاطفي معهم مما أضر بهم وعرضهم للمهانة والهوان فيما توسلوا هم أنفسهم لدى آبائهم بالدموع لكيلا يعترضوا طريقهم إليه، تماما كما تفعلين أنت الآن يا سيدتي بتركيزك على الحديث عن أثر تدليل أبيك الزائد لك وضعفه العاطفي معك، في اكتمال فصول قصتك مع زوجك رغم بداياتها المنذرة بالتعاسة وهي مشكلة قديمة وأزلية عبر عنها الشاعر العربي تعبيرا معجزا في إيجازه حين قال:

أواه لو عرف الشباب وآه لو قدر المشيب

لأن الشباب «يقدر» على الفعل لكنه لا يعرف للأسف، والمشيب «يعرف»، لكنه لا يقدر على الفعل ولا على أن يرغم أحدا على الاستفادة بحكمته وخبرته ومعرفته. ولست أدري كيف تعاميت يا سيدتي عن هذه النذر الصارخة التي نبهتك منذ البدايات المبكرة إلى ما تقدمين عليه وبالرغم من ذلك فلقد واصلت السير على الطريق المنحدر إلى الهاوية الواضحة لكل ذي عينين لقد تكتمت تساؤلات زوجك المريبة وأنتما في مرحلة الخطبة، إنك لكيلا تثير شكوك الأهل فيه، ويتعاونوا على إقناعك بسوء نيته ومطالبتك بفسخ ارتباطك به ولا تفسير لديك لذلك سوى إنك كنت قد أحببته وأردته لنفسك فهل يغير تجاهل الحقيقة شيئا من طبيعتها؟

بل إنك أكثر من ذلك قد مارست ضغطك العاطفي على أبيك لكي يستجيب لما لا يقبله العقل والعدل من مطالب زوجك القادر والطامع ماديا في مال أبيك، فكيف كنت تتصورين أن تنشأ علاقة زوجية سليمة بينك وبينه وهو لا يجهد نفسه حتى في إخفاء مطامعه المادية فيك وفي أبيك.

إن الطمع كالكراهية، حين يبدأ فإنه لا يعرف حدودا.. ولا يعرف الارتواء. وحين يكون أحد طرفي العلاقة الزوجية طامعا في مال الطرف الآخر وراغبا في الاستفادة المادية منه، فليس هناك من سبيل الإحلال السلام والوئام بينهما سوى إشباع رغبات الطرف الطامع المادية على حساب مصلحة الطرف الآخر إذ لا يرضيه سوى ذلك مهما أجهد الطرف الضحية نفسه في إقناعه بغيره ولهذا فليس هناك حل وسط أبدا بين إشباع أطماع الطرف المتطلع لمال شريكه، وبين الإنفصال عنه في هدوء وبدء حياة أخرى مع غيره، إذا كان ذلك متاحا بغير أن يدفع الأبناء ثمن الإنفصال الغالي من سعادتهم، ولا أمل أبدا في حياة وادعة مستقرة بين طرفين يتطلع أحدهما لمال شريكه ويقبض الآخر يده عنه، إذ تصبح العلاقة بينهما علاقة صراع مكتوم أو صريح، يسعى كل منهما فيه لتحقيق هدفه الذي يتعارض مع هدف الطرف الآخر والنتيجة المحتومة لذلك هي استمرار التوتر وتفجر الخلافات إلى ما لا نهاية.

على أية حال يا سيدتي فلقد انتهت تجربتك المريرة مع هذا الزواج الخاطئ منذ البداية وشاءت الألطاف الإلهية لك ألا تضيف إلى ما خسرت فيه من سعادتك وصحتك وعمرك وكرامتك وبراءة مشاعرك.. المزيد من الخسائر التي لا يمكن تعويضها كخسائر الأبناء النفسية عند انفصال أبوين أساء أحدهما اختيار شريكه.

واستردت بمعجزة إلهية تنبه الغافلين عما يغفلون عنه في حماة صراعهم على عرض الدنيا التافه، كل ما كان قد استولى عليه زوجك الراحل عنوة واغتصابا وتجبرا على زوجة ضعيفة وصهر شيخ، وآن الأوان لئن تطوى هذه الصفحة الدامية بذكرياتها المريرة ونهايتها المأساوية البشعة من حياتك، وأن تواصلي الطريق إلى الأمام بقلب يتطلع إلى نيل نصيبه العادل من السعادة والأمان، ففي أعقاب مثل هذه التجارب المريرة لا يملك الإنسان إلا أن يتطلع إلى الغد بقلب يأمل في السعادة والتعويض الإلهي العادل له عن سنوات الشقاء، ولا يملك إلا أن يقول مع الشاعر:

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

نعم.. يا سيدتي، «فظن خيرا ولا تسال عن الخبر» لكيلا يعيدنا «الخبر» إلى أجواء الماضي الذي تجرعنا فيه التعاسة والشقاء بغير ذنب جنيناه سوى أن طلبنا السعادة من أبوابها المشروعة، ولكيلا نظل أسرى لهذه التجارب المريرة بعد أن استوفينا كأسنا فيها من الشقاء، فيمتد بذلك أثرها على حياتنا إلى ما لا نهاية. ونشقى باجترار مرارتها في حاضرنا كما شقينا بتجرع آلامها في ماضينا وليست هناك تجربة مريرة يشقى بها الإنسان ولا يستفيد بها بالرغم من آلامها.. ولا

يضيف منـها إلى خبرته بالحياة ما يجنبه تكرار الأخطاء.. والوقوع في نفس الشراك الخادعة.. بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القلب الخالي

أنا شابة في التاسعة والعشرين من عمري نشأت في أسرة طيبة متدينة بين أبوين متفاهمين وشقيقين يصغرانني، وعشت طفولتي وصباي في جو عائلي ترفرف عليه ظلال الحب والأمان، والتحقت بدراستي الجامعية وأنا أحمل أمالي العريضة في النجاح والسعادة والالتقاء بمن يخفق له قلبي وارتبط به وأكمل معه رحلة الحياة، فمضت سنوات الجامعة دون أن يلفت نظري أحد من زملائي ودون أن أقترب من أحد أو يقترب مني أحد، وحصلت على شهادتي، وبدأت أتطلع لبدء حياتي العملية، ونجحت بعد فترة قصيرة من الانتظار في العمل كمدرسة بمدرسة ابتدائية راقية، وسعدت بهذا العمل الذي يلائم طبيعتي ويشبع حبي للأطفال، وراودني مرة أخرى حلم الالتقاء بفارس الأحلام الذي يشغل قلبي الخالي، وتأملت زملائي بالمدرسة فلم يستوقف أحد منهم اهتمامي، ومن وجدته منهم يصلح للارتباط به كان مرتبطا بالفعل أو على وشك الارتباط فتأجل حلمي السعيد مرة أخرى، وبدأت أمي تشعر بالقلق تجاهي بعد بلوغ سن الخامسة والعشرين وبدأت تحث قريباتها على ترشيحي لشاب ملائم من شباب العائلة، وتتحدث معي في هذا الأمر بلا حرج وكأننا صديقتان أو زميلتان بالكلية ولسنا أما وابنتها.. وتقول لي أنها تتمنى لي فلانا ابن فلانة، وتفتعل المناسبات لزيارة أسرته وتصر على اصطحابي معها إليهم، وتهتم بزينتي وملابسي قبل الزيارة وترقبني بحب وإعجاب في المرآة، وهي تمصمص شفتيها وتقول: جميلة.. وطيبة وربة بيت ممتازة.. فكيف عمي عنك العرسان حتى الآن؟!

وكنت أشعر بالخجل من الموقف وبالإشفاق عليها وأتمنى أن يضع الله في طريقي من يعفيها من هذا القلق على مستقبلي، ثم نقوم، بالزيارة الموعودة، فتظل أمي طوالها تدير الحديث عن شطارتي في البيت ومحافظتي على الصيام والصلاة، وذكائي.. وجمالي، فيخفق قلبي لها بالعطف والرثاء، وفي طريق العودة أعاتبها على إسرافها في الحديث عني كأنما تعرضني بطريقة مكشوفة على الآخرين، وأقول لها إنني لا أرضى لها بأن تهين نفسها من أجلي، فتجيبني بأنه لا عيب في أن تسعى إلى ستر ابنتها وأن السيدة خديجة رضي الله عنها قد عرضت نفسها على سيد الخلق أجمعين ورجته لنفسها، فماذا يمنعها هي من أن ترجو لي من تراه جديرا بإسعاد قلبي وقلبها، فلا أملك حين أسمع منها ذلك إلا أن يفيض قلبي لها بالحب والامتنان، ومضت حياتنا على هذا النحو ولا شاغل لأمي سوى تزويجي ومتابعة دراسة شقيقي الصغيرين ورعاية أبي الذي لا يتحفظ في إعلان حبه في كل حين لأبنائه وزوجته.. ويقول لنا في كل مناسبة أنه يحبنا ويحب أمنا ويدين لها بالفضل في إسعاده ورعاية أبنائه وأسرته وفي هذا الجو العائلي الجميل عشت أيام حياتي.. ولولا انشغال أمي بالقلق بشأن زواجي لما وجدت شيئا أشكو منه، وبسبب هذا القلق وحده رحبت برجل في الرابعة والأربعين من عمره حين تقدم على استحياء لأبي طالبا يدي و عرضت على أمي الأمر من باب العلم بالشيء ليس أكثر وصارحتني بعدم قبولها له لأنه أرمل ويكبرني ب 15 عاما

ولديه ولد وبنت من زوجته الراحلة، لكني فاجأت أمي بقبولي له وحماسي للزواج منه! وكان هذا الرجل من أقارب الأسرة البعيدين ويعمل محاسبا، وكنت أعرف قصة زوجته التي رحلت عن الحياة قبل عامين بالمرض اللعين، وأتعاطف معه على البعد، وحين ناقشتني أمي في قبولي لهذا الزواج قلت لها بنفس الصراحة التي تحدثني بها دائما أنني قد بلغت السابعة والعشرين من العمر، ولم يتقدم لي إنسان مناسب، وكان كل من تقدموا لي إما غير جاهزين للزواج وإما مطلقين لزوجاتهم ولديهم أبناء، والعمر يتقدم بي ونحن أسرة محدودة الصلات الاجتماعية ولا جاه لنا يغري بنا الآخرين، كما إنني لست ماهرة في اجتذاب اهتمام الشبان إلى فإذا لم يكن هناك بديل آخر فإنني أفضل الأرمل على المطلق لأنه لم يختر لنفسه هذه النهاية لعلاقة الزواج.

ونجحت بعد جهد جهيد في إقناع أمي بقبول هذا العريس، ووافق أبي هو الآخر بعد مجهود كبير من أمي، فتقدم الرجل لخطبتي وما أن وضع خاتم الخطبة في إصبعي حتى انفجر ينبوع الحب والحرمان في قلبي تجاهه كالطوفان، وذهل الرجل لهذا الحب المكتوم وسعد به كثيرا، وكذلك سعدت أمي وأبي وفاض الطوفان فشمل طفليه الصغيرين منذ رأيتهما لأول مرة ووجدت فيهما طفلين خائفين حائرين.

وتمت خطوات الزواج بغير عناء، ولم يتشدد أبي مع خطيبي في أية مطالب مادية، ولم يحدث أي خلاف بيننا سوى خلاف بسيط حول حفل الزواج، فلقد أصر خطيبي على ألا يقيم فرحا لزواجه بسبب ظروفه العائلية ومراعاة لمشاعر أسرة زوجته الراحلة، وتمسكت أمي بأن من حقها أن تفرح بابنتها الوحيدة، وأن تقام لي حفلة زفاف بسيطة، وأشتد الخلاف حتى كاد يفسد الارتباط كله ففوجئت أمى بي أتنازل عن هذا الشرط، وأقبل بعشاء صغير لعشرة أشخاص في أحد الفنادق الكبرى.. وحزنت أمي لذلك لكني هونت عليها الأمر ولم أخف عنها إنني قد أحببت خطيبي ولا أريد أن أفقده لمثل هذا الأمر، وإنني أيضا قد أحببت الطفلين وخاصة الطفلة الصغرى الجميلة ولا أريد أن أصدمهما بالتخلي عنهما بعد أن أصبحا يتصلان بي كل يوم.

وانتهى الخلاف بسلام وقدم لي خطيبي خاتما ثمينا عوضا لي عن حفل الزفاف وتم عقد قراني في بيت الأسرة، واجهدت أمي نفسها في الزغاريد والتعبير عن السعادة حتى طفرت عيني بالدمع حبا لها وأنا أجلس بالفستان الأبيض إلى جوار عريسي وإلى يميني طفلة زوجي الصغيرة تلتصق بي وبين قدمي يجلس طفله الآخر.. وفي المساء تناولنا العشاء في أحد الفنادق واصطحبني زوجي إلى مسكن الزوجية الذي لم يتغير فيه شيء سوى تجديد غرفة النوم وطلاء الجدران.

ومضت ليلة الزفاف بسلام.. لكني لاحظت في الأيام التالية أن زوجي مشغول البال وليس سعيدا بى كسعادتي به، وحاولت أن أعرف منه اسباب انشغاله فلم يجبني بشيء يشفي غليلي، وشكوت لأمي ما ألاحظه عليه من قلق وشرود وفتور، فنصحتني بالصبر عليه حتى يتعود على هذا التغيير الجديد في حياته.. وقالت لي أنه ربما قد تذكر زوجته الراحلة وتجددت أحزانه عليها، وكان المفروض أن نقضي الأسبوعين الأولين من زواجنا وحدنا في الشقة وأن نخرج كل مساء إلى

المسرح أو السينما أو زيارة الأهل، ولهذا أودع زوجي الطفلين لدى جدتهما لأمهما ليتفرغ لي، فتصورت أنه ربما يكون قد افتقد أولاده أو يشعر بالإشفاق عليهما لبعدهما عنه فطلبت منه إعادتهما إلى البيت بعد الأسبوع الأول، وألححت عليه في ذلك، حتى استجاب ورجع الأبناء واستقبلتهما استقبالا حارا.

لكن زوجي بالرغم من ذلك لم يتخلص من شروده وانشغال خاطره بل ازداد حزنه الغامض وفتور روحه، ثم فوجئت به بعد يومين يصطحبني إلى طبيب الأمراض النساء والولادة ويعرضني عليه بغير أن أشكو من شيء أو أطلب العلاج من شيء، وفوجئت بالطبيب يحيلني للمستشفى ويجري علي بعض الفحوص والأشعات ثم يدخلني بعد غرفة العمليات استعدادا لإجراء جراحة!

وسألت زوجي عما يجرى فإذا به يقول لي باضطراب وخجل أنه قد لاحظ منذ ليلة الزفاف وجود ورم لدي بجوار الرحم، وأنه قد لاحظه أو تشكك فيه رغم أنه محاسب وليس طبيبا لسابق تجربته مع زوجته الراحلة التي كانت تشكو من ورم مماثل وخاض معها رحلة الفحص والعلاج الطويلة من قبل، وأنه قد أسرّ بشكوكه لنفس الطبيب الذي كان يعالج زوجته الأولى فطلب منه عرضها عليه، وأسفر الفحص وجود الورم بالفعل لكنه ورم ليفي وليس خبيثا والحمد لله، غير أنه لابد من استئصاله على الفور.. واستسلمت لإرادة الله ودخلت غرفة الجراحة، وأفقت من البنج فوجدت أمي وأبي وشقيقي بجواري.. وخرجت من المستشفى إلى البيت وتماثلت للشفاء، لكن شيئا جوهريا كان قد تغير في روح زوجي تجاهي، ولم تفلح محاولاتي معه لإعادته إلى طبيعته السابقة.. فلقد ابتعد عني تماما بعقله وأفكاره ومشاعره وبدأ يتعامل معي بتحفظ وبرود ويضيق بتوددي إليه ورغبتي في أن أشعر بحبه وحنانه، وتألمت لذلك كثيرا، وحاولت أن أفهم أسباب ابتعاده وجفائه، وبكيت طالبة منه أن يعفيني من هذا القلق الغامض الذي أعانيه منذ تزوجنا، وتردد هو بعض الوقت ثم قال لي إن مخاوفه قد تجددت حين لاحظ ذلك الورم عندي، وأكدها لي الطبيب، وأنه يشعر بأنه «موعود»

بالعذاب مع زوجة أخرى سوف تمرض نفس المرض اللعين ويعيش معها رحلة العذاب التي عاشها مع زوجته الراحلة لحظة بلحظة حتى فارقت الحياة بين يديه، وأنه لا يعرف إذا كان من الأفضل لنا أن نستمر في حياتنا معا مع ما ينطوي هو عليه من شكوك ومخاوف تجاهي أم أنه من الأفضل لنا أن ننفصل بسلام وقبل أن يتعلق كل منا بالآخر أكثر من ذي قبل ويبحث عن حظه في طريق آخر؟

وبكيت بالدمع الغزير وأنا أطلب منه ألا يتخلى عني ويهدم أحلامي وهو الرجل الوحيد الذي أحببته، وطلبت منه أن يسال الأطباء عما إذا كان لمخاوفه هذه أي أساس من الصحة قبل أن يظلمني ويشقيني وقال لي أن الطبيب قد أكد له أنه ليس هناك ما يشير إلى احتمال تجدد هذا الورم أو تحوله فيما بعد إلى ورم خبيث لكنه لا يستطيع رغم ذلك أن يبعد عن ذهنه هذا الاحتمال، ولا صورة زوجته الراحلة وهي تعاني من ذلك المرض اللعين في مراحله الأخيرة المؤلمة.

وانتهت جلسة المصارحة بيننا بغير نتيجة حاسمة، وظل هو على فتوره وشروده وظللت أنا على حيرتي وقلقي.. وذات يوم قال لي أنني لن أستطيع الإنجاب بعد الجراحة وأن الطبيب لم ينف له هذا الاحتمال فقلت له إنني سأكتفي بطفليه اللذين أحبهما وأشعر بسعادة الدنيا حين يناديني أحدهما بالكلمة الحبيبة ماما.. لكنه لم يهدأ رغم ذلك ولم يسترح، وحين اشتد بي الهم والحيرة صارحت أمي بما أعانيه وحزنت كثيرا من أجلى ولكنها «بجرأتها»، المعهودة تحدثت معه في الأمر طويلا وذكرته بإيمانه بربه وقالت له كل ما يمكن أن يقال في هذا الشأن، وزادت على ذلك أن قالت له إنه حتى لو حدث لا قدر الله ما يخشى منه، فلن تدعه يتحمل عناء مرحلة العلاج والمرض وإنما

سوف «تسترد» ابنتها منه وترعاها وسوف ينفق أبوها على علاجها من مرضها.. وغضب زوجي من إشارة أمي إلى أعباء العلاج المادية غضبا شديدا حتى كان يرتجف من الانفعال أمامها وقال لها بأدب إنه لم يكن يقصد ذلك في حديثه عن معاناته مع المرض وإنما يقصد المعاناة النفسية ونظرة التشاؤم التي ظللت حياته ويريد أن يخرج منها

ومازال زوجي شاردا وحزينا ومبتعدا عني يا سيدى وهو إنسان طيب وشهم ومحبوب من أفراد أسرته وأصدقائه، وكل من حولي من أفراد أسرته يطالبونني بالصبر عليه إلى أن يتغلب على هواجسه وشكوكه واكتئابه.. ولقد صبرت حتى مضت شهور على زواجنا وهو مازال على نفس الحال.. وأشعر أنه يكاد يطلب مني العودة إلى بيت أمي، لكنه يخجل من مصارحتي.. وأنا أحس بذلك وأتألم ويشحب لون وجهي ويهزل جسمى.. وهو لا يرق ولا يترفق بي.. إنني أحبه يا سيدي ولا أريد مفارقته.. ولا أستطيع الاستغناء عنه ولا عن الطفلين اللذين أعتبرهما من أولادي، ولا أعرف ماذا أفعل لكي أبدد مخاوف زوجي من احتمال اصابتي بالمرض الذي أودى بحياة زوجته الأولى.. وشعرت بالمهانة والذل أكثر من مرة وأنا أطلب منه أن يعرضني على «كونصلتو»، من الأطباء ليعرف منهم أنني سليمة واحتمال إصابتي بالمرض كاحتمال اصابة أي شخص آخر به ثم تطور الموقف بيننا فجأة ودعتني أمي لقضاء ليلة بين أفراد أسرتي واستأذنت زوجي في ذلك ففوجئت به يقول لي ساهما إنه ربما كان من الأفضل أن أقضي بعض الوقت مع أسرتي.. لعل كلا منا يراجع نفسه خلال هذه الفترة ويقرر ما يصنع بحياته.. وفي هذه اللحظة شعرت بالرثاء لنفسي والحزن وغادرت بيتي حزينة دامعة.. وقبلت الطفلين ورفضت أن يوصلني زوجي إلى بيت أسرتي وركبت سيارة أجرة إليه ومعي حقيبة ملابس صغيرة، ومنذ ذلك الحين قبل أسبوعين وأنا مقيمة ببيت أسرتي.. لا يربطني بزوجي سوى الاتصال التليفوني وخاصة من جانب الأطفال حتى بعد انتقالهم لبيت جدتهم وزوجي لا يزورني في بيت أسرتي ولا يدعوني للعودة.. ولا يجيب على تساؤلاتي عن المستقبل سوى بهمهمة غير مفهومة ولا توضح مقصده.. إن أمي تقترح علي العودة للبيت وتبرر لي ذلك بأن زوجي حائر ومتردد ولن يحسم أمره قبل فترة طويلة وأن وجودي إلى جواره سيساعده على اختياري بدلا من التخلي عني وأنا أريد العودة إليه وإلى الأطفال

الذين افتقدهم بشدة لكن هل أعود إليه بلا دعوة منه لكي «أورطه» في الاستمرار معي وهو لا يريد ذلك، إنني أريد منه أن يريدنى كما أريده وليس أن نعيش معا حرجا من إيلامي أو إيذائي بالطلاق.. وهذا لن يتحقق إلا إذا تخلص من مخاوفه وهواجسه.. فهل تكتب إليه كلمة تناقش فيها موقفه مني ومن هذه المخاوف والهواجس إنه يقرأ لك ويتأثر بآرائك وقد قال لي إنه قد كتب إليك عقب رحيل زوجته وأنك رددت عليه برسالة شخصية تواسيه وتخفف عنه وتدعوه لأن يتماسك لكي يستطيع أداء رسالته مع طفليه، كما نصحته بأن يتزوج ليجد أما بديلة لأطفاله.. فهل تكتب له كلمة ثانية ترجوه فيها ألا يحرمني منه ومن الحب الوحيد الذي نبض به قلبي.. ومن الأطفال الصغار الذين أحبهم ويحبونني؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لو كانت أقدار الإنسان بيده لما اختار أحد لنفسه المرض أو التعاسة أو فراق الأعزاء.. لكننا نعرف جميعا أن أقدارنا ليست في النهاية رهينة بإرادتنا الحرة وحدها، وإننا لا نختار لأنفسنا ما تشاء الحكمة الإلهية التي تجل عن الإفهام أن تمتحننا به من محن الحياة ونعرف أيضا أننا لا نملك إزاءها إلا أن نهتف صامتين بما هتف به من قبل نبي الله داوود عليه السلام حين قال: لله الحكمة.. ولنا الألم!

ولأن الأمر كذلك فليس علينا إلا القبول بما اختارته لنا الإرادة الإلهية وأن نحاول التخفيف من خسائرنا النفسية والمعنوية بالتواؤم مع ظروفنا.. والتماس العزاء في الجوانب الأخرى المضيئة من حياتنا. والواضح يا سيدتي هو أن زوجك لم يقبل بعد بما امتحنته الإرادة الإلهية في محنة مرض زوجته ورحيلها عن الحياة يرحمها الله.. وأنه مازال أسير نظرته التشاؤمية للحياة التي أورثته إياها هذه المحنة، ثم شاءت له أقداره وأقدارك معه أن يواجه شبح الخوف من تكرار نفس المحنة معك فاضطربت أفكاره ومشاعره واستسلم للتشاؤم فأثر كل ذلك على حسن تقديره للأمور وعلى تجاوبه مع حياته الجديدة وشريكته فيها.

إن كل إنسان في الوجود لا يخلو من الخوف من المرض بنسب متفاوتة، بل لعله الخوف الوحيد في منظومة المخاوف الإنسانية الذي يشترك فيه كل البشر بلا استثناء، وعلى حين قد تتخلص القلة من البشر من خوفها الإنساني الدائم من الموت فتسعى إليه إراديا أو تقدم على الانتحار، فإن أحدا لا يسعى إلى المرض أبدا بإرادته أو يرجوه لنفسه أو لأعزاءه أو حتى لأعدائه وخصومه.. ومع أن الأصل في المخاوف المرضية هو أن تنحصر في مخاوف الإنسان الذاتية من المرض أساسا ثم تتدرج إلى مخاوفه على أعزاءه، فإنها في حالة زوجك لا تخالف كثيرا هذه القاعدة لأنه في الحقيقة إنما يشفق على نفسه هو من أن يعايش تجربة المرض الأليمة لشريكة الحياة التي عايشها من قبل، وقد ساعدته نظرته التشاؤمية التي أكسبته إياها المحنة السابقة على الميل لتوقع أسوأ الاحتمالات بدلا من الأمل في أفضلها، ويبدو أن تجربته السابقة مع الألم قد طبعت روحه بطابع تشاؤمي لم تنجح الأيام بعد في محوه أو إزالته عنها، لكن الأمل قائم وكبير

رغم ذلك في أن يتخلص من هذه الروح التشاؤمية ويقتنع تدريجيا بانه ليس «مستهدفا » من الأقدار بحيث تخصه وحده من دون البشر أجمعين بتكرار نفس المحنة مرتين.

ولابد له من أن يعين نفسه على الشفاء من هذه المخاوف المرضية بالحوار المنطقي مع النفس وبالتسليم بإرادة الله، وأن يؤمن مع الجميع بانه لا أحد يستطيع أن يضمن الصحة أو يؤكد لغيره أنها ستظل على ما يرام إلى نهاية الرحلة، لكن ذلك لا يمنعنا من أن نحيا حياتنا ونتفاءل بالغد ونأمل في أرحم الراحمين سبحانه وتعالى أن تكون رحلتنا في الحياة رحلة آمنة هادئة محتملة الآلام، ولو أمعن زوجك النظر فيما واجهه في حياته من اختبارات لأدرك أن الله سبحانه وتعالى لم يؤخر عنه جوائز الصابرين والمبتلين، بل سارع إليه بها.. لكنه يكاد بقنوط روحه أن يرفضها أو يبددها من بين يديه فلقد بدله بزوجته الراحلة يرحمها الله، زوجة محبة فاض عليه ينبوع حبها المحروم فغمره وغمر طفليه المحرومين معه، وقبلت بأن تتنازل عن حقها المشروع في الاحتفال بزواجها كما تحتفل به كل فتاة في مثل ظروفها، تمسكا به وأملا فيه كما تنازلت عن حقها في اختيار أثاث عشها الصغير وقبلت بان تبدأ حياتها الزوجية في نفس المسكن الذي شهد ذكريات الزوجة الأولى وارتبط بها، وبادرت باستعادة أطفال زوجها بعد أسبوع واحد من زواجها لتسترضيه وتدخل البهجة إلى قلبه وتحملت بعد ذلك فتوره وشروده وبعده عنها..

ثم وجدت نفسها أخيرا «تحاكم» على شيء عجيب ومؤلم لم تجنه يداها وهو أنها قد تكرر محنة المرض الذي أودى بحياة الزوجة السابقة.. وبالرغم من أن مجرد الإشارة إلى هذا الأمر تجرح المشاعر والأحاسيس جرحا غائرا، فلقد طرح الموضوع للبحث معها وكان من يناقشونه لا يتحدثون عن زوجة لها كرامتها الإنسانية وأحاسيسها التي تتأذى أبلغ الأذى لمجرد استشعارها تخوف زوجها من أن تمرض في المستقبل ويشاركها محنة مرضها، ثم بلغت المأساة قمتها ووالدتك تعرض عليه أن تعفيه -إذا حل القضاء - لا قدر الله - من تحمل تبعات المحنة ومعايشتها فما هذا الهوان يا سيدتي؟

وكيف تقبلين على نفسك وأنت الحرة الأبية أن تطلبي منه عرضك على «كونصلتو» من الأطباء ليؤكدوا له «براءتك» من شبهة المرض في المستقبل بالداء اللعين أو بغيره من الأدواء؟..

إننا نحترم الحب الطاهر البريء الذي يدفع شابة جميلة مثلك لأن تحرص على استرضاء زوجها بكل الطرق المشروعة.. لكننا لا نقبل في نفس الوقت لأحد أن يمتهن نفسه على هذا النحو المؤلم دفاعا عن هذا الحب، ولا نرضى لأحد بهذا الإحساس الذليل «بالدونية» تجاه شريك الحياة أو تجاه أي إنسان في الوجود، فلكل إنسان كرامته الإنسانية في النهاية مهما كان وضعه وقدره، ومن حقه بل ومن واجبه تجاه نفسه ألا يفرط في هذه الكرامة التي غرسها الله فيه حين نفخ في روح الإنسان من ذاته العلية جل شأنه.

إن تحليل والدتك لشخصية زوجك سليم إلى حد كبير.. لكني لا أرى لك رغم ذلك أن ترجعي إلية على غير إرادته، أو بغير دعوة صريحة بل وحارة من جانبه بهدف أن يكون وجودك إلى جواره عاملا ضاغطا عليه يرجح كفة الاستمرار بدلا من الانفصال، وأفضل لك أن يحسم هو اختياره لك أو للاستسلام لمخاوفه المرضية ونظرته التشاؤمية بعيدا عن مؤثرات الحرج الإنساني منك وأنت تقيمين في الجوار. وليس يعني ذلك أن تنقطع صلتك به أو أن يحل الجفاء والخصام بينكما خلال فترة حسم الاختيار، ذلك أن هذه القطيعة نفسها قد تصبح عاملا آخر من عوامل الضغط عليه قد توجه اختياره إلى ما لا يريده في أعماق نفسه، وإنما أرى لك أن تستمر صلتك الإنسانية به عن طريق التليفون، وعن طريق زياراته لك في بيت أسرتك مع استمرار صلتك بطفليه كذلك إلى أن يحسم هو مخاوفه وشكوكه منفردا وبملء إرادته الحرة واقتناعه ثم يأتي إليك طالبا عودتك إليه وتبدآن معا الصفحة الحقيقية الأولى في حياتكما الزوجية.. فإذا حدث ذلك خلال فترة مقبولة وتخلص من كل هواجسه ومخاوفه تجاهك فلقد كسبت سعادتك واعتزازك باختيار زوجك الحر لك وتمسكه بك، أما إذا مضت الأمور في الاتجاه الآخر وهو احتمال ضعيف في تقديري، فيكيفك أنك قد حاولت بإخلاص استعادة زوجك دون التفريط في كرامتك ودون استجدائه العودة إليك، أو توريطه في ذلك ولسوف تواجهين الحياة بعد ذلك مزودة بخبرة ثمينة أضافتها إليك هذه التجربة المؤلمة في حياتك كما أن خسائرك فيها لن تكون مضاعفة بالإنجاب والإشفاق على أطفالك من التمزق بين أبويهما.. ولسوف تعوضك الحياة عن هذه التجربة التعيسة بخير منها بإذن الله.

فليحسم إذن زوجك أمره وأمر هواجسه المرضية ونظرته التشاؤمية للحياة بغير تدخل منك بعد أن بذلت أنت كل ما تستطيع زوجة في مثل ظروفك أن تبذله للحفاظ على زوجها.. وليستعن هو بمن يشاء الاستعانة بهم من الأطباء المتخصصين أو الاستشاريين النفسيين في حسم مخاوفه وموقفه منك، ولتكن عودته إليك حين يعود بإذن الله ليست لأن الأطباء قد أكدوا له أنك لن تصابي بالمرض اللعين بإذن الله وإنما لأنه قد راجع نفسه وتبين له خطا موقفه منك ولا إنسانيته وامتحن مشاعره تجاهك بعد انقشاع سحابة المخاوف التي تضل النظر وتفسد التفكير فاكتشف عمق مشاعره تجاهك وعمق حبك له ولأطفاله.. وعمق حب هؤلاء الأطفال لك، فجاء إليك ساعيا وراجيا ألا تحرميه وتحرميهم منك.. وألا تحرمي نفسك أيضا من السعادة التي تستحقينها في ظلال هذه الأسرة الصغيرة.. وليتذكر زوجك خلال فترة المراجعة والحوار المنطقي الهاديء مع النفس ذلك الدرس القديم الذي يتعلمه التعساء دائما بعد فوات الأوان، والذي أشار إليه المفكر الفرنسي مونتيسكيو حين قال إنه ليس هناك إنسان لم يعبر الحظ السعيد ببابه ذات يوم، لكن قليلين منا للأسف هم الذين يدركون في الوقت المناسب حقيقته، ويتمسكون بفرصتهم معه ويفوزون بالسعادة والأمان قبل أن يغادر بابهم يائسا إلى شخص آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شجاعة الحياة!

أرجو أن أجد لديك مكانا «أصرخ» فيه كما يصرخ الآخرون وتسمع لهم لأنني «أصرخ»، هنا وحدي في الغربة ولا أجد من يسمعني، فأنا سيدة عمري 26 عاما، وقد بدأت مشكلتي عقب وفاة والدي، فلقد كانت لأبي شخصية قوية وجبروت، ولم يكن أحد من إخوتي - وهم ستة من الذكور يكبرونني جميعا - يجرؤ على مناقشته في أمر من الأمور، أو الاعتراض على شيء وكذلك كانت أمي معه، إلى أن تزوج أخوتي الذكور جميعا، وبقيت وحدي مع أمي وأبي، ثم رحل أبي عن الدنيا ووجدت أمي نفسها في مواجهة الحياة لأول مرة، وخلال هذه الفترة ظهر في حياتي شاب حاصل على مؤهل عال ويعمل بوظيفة مناسبة، فأحببته وأحبني وتعاهدنا على الزواج وتقدم لخطبتي فانقسم إخوتي الرجال بين معترض وموافق، والمعترض لا يذكر أسباب اعتراضه سوى بالقول إن هذا الشاب أفاك وكاذب ويخدعني ويستغلني ويريد أن يتزوج «على الجاهز» ومن يوافق لا يبرر موافقته سوى بأن هذا هو اختياري وأنني وحدي الذي أتحمل مسؤوليته، فكان في صف الرافضين أربعة من إخوتي وكان في جانب الموافقين أثنان فقط، وكنت أنا صغيرة السن وأحب هذا الشاب حبا يعميني ويصم آذاني عن كل شيء، ولا ألمس فيه ما يؤيد اعتراض المعترضين عليه فتزوجته، وخاصمني لذلك أخوتي الأربعة الرافضون وقاطعوا زواجي، ووقف معي في زواجي اثنان من اخوتي فقط ليس اقتناعا باختياري وإنما حرصا منهم على عدم تركي وحيدة في زواجي وبدأت حياتي الزوجية معه، فإذا بي أجد فيه ومنذ الأيام الأولى إنسانا قاسيا وغليظا وشديد الكسل والاتكالية ولا يريد أن يتعب نفسه في شيء، فضلا عن أنه متقوقع حول ذاته ولا يعنيه من الحياة سوى أمر نفسه، فإذا صحا من النوم وشعر ببعض الصداع، فإنه لا يغادر الفراش ولا يذهب إلى العمل ويريد أن يقول له ألف إنسان سلامتك كما أنه أيضا نكدي للغاية ولا تعرف الابتسامة طريقها إلى شفتيه، وبعد زواجي منه بشهر واحد حصلت على عقد عمل بإحدى الدول العربية وحصل زوجي على إجازة بدون مرتب من عمله وسافر معي كمرافق على مضض منه فاستطعت أنا أن أثبت جدارتي وامتيازي في عملي، أما هو فلم يستطع العمل ليس لانعدام الفرص، وإنما لأنه لا يريد أن يتعلم أي شيء ولا أن يكافح أو يتحمل شيئا، وإنما يريد أن يعمل «مديرا» و يجلس إلى مكتب في الصباح لعدة ساعات ثم يرجع للبيت في الظهر ويتقاضى مرتبا كبيرا، وكلما استطعت الحصول له على فرصة عمل عن طريق زميلاتي ذهب إلى العمل ثم رجع يسب رؤساءه ويقول إنهم لا يفهمون شيئا ولا يقدرونه وتضيع فرصة العمل، وكنت في البداية أصدق كل ما يقوله إلى أن سألت إحدى زميلاتي توسط زوجها له في إحدى المرات فأخبرتني برأي زوجها فيه وهو أنه ليس متحمسا للعمل ولا مجتهدا مثلي، وكانت النتيجة أن مضى عامان حتى الآن وأنا أعمل في الغربة وهو يجلس في البيت ولو توقف الأمر عند هذا الحد لهان ولما شكوت منه، لكن المشكلة هي أنه يسيء معاملتي دائما ويضربني ويهينني ويشك في سلوكي مع أني

- يعلم الله - احفظ نفسي في السر والعلن، كما يريد أيضا أن يستولي على كل مرتبي مقابل أن يعطيني مصروفا شهريا للنثريات فقط، وقد

رفضت ذلك وخيرته بين أن يعمل هنا أو نرجع معا إلى مصر ليعمل بوظيفته وأجلس أنا في البيت كغيري من الزوجات، فرفض ذلك بشدة وأقسم علي يمين الطلاق وكانت أزمة شديدة بيننا تدخل الأصدقاء لإنهائها ثم عرف بالمصادفة أنني أرسلت لأمي مبلغا صغيرا كهدية لها بمناسبة عيد الأم الأخير فغضب لذلك غضبا شديدا وضربني وأهانني وأقسم علي مرة أخرى بيمين الطلاق إن لم أعطه كل مرتبي ليتولى هو الإنفاق على البيت.

والآن يا سيدي فلقد مضى عامان ونحن على هذا الحال، هو ينهض من نومه عند الظهر ولا عمل له إلا مشاهدة التليفزيون وقراءة الصحيفة والتنكيد علي باستمرار، فهل من الممكن أن تتحول علاقة رجل بزوجته إلى علاقة مادية فقط؟ إنني الآن أتذكر كل ما قاله عنه إخوتي الأربعة وأبكي دمعا ودما على سنتين من عمري ضاعتا في العناء والمعاناة، وزوجي يستمتع بالكسل والفراغ وأنا أشقى وأعمل، ولو كانت هذه هي مشكلتي وحدها لما شكوت، فالحمد لله الذي أعطاني الصحة للعمل والكفاح. لكن المشكلة الحقيقية في أنه لا يعاملني معاملة طيبة ولا يضحك في وجهي أبدا، فهل من العدل أن أعمل وأشقى في الغربة ثم أضرب واهان في النهاية ويقسم علي زوجي بيمين الطلاق عند كل خلاف؟

إنني أريد أن أتركه لكن ماذا أفعل واخوتي الأربعة يقاطعونني بسببه والشقيقان الآخران ليس عندهما وقت لمشاكلي، وأمي سيدة مسنة ولا تستطيع أن تقف معي وحدها في مسألة مهمة كمسألة الطلاق؟

لقد تعبت من العمل وأريد الراحة من الأشغال الشاقة التي أمارسها هنا في الغربة، كما أريد أن أسعد بحياتي، حيث لم أعد أستطيع تحمل الإهانات والضرب وسوء المعاملة، وفي بعض الأحيان تلح علي فكرة الانفصال عنه وفي أحيان أخرى أقول لنفسي «إن ظل رجل أفضل من ظل حائط» ولكن كيف أستطيع مواصلة الحياة مع زوج لا أراجعه في شيء إلا وأقسم علي بالطلاق، إنني أسالك المشورة هل تنصحني بالاستمرار والتحمل أم تنصحني بالانفصال عنه، مع العلم بأنني لو فعلت ذلك فلن يكون لي الحق في الحصول على شيء لأن كل شيء باسمه، حيث إنه و الرجل، كما قال لي، كما أنني لن أجد أيضا مكانا أذهب إليه بعد زواج كل أشقائي ولأن أمي تعيش الآن مع أخي الأكبر

وزوجته وأولاده، فأشر علي بما أفعل يا سيدى.. وقل لزوجي كلمة تنصحه فيها بألا يقسم علي بيمين الطلاق مرة أخرى وأنا لا أحد لي سواه وليست عندي الشجاعة لمواجهة الحياة وحدي ومواجهة لوم الجميع لي على اقتراني بمثل هذا الإنسان، إنني أريد من يصرخ في وجه زوجي ويقول له إن ما يفعله خطأ وحرام ولا يرضي الله، وأريد من يكون لي بمثابة الأب فيأخذ لي حقي من هذا الإنسان الذي أهدر كرامتي وإنسانيتي، فلعل كلماتك تكون هي البلسم الذي يفك طلاسم

زوجي وتوقظ ضميره ونخوة الرجولة فيه ليعاملني معاملة الإسلام، ويخشى الله في ويضحك في وجهي ويتوقف عن هذا النكد معي «آمين يا رب العالمين».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لا يعدل ضعف الإنسان في بعض الأحيان إلا عناده وقصر نظره وتعاميه عن رؤية ما يراه الجميع واضحا كالشمس في كبد السماء.. فيما عداه يا سيدتي الشابة المعذبة المهانة كل أخوتك الرجال وليس معظمهم، كما تقولين اعترضوا على ارتباطك بهذا الشاب ولمسوا فيه خداعه لك ونيته الظاهرة لاستغلالك واستغلال ظروفك الأفضل من اللحظة الأولى وأشفقوا عليك من الوقوع في براثنه منذ البداية وتمادى أربعة منهم في الرفض والاستنكار إلى حد القطيعة التامة لك ولزواجك تمسكا بموقفهم، ومن لم يقاطعك منهم لم يؤيد اختيارك علانية ولم يزكه وإنما أشفق عليك فقط من الزواج وحيدة بلا أهل ولك العصبة من الأخوة الرجال ولعلهما لم يفعلا ذلك إلا بالإلحاح العاطفي عليهما من جانب أمك إرضاء لها وليس لك، فلا ترين رغم كل ذلك وجه الحكمة في اعتراض ستة من الرجال الراشدين بلغوا كلهم من العمر أنضجه، وتنساقين وراء هوى وحده وأنت صغيرة السن وعديمة الخبرة بالحياة والرجال وبغير مراجعة للنفس ولا محاولة للاستفادة من آراء من حولك؟

يا إلهي.. ماذا كنت تنتظرين إذن وقد ضربت عرض الحائط بخبرة السنين، وصلات الرحم، وصوت العقل، إلى أن تنكشف لك التجربة عن سوء الاختيار من الوهلة الأولى؟ إن اختيار الإنسان هو أصدق شهادة عليه وعلى رؤيته للحياة، واختيارك لزوجك هذا في وجه الإجماع العائلي على رفضه والتشكك في نياته تجاهه، لا يكشف إلا عن الاندفاع والتسرع وعدم الاحتفاء بآراء الآخرين حتى ولو كانوا أحرص الناس عليك.. وقديما قال الشاعر العربي:

قد عرفناك باختيارك إذ كان دليلا على المرء اختياره

فهل يكون غريبا أن تثبت لك الأيام بأسرع مما ظننت خطأ هذا الاختيار؟ ثم ما هذا الضعف المهين الذي ينحدر إلى مستوى ذل العبودية الذي تتعاملين به مع زوجك، وما من شيء يجبرك على احتمال الهوان منه إلا ذلك «الخائن الصغير».. الذي ينطوي عليه صدرك ومازال ينبض له بالحب، رغم ما تلقينه منه من هوان؟

إنك لم تنجبي منه أطفالا يربطون بينك وبينه برباط أبدي وليس لديك ما يدفعك لاحتمال الهوان من زوج كسول يعيش عالة عليك ويصادر كل ما تكسبين بكدك وعرقك ويكتب كل ممتلكاتكما باسمه لأنه «الرجل» كما يقول، ثم لا يكتفي بكل ذلك بل يسومك أيضا سوء العذاب بالضرب والإهانة والتهديد بالطلاق والنكد الأزلي المقيم في كل لحظة. فماذا يدعوك إذن لاحتمال هذا العناء؟

إنك للأسف يا سيدتي لا تملكين «شجاعة الحياة».. وشجاعة الاعتراف بالخطأ.. والإقدام على تصحيحه، ولو تحملت في سبيل ذلك أبسط التبعات... وهو لوم الجميع لك على سوء الاختيار، وكل مبرراتك للاستمرار في هذا الهوان ليست مبررات جادة ولا حقيقية وليست سوى خداع آخر للنفس لحملها على الاستمرار في هذه الحياة استجابة لنداء ذلك «الخائن الصغير» بين حنايا الضلوع، فأنت لست في النهاية بلا أهل حتى ولو كان أربعة من أشقائك قد قاطعوك استنكارا لعنادك ورفضك الاستماع لنصيحتهم، وهؤلاء الأخوة الأربعة هم أول من يبادرون إلى نجدتك إذا امتلكت أنت شجاعة الاعتراف بالخطأ وشجاعة الاعتذار لهم عن تعاميك السابق عن مشورتهم الأمينة لك، ثم طلبت بعد ذلك نجدتهم وتحملت لومهم، وهو ضريبة هينة لن يكون أداؤها أشد مضاضة عليك من تحمل الهوان كل يوم مع من لا يحفظ عليك كرامتك وإنسانيتك حتى في الغربة.

أما أنه لا بيت لك تلجئين إليه إذا انتهى أمرك مع زوجك بالانفصال، فهذه حيلة نفسية أخرى تبررين بها لنفسك هذا الميل «المازوكي» لديك للقبول بتجرع الإهانة والضرب والاستغلال من زوجك، ففضلا عن أن بيت الأسرة القديم مازال قائما كما فهمت من سطور رسالتك، وفضلا أيضا عن أنه ما أسهل أن ترجع إليك والدتك لتقيم معك وهي التي لم تغادره إلا حين أصبحت وحيدة تماما بعد زواجك وسفرك، فلن يضيق بك أحد بيوت أشقائك الستة لفترة مؤقتة تدبرين فيها أمرك وتكتسبين فيها بعض الجرأة على مواجهة الحياة إذا أردت الانفصال عن زوجك وليس معنى كلامي هذا أنه لا حل لمشكلتك مع زوجك الآن سوى الانفصال، وإنما معناه فقط هو أن الإنسان إذا قدر أسوأ العواقب.. واستعد نفسيا لمواجهتها فإن تسليمه بأسوأ الاحتمالات هذا سوف يحرر طاقته النفسية من الخوف الذي يشل إرادته، ويمنعه من اتخاذ ما يراه عادلا وضروريا في حياته من خطوات.

فإذا تحررت بينك وبين نفسك من هذا العجز النفسي الذي يصور لك الانفصال عن زوجك وكأنه نهاية الكون، فلسوف تتحرر طاقتك النفسية وإرادتك وتتعاملين مع زوجك المعاملة العادلة التي لا تقبل الهوان ولا تجترئ في الوقت نفسه على الآخرين.

وقديما قال أحد الحكماء: لو لم تكونوا وعولا لما استباحتكم السباع الضارية.

ومع إني لا أؤمن بسياسة المناطحة بين الزوجين إلا أنني لا أقبل أيضا أن يستبيح أحد الزوجين حقوق الآخر وكرامته وإنسانيته اعتمادا على حبه له او اعتمادا على ضعفه معه وقلة حيلته وعجزه عن إيجاد البديل الكريم لحياته معه.

أما قوامة الرجل على المرأة فهي ليست حقا إلهيا مطلقا بلا حدود ولا قيود، وإنما هي قوامة مشروطة بنهوض الرجل بمسؤولياته المادية والأدبية والإنسانية عن زوجته، فمن عجب إذن أن تتحول أسباب الضعف في موقف زوجك بالنسبة إليك وهو الذي يعيش في كنفك ومن عائد عرقك وكدك إلى أسباب «للقوة» معك والافتراء عليك، فإذا تجاوزنا حتى عن تأثيرات مركب النقص الذي يشعر به عادة الرجل في مثل هذا الوضع تجاه زوجته وتداعيات ذلك من محاولته لافتعال القوة

والصرامة في معاملتها أحيانا لتعويض إحساسه العميق بالضعف والنقص تجاهها وهو يرى حياة الأسرة تدور حول محور آخر غير محوره، أقول إننا حتى إذا تجاوزنا عن ذلك وتفهمناه فإنه لا يبرر له أبدا الاستيلاء على كل دخلك ولا إهانتك وضربك وتهديدك بالطلاق في كل حين، والحق أنك لو واجهته مرة واحدة بتقبلك لاحتمال الطلاق والاستعداد النفسي للقبول له لنزعت منه هذا السلاح الوهمي الذي يهددك به وهو أعلم الناس بأنه لن يستخدمه أبدا معك. وبأن احتياجه إليك أكبر من احتياجك إليه ولسوف يقاتل حتى الرمق الأخير، لكيلا تتحرري من إساره.

يا سيدتي بادري باتخاذ الخطوة الأولى لتصحيح ما سلف من أخطائك وهي استعادة صلتك العائلية بأشقائك المغاضبين لك، واعتذري لهم جميعا عن سابق موقفك منهم ولا تطلبي منهم الآن التدخل بينك وبين زوجك، وإنما فقط لا تحرمي نفسك من هذا السند العائلي المتين كاحتياطي استراتيجي ضروري و مهم في اختبارات الحياة المختلفة ولسوف تتغير موازين القوى تلقائيا في علاقتك بزوجك حين يتبين له بالتدريج إنك لست - كما تقولين- بلا سند في الحياة سواه، وإنما لك من أخوتك وأهلك أيضا ما تعتز به كل أخت مثلك من تأييد أشقائها واستعدادهم لحمايتها والدفاع عنها ضد السباع الضارية.

أما زوجك فلن أناشده ولن أستثير فيه نخوة الرجولة ولا صحوة الضمير، وإنما سوف أقول له فقط ما قاله أستاذنا الراحل مصطفى صادق الرافعي في كتابه الجميل السحاب الأحمر:

«لم يخلق الله أحدا مكروها قط، وإنما نبغض الناس من الصور التي يحدثونها، فعملك هو شخصك الحقيقي».

فلا يعتمدن طويلا على ما يتصوره من تمكن حبه من واستعدادك اللانهائي للتمسك به وعدم التفريط فيه، فنبع الحب سريع الجفاف إذا أسرفنا نحن في نزح مائه دون أن نمد إليه من جانب آخر روافد العطف والحنان والعدل والعطاء والحرص على الطرف الآخر.. ولا يلومن أحدا إلا نفسه إذا تمادى في «إحداث الصور» التي تجفف ينابيع الحب في قلوب من كانوا يتيهون به على العالمين.. ولن يندم أحد سواه في النهاية إذا قدم هو كل يوم لأخوتك الدليل تلو الدليل على صدق حكمهم عليه من البداية ثم

أفاق ذات يوم فلم يجدك إلى جواره.. وشكرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النظرات اللائمة!

أنا رجل في الخمسين من عمري أعطتني الحياة وأخذت مني بدأت رحلتي مع الحياة حين توفي أبي تاركا خلفه أسرتين هما أمي وأنا وحيدها، وزوجة أبي الأخرى وأربعة اخوة غير أشقاء، وكانت لأمي السطوة في حياة أبي لأنها من أسرة عريقة، فكان ذلك يؤدي إلى انفرادها بمعظم الميراث دون زوجة أبي وأخوتي، لولا أن تصدى لها رجل من أسرة أبي وأصر على أن يقسم ميراث أبي حسب الشرع فنالت زوجة أبي وأبناؤها حقوقهم، وانخفض بذلك نصيبنا من الميراث إلى أدنى حد ممكن فأسخط ذلك أمي على كل أفراد أسرة أبي وعلى ذلك الرجل على وجه الخصوص، وقاطعت الأسرة كلها واتجهت بي إلى عالم أسرتها، فنشأت بينهم لا أعرف سواهم، ولا أكاد أعرف أحدا من أسرة أبي، ولا أسمع عنهم إلا ما يبغضني فيهم وفي هذا الرجل الذي وقف ضد أمي، وظل الحال على هذا النحو حتى تخرجت في كليتي العسكرية وتزوجت بدون أن يشهد زواجي أحد من أسرة أبي الذين لم ندعهم للحضور والمشاركة، وكانت والدتي تذكرني من حين لآخر بهذا الرجل الذي ضيع حقوقنا، وجعل أسرة أبي تقاطعنا وفرق بيني وبين إخوتي ولم يكتف بذلك بل راح يساعدهم في حياتهم ليصبحوا أفضل مني! فعشنا وأمي وزوجتي منعزلين عن أسرة أبي، وحين مرضت أمي مرضها الأخير رفضت أن يعودها أحد منهم وأوصتني بألا يشارك أحدهم في وداعها الأخير، ورحلت أمي - يرحمها الله ويغفر لها - عن الحياة، وخلت الدنيا بعدها إلا من زوجتي التي عايشت موقفنا من عائلة أبي ومن ابنتي الوحيدة التي رزقت بها وأصبحت محور حياتنا، وتفرغت لعملي وحياتي وابنتي وراقبتها وهي تكبر وتتقدم من مرحلة إلى مرحلة من العمر حتى استوت آية في الخلق والجمال.. ولأنها كانت تعتبرني وأمها صديقين لها فقد كانت تفتح قلبها وعقلها لنا باستمرار وتحدثنا عن كل شيء في حياتها وعن زملائها في كليتها ومن تستريح إليه منهم ومن لا تستريح الخ، حتى شعرت باهتمامها الخاص بأحد زملائها بالكلية، وجاء عيد ميلادها فأقمنا لها كعادتنا السنوية حفلا عائليا في البيت دعت إليه صديقاتها وزملاءها، وجاء معهم هذا الشاب وقدم نفسه إلي فإذا به يفاجئني بأنه يعرفني من قبل جيدا لأنه فلان ابن فلان!

وإذا به أصغر أبناء ذلك الرجل الذي اعتبرته أمي المسؤول الأول عن حرمانها مما رأته حقا لها في ميراث أبي والذي أفسد ما بينها وبين الأسرة، وفرق بيني وبين إخوتي لأبي، وشعرت بالضيق والارتباك وكان مخزون الكراهية الذي تجمع في أعماقي طوال رحلة السنين يكاد ينفجر في وجهه، وهممت بطرده بالفعل من البيت، لكني تمالكت نفسي لكيلا أحرج ابنتي بين زملائها، وانتهى الحفل وأنا في أسوأ حال، وانفردت بزوجتي بعده فإذا بي ألمس إعجابها وتعاطفها هذا مع الشاب، فغضبت لذلك وطلبت منها أن تقنع ابنتي بالبعد عنه وتجنب الإشارة إليه أمامي.. ووعدتني زوجتي بأن تحاول ذلك.. لكن الشاب لم يخرج من حياتنا بعدها وتردد اسمه أمامي كثيرا على لسان ابنتي المعجبة بأخلاقه ورجولته وكفاحه في

الجمع بين الدراسة والعمل، بل وعلى لسان زوجتي أيضا، وكظمت غيظي الشديد من ذلك مؤملا أن يتغير كل شيء حين تتخرج ابنتي في كليتها ويتفرق زملاء الكلية كل منهم في طريق، لكني فوجئت في حفل تخرج الابنة وزملائها بهذا الشاب يقترب مني ويطلب مني موعدا لزيارتي في البيت، وفوجئت أكثر بإشارات زوجتي لي بألا أرفض ذلك فضربت له موعدا وجاء ليزورني ويفاتحني بنيته في الارتباط بابنتي فلم استطع كبح جماح ثورتي وانفعلت انفعالا صاخبا.. وتوعدته بضياع مستقبله إن هو فكر في ذلك، وخرج الشاب من بيتي طريدا كسير النفس، وتحملت السخط الصامت من ابنتي على أمل أن تنشغل بعد قليل بحياتها العملية وبمن يتقدمون لطلب يدها.. وتقدم إليها بالفعل أكثر من خاطب فقوبلوا جميعا منها بالرفض وأدركت أن هذا الشاب مازال يقف بيني وبينها فتقصيت أخباره وساعدني منصبي الكبير على ذلك فعرفت أنه قد عمل بشركة في المجال نفسه الذي تعمل فيه ابنتي وهو مجال الإرشاد السياحي، وإن فرص اللقاء لن تكون منعدمة بينهما، فاتصلت بصاحب الشركة التي يعمل بها سرا وطلبت منه فصل هذا الشاب لإبعاده عن ابنتى وضحى به الرجل إكراما لي أو قل لمركزي بالرغم من أنه قد أثنى عليه وعلى أخلاقه وكفاءته. واتصل أحد زملاء الكلية بي وكنت أعرف إعجابه بابنتي ورغبته في الارتباط بها فشجعته على التقدم لها وأغريته بأنني سأذلل كل الصعاب أمامه، ففوجئت بهذا الشاب يسألني سؤالا محيرا هو: ألا يعتبر ذلك مؤامرة لا إنسانية ضد فلان؟!

وشعرت أنني محاصر بهذا الشاب وبأصدقائه وزملائه المتعاطفين معه وزاد كرهي له ولاحقته في أكثر من عمل التحق به، وتسببت في فصله أكثر من مرة.. وكلما تقدم لابنتي خاطب آخر رفضته بإصرار، إلى أن علمت بالصدفة أن هذا الشاب قد قرر السفر إلى فرنسا واللحاق ببعض أقاربه الذين يعملون هناك ولاحظت خلال هذه الفترة انكسار ابنتي واكتئابها وفقدها للحماس للحياة، وفسرت ذلك بحزنها لانتهاء القصة، وفي هذه الظروف تقدم إليها خاطب تتوافر فيه كل المقومات ومن أسرة عريقة ففوجئت بها تقبله بلا حماس، وتم عقد قرانها عليه بالفعل وسافر الشاب إياه إلى فرنسا واختفى من مسرح حياتنا واسترحت لذلك كثيرا ولمست عدم سعادة ابنتي بخطيبها لكني هونت الأمر على نفسي بأنها لن تلبث أن تندمج في حياتها الزوجية المقبلة وتسعد بها وتنسى كل شيء آخر، لكن الأيام مضت وابنتي تزداد هزالا وذبولا إلى أن سقطت غائبة عن الوعي بين أيدينا ذات مرة فهلعنا لما أصابها، وحملناها إلى الطبيب فلم يقطع بتشخيص محدد وطلب منا إجراء فحوصات عديدة، وتنقلنا بها بعد ذلك بين عدد كبير من الأطباء، فإذا بآخرهم يصدمنا صدمة العمر الهائلة بان ابنتنا الحبيبة مصابة بورم خبيث في المخ.. ثم يشير علينا بعرضها على أطباء مستشفى متخصص في فرنسا، واستسلمنا لأقدارنا مذهولين، وبدأنا نعد عدتنا للسفر إلى هناك وقبل أن نبدأ الرحلة بأيام فوجئت بآخر ما كنت أتوقعه ونحن في هذه الظروف المؤلمة.. وهو ورقة طلاق ابنتي ممن كنت أظن أنه سيكون ابني الذي لم أنجبه من صلبي والذي سوف يقف إلى جوارها ويرعاها معنا في محنتها الصحية.. وكتمت الخبر عن ابنتي وزفرت هاتفا: حسبي الله ونعم الوكيل، وأكملنا استعدادنا للسفر، وأنا

وزوجتي كالسكارى نتطوح من الحزن والخوف والذهول، وكنت قد كلفت صديقا لي يعيش بباريس بأن يؤجر لنا مكانا نقيم فيه هناك، فاستأجر لنا «ستوديو»، صغيرا أي غرفة بمرافقها في حي بأطراف باربار اسمه «بورت لاشابل»، وسافرنا إلى العاصمة الفرنسية مع بداية الصيف الماضي وغادرنا المطار ففوجئنا بالشاب الذي أراد الارتباط بابنتي وعاملته من قبل أسوا معاملة يقف خارج الدائرة الجمركية في انتظارنا، وعرفت أنه قد علم من صديقي بمجيئنا وبما أعده لنا من سكن في أطراف باريس، وتقدم منا يرحب بنا في أدب ويبلغنا بأنه قد حجز لنا مكانا أفضل وأقرب للمستشفى في الحي السادس عشر وقادنا إليه وأشرف على راحتنا حتى استقررنا فيه، وغادرنا في المساء عائدا إلى المكان الذي يعمل ويقيم فيه خارج المدينة، ثم تفرغ لنا بعد ذلك تاركا عمله وراح يأتي إلينا كل صباح حاملا معه الإفطار ثم يصطحبنا إلى المستشفى ويقضي معنا معظم اليوم ويصطحبنا إلى المزارات المختلفة دون أن يشير أية إشارة إلى ما جرى من قبل بيني وبينه، أما ابنتي فقد تحسنت حالتها النفسية بعض الشيء لكني لاحظت أنه يتفادى الانفراد بها أو الحديث معها بشكل شخصي، كما لاحظت أيضا على ابنتي أنها عاتبة على هذا الشاب عتابا صامتا الأمر لا أعرفه وتمنيت لو عرفته لأجد تفسيرا لنظراتها اللائمة له والتي يتفاداها دائما، وجاء موعد دخولها للمستشفى فإذا بابنتي تصارحني أمامه بأنها قد قبلت بالزواج من الآخر احتجاجا منها على هذا الشاب لأنه قد رفض ما عرضته عليه من أن يتزوجها سرا لكي يضعني أمام الأمر الواقع، لكنه أشفق عليها من أن يعرضها لهذا الموقف معي، وأكد لها أنه لا يريدها ولا يقبل بها إلا في النور وبرضا الجميع، ثم قرر السفر لفرنسا لهذا السبب!!

وأدركت في هذه اللحظة معنى نظراتها اللائمة له وشعرت بالخجل منه وبالاحترام الشديد له ودخلت ابنتي المستشفى وأجريت لها الجراحة المقررة وخرج إلينا الأطباء وعلى وجوههم النتيجة المفجعة وأنهرت أنا وزوجتي انهيارا كاملا، وفقدت الإحساس بالمكان والزمان حتى خيل إلى أنني أشاهد أحداث قصة غريبة لست طرفا فيها.. في حين راح هذا الشاب الذي لم يبك ولم يتهاو على الأرض كأنما قد خلق لمواجهة الشدائد، يتحرك هنا وهناك ويرتب لعودة الجثمان لمصر.. ويستدين من أصدقائه لتغطية النفقات ويتصل بأهلنا بمصر ليكونوا في انتظارنا ويحجز لنا أماكن العودة ويقوم عنا بكل شيء ثم يرجع معنا على نفس الطائرة لأجد في مطار القاهرة زحاما من الأهل الذين اتصل بهم ونسوا سنوات القطيعة والجفاء وجاءوا لاستقبالنا وشد أزرنا والتخفيف عنا، والقيام عنا بكل شيء ومضت الأمور في طريقها المرسوم.. ولم يكن يخفف عني وزوجتي بعض ما يعتصرنا من ألم سوى وجود هذا الشاب معنا، وسوى ما أحسسنا به من صدق تعاطف هؤلاء الأهل وصدق مشاركتهم لنا في مصابنا. وتوالت الأيام بعد ذلك ثقيلة وحزينة، ورحت ذات يوم أقلب أوراق ابنتي أجمع تذكاراتها واحتفظ بها فوجدتني أقرأ ما كتبته عن أحلامها للمستقبل مع هذا الشاب وكيف يحلمان بأن يعملا معا في مجال الإرشاد السياحي ويتزوجا ويتمتعا بالحب والحياة واعتصر الألم قلبي ما حرمتها منه بموقفي من هذا الشاب، وقتلت نفسي لوما وتعذيبا وتمنيت لو كنت قد

حققت لها أحلامها الموعودة هذه، وجاء هذا الشاب لزيارتي فوجدتني اعترف له بكل ما فعلته معه وتسببت له فيه من متاعب في جهات عمله، وأطلب منه أن يسامحني فيما فعلت، فأكد لي ذلك ثم استأذنني في الانقطاع عن زيارتي لأنه سيسافر إلى قريته ويقضي بها بعض الوقت وصافحته مودعا وشاكرا وعلمت من بعض الأهل أنه قد اعتذر عن عدم العودة لعمله السابق كمرشد سياحي ومضت أسابيع لم يتصل بي خلالها، وفي ثالث أيام عيد الأضحى الماضي شعرت برغبة قوية في زيارة مثوى ابنتي الأخير. فتوجهت إليه ففوجئت بهذا الشاب يجلس أمامه واجما وعاتبته لانقطاعه عني خلال الفترة الماضية وأنا من أعتبره الآن ابني الذي عوضني الله به عن فقيدتي، كما لمته على زهده في العمل وجلوسه في قريته بلا عمل فبكى لأول مرة أمامي منذ وقعت الواقعة وقال لي أنه فقد ثقته في الحياة ولم يعد يستطيع جمع شتات نفسه، ولا يقدر الآن على ممارسة عمل المرشد السياحي الذي يتطلب منه أن يكون حاضر الذهن وبشوشا ومبتسما في وجوه السياح ووجدتني أنا الذي فقد وحيدته وكل حياته أخفف عنه وأطالبه بالتجلد ثم أصررت على أن يصحبني إلى البيت وجاء معي وقضى معنا بعض الوقت ثم ودعني شاكرا ومعتذر عن عدم قبول أي مساعدة من جانبي له في العودة لعمله، وأختفى منذ ذلك اليوم عني ولم أعد أراه، ولقد سمعت أن يفكر في استكمال دراساته العليا في الكلية، كما سمعت أيضا أنه قد استخرج جواز سفر بحريا ويفكر في العمل بالبحر ولأنني قد فقدت الاتصال به منذ ذلك الحين فلقد فكرت في أن اتصل به من خلالك، وأن أرجوك أن تكتب إليه مناشدا إياه أن يتقبل أمر الله وأن يصفح بقلب صاف عما فعلت معه، وأن يرجع لزيارتي من حين لآخر لأنني أرى في وجهه ملامح صورة ابنتي الغائبة وأتسمع في حديثه صدي حديثها معي، كما أرجو أن تشجعه على استكمال دراسته العليا واستعادة رغبته في العمل وحبذا لو استطعت عن طريق قرائك مساعدته في العمل بالبحر كما يفكر، وحبذا أيضا لو دعوته لمقابلتك وتفرغت له ساعة من وقتك لتخفف عنه وتشد من أزره وتعيد إليه إيمانه بالحياة فالحق إنني لم أعد أملك له شيئا الآن لكنك تملك له أنت الكثير، أما آخر رجائي لك فهو أن تبلغه أنني قد تعلمت منه - رغم - صغر سنه - كيف يكون الرجال وأنه رجل حقيقي يفخر به أي أب وأي صهر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

قد يعلمنا الأبناء أحيانا بعض ما غاب عنا وظننا نحن بغرور العمر أنه لا يغيب. والحق أن هذا الشاب النبيل لم يعلمك وحدك كيف يكون الرجال، وإنما علمنا نحن أيضا ذلك، كما علمنا كذلك كيف يكون حب الرجال شريفا وأمينا.. وعفيفا.. ومتعاليا عن أهواء النفس وأكثر حرصا على صالح الطرف الآخر وكرامته حتى من نفسه!

فلا عجب إذن في أن يكون هذا الشاب الأمين من سلالة ذلك الرجل العادل الذي أصر على تقسيم ميراث أبيك بالحق والعدل بين زوجتيه وأبنائه حتى ولو أسخط عليه بعض من لم يكن يرضيهم ذلك، ولا شك في أن للعوامل الوراثية أثرها في انتقال بعض الفضائل والسمات النفسية والخلقية من جيل لآخر، فإن لم يكن ذلك بفضل هذه العوامل الوراثية وحدها، فعلى الأقل بفضل التنشئة الأخلاقية والقيم المثالية التي تسود البيئة العائلية لمن يتسمون بهذه المثاليات والأخلاقيات، حتى لقد حار بعض بني أمية في تفسير شدة خامس الراشدين عمر بن عبدالعزيز في الحق والعدل ولو أسخط عليه ذلك ذوي قرباه، فلم يجدوا تفسيرا له سوى انتسابه من جهة الأم إلى الخليفة العادل عمر بن الخطاب فسخطوا على ابن الخطاب على بعد المدى كما سخطوا على حفيده العادل الذي أصر على رد المظالم من أموال بني أمية، والتزم العدل بين الرعية ولو تأملت يا سيدي ما جرى بين هذا الشاب الأمين وبين ابنتك الراحلة يرحمها الله، للاحظت تشابها واضحا في السمات النفسية والأخلاقية، بين الأب وابنه حين يتصل الأمر بما يؤمن أحدهما أنه الحق والعدل، فلقد تصدى الأب لرغبة والدتك في الاستئثار بمعظم الميراث دون غيرها من الورثة، وتحمل راضيا سخطها عليه ومقاطعتها له وللأسرة، وتصدى الابن - مع اختلاف الظروف - لرغبة ابنتك المحبة في الارتباط به سرا لوضعك أمام الأمر الواقع، وتحمل غضبها عليه راضيا أو كارها لأنه رأى في موقفه أنه على حق في ألا يعرض فتاته لما يكرهه لها حتى ولو أغضبها ذلك، وهذه هي الشجاعة النفسية التي تملي على صاحبها تحمل تبعات ما يؤمن بأنه الحق ولو لم يرض عنه أحب الناس إليه.. فأما كرهك لهذا الشاب حين ظهر في أفق حياة ابنتك بعد كل هذه السنين فلقد كان أيضا امتدادا لمخزون الكراهية الذي أودعته والدتك في صدرك تجاه أسرة أبيك وتجاه هذا الرجل العادل على وجه الخصوص. ولقد عاهدت نفسي بعد أن قرأت رسالتك هذه وتأثرت بفجيعتك المؤلمة في ابنتك الوحيدة، ألا يجري قلمي بأية كلمة لوم أو عتاب لك على سابق موقفك من رغبة ابنتك في هذا الشاب، أو موقفك السابق منه، ليس لأنني لا أرى فيهما ما يستوجب اللوم وإنما لأن من آلام الحياة ما يعفي من يكابدها من كل لوم أو عتاب على سابق مواقفه ورؤاه. ولأنك أيضا قد عدلت عن موقفك السابق من هذا الشاب حتى من قبل أن تتردد في الأفق أنغام الرحيل الحزينة، فعرفت له فضله وشهامته وأكبرت فيه رجولته وتعففه عن الاستجابة لنداء العاطفة وحده إشفاقا على ابنتك من غضبك عليها وإشفاقا عليك أنت من معاناة هذه المحنة المؤلمة لك كأب وكأنما قد استشف بإلهام قدري غريب أن الأقدار الحزينة تدخر لك حزنا كبيرا يعلو فوق كل الأحزان وأشفق من أن يتعجلها ويضاعف منها قبل حلول الأوان!

فإذا كنت يا سيدى قد احترقت بلسع الألم والندم وأنت تقرأ في أوراق ابنتك القديمة عن أحلامها في الارتباط بهذا الشاب وتمنيت لو كنت قد حققتها لها في الوقت المناسب، فلقد شعرت في ذلك بما يشعر به الإنسان دائما بعد رحيل الأحباء وما يتمناه مما لو كان قد استطاع أن يحقق لهم كل ما أرادوا لأنفسهم قبل أن تنطوي صفحتهم القصيرة من كتاب الأيام، ولكي يرحلوا إلى السماء سعداء غير محرومين، أما الرحيل فلم يكن ليتأخر لحظة عن موعده المقدور وما كان لأحد من

سلطان عليه، فخفف عن يا سيدى ما تشعر به من ألم لذلك، وثق من أن ابنتك لم يغب عنها رغم أحزانها أنك ما فعلت ما فعلت إلا طلبا لمصلحتها كما تصورتها أنت، وثق أيضا أنها قد لمست تغير موقفك تجاه هذا الشاب خلال رحلة العلاج المريرة في فرنسا وأدركت قبولك له وإعجابك به وبأخلاقياته، ورضيت عن ذلك كثيرا فإذا كانت قصتها معه لم تشهد ختامها السعيد فلأن الأقدار كانت أسبق إليها منك ومما أردته لها من سعادة ولأن الحياة للأسف لا ترد إلينا الأحباء لكي نحقق لهم ما تعلمنا بدرس الألم أن نسلم لهم به بعد فوات الأوان.. وقديما قال المتنبي:

أبى خلق الدنيا حبيبا تديمه   فما طلبي منها حبيبا ترده!

ولأن الأمر كذلك فلا عجب أيضا في أن تجد بعض العزاء في قرب هذا الشاب الذي أحبته ابنتك منك وفي مشاعرك الأبوية تجاهه.. وبعد أن كنت تلاحقه بالأذى في كل عمل يلتحق به، أصبح يحزنك الآن زهده في العمل وفقده للإيمان بالحياة، واستسلامه للاكتئاب، وأصبحت ترجو له صادقا أن يستعيد ثقته في الحياة وإقباله عليها وحماسه للعمل، كما ترجو له أن يواصل دراساته العليا، ويحقق رغبته في العمل بالبحر. والحق أن هذا الشاب يستحق ذلك منك وأكثر.. فهو ممن عناهم الأديب الراحل مصطفى صادق الرافعي حين تحدث عن أنواع البشر فقال إن منهم من تنقص بهم الأحزان.. ومنهم من تتم بهم الأحزان! ولا شك أن هذا الشاب ممن تنقص بهم الأحزان ولا تزيد وأرجو أن يتفضل بزيارتي مساء الاثنين القادم لأتعرف به وأتحدث إليه وأسمع منه.. وأرجو الله أن يوفقني إلى ما فيه خيره وصلاح أمره.. بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ألعاب الخريف

أنا زوجة وأم لثلاثة أبناء.. وزوجي رجل أعمال محترم طيب وكريم ويحبني ويشهد له الجميع بحسن أخلاقه وتدينه، وقد عشنا معا حياة جميلة هادئة كنت له خلالها نعم الزوجة المخلصة المحبة لزوجها التي تصونه في ماله وعرضه وبيته وكان هو كذلك بالنسبة لي. ومنذ عامين رجع إلي زوجي وألقى أمامي قنبلة شديدة الانفجار هي أن فتاة رائعة الجمال في عمر ابنته قد ذهبت إليه في مكتبه في أمر خاص بالعمل، وبعد عدة لقاءات معها في المكتب جرى بينهما ما جرى وأنه سوف يتزوجها ليصلح خطاه لأنه رجل يخاف الله ولا يتحمل تأنيب الضمير، وسوف يحضرها لتقيم بيننا وصعقت لما قاله لي زوجي، وانهرت باكية وطلبت منه الطلاق في هدوء فرفض بإصرار وأكد لي أنه يحبني ولا يستطيع الاستغناء عني أو عن أبنائنا لكنه لا يستطيع أيضا تحمل تأنيب الضمير، ولهذا فهو يريد أن يصحح خطأه أمام ربه ونواصل حياتنا معا كما كانت قبل هذه السحابة العابرة. وكان في هذه الفترة في غاية الرقة معي ومع الأبناء فأشفقت عليه مما يعانيه ووافقت كارهة على أن يتزوج هذه الفتاة بشرط أن يطلقها على الفور لكي يحفظ لمن لم تحفظ كرامتها ماء وجهها أمام أسرتها، وكتمت آلامي في صدري ولم أصارح بها أحدا لكي أحفظ لزوجي صورته وكرامته أمام الآخرين، وخاصة أمام أبنائه الذين يحبونه ويعتبرونه مثلهم الأعلى. ومضت الأيام وأنا أنتظر أن يبلغني زوجي بأنه قد فعل ما اتفقنا عليه وأنهى هذه الصفحة من حياتنا وأسأله كل يوم عما تم في أمر هذه الفتاة فيستمهلني بعض الوقت إلى أن رجع ذات يوم وأبلغني بأن الفتاة قد سافرت إلى أختها التي تقيم بإحدى الدول العربية لمرض الأخت المفاجئ وحاجتها لمن ترعاها في مرضها بالغربة، واسترحت لذلك بعض الشيء لكن قلبي لم يطمئن وبعد أسبوع آخر أبلغني أنها قد اتصلت به تليفونيا من الخارج وأنه قد سجل هذه المكالمة واسمعني إياها فإذا بها تقول فيها إنها ستستقر في تلك الدولة العربية وأن زوج شقيقتها سيبحث لها عن عمل هناك. فاطمأن قلبي إلى أن هذه السحابة العابرة قد مضت من سماء حياتنا بسلام، وواصلت الرحلة مع زوجي بالرغم مما كان يساورني أحيانا من قلق بشأنه ورجعت كما كنت من قبل لا يهدأ لي بال، ولا أذوق النوم أو الطعام إلا إذا رجع زوجي إلى بيته واطمأننت إلى وجوده إلى جواري، كما أنني أصبحت أذهب إليه كثيرا في مكتبه لأطمئن عليه في أوقات غير متوقعة وكلما راقبته خفية وجدته هادئ البال لا يعكر صفوه شيء، وفسرت ذلك بأنه قد استراح من العبء الذي كان يقلقه، وضاعفت من اهتمامي به وحرصي عليه، ومضى عام طويل ونحن على هذا الحال، وذات يوم رجع إلى زوجي ومعه شريط تسجيل قال لي إن الفتاة إياها قد أرسلته إليه من الخارج مع أحد القادمين، واسمعني إياه، فإذا بها تقول فيه بلهجة الندم والإحساس بالذنب، إنها لا ترضى بأن تحرم أسرته منه، وأنها لهذا قد تزوجت رجلا طيبا صارحته بكل ما جرى وغفر لها وأنها سعيدة بحياتها معه وسوف تنسى زوجي إلى الأبد وتتركه لأبنائه وبيته ولم أملك بعد أن سمعت هذا الشريط إلا أن أطلب من الله أن يغفر لها ما كان من أمرها ويبعدها عن حياتي وحياة أسرتي إلى الأبد، ومضت بنا

الحياة بعد ذلك هادئة وسعيدة غالبا، ومن حين يساورني بعض الشك في تصرفاته، وأشعر شعورا مبهما بأن هناك امرأة أخرى في حياته، لكني أدفع هذا الخاطر الكريه عن ذهني وأكره نفسي لأنني أظلم زوجي وحبيبي ووالد أبنائي إلى أن اتصلت بي إحدى جارات زوجي في العمارة التي يقع بها مكتبه وهي سيدة فاضلة أحبها واحترمها كثيرا لتنبهني إلى احتمال أن تكون هناك علاقة بين زوجي وبين سكرتيرته، وهي فتاة تقيم بمساكن الإيواء بأحد الأحياء الشعبية وأنها تستغله لترتفع بمستواها الاجتماعي ولم أحتمل ما سمعت.. وواجهت زوجي به بمجرد عودته، ففوجئت به يطلق ضحكة عالية، ويقول لي ساخرا: أهذا ظنك بذوقي ومستواي؟

بمعنى أنه لا يمكن أن يهتم بمثل هذه الفتاة لأنها دون المستوى من الناحية الجمالية والاجتماعية وكل شيء.

وصدقته بالفعل لأني أعرف زوجي جيدا، كما أعرف هذه الفتاة أيضا وأعرف أنها فتاة مسكينة كنت أتعامل معها بعطف، وكانت تحاول كسب ود ابنتي وقد دخلت بيتي وأكلت معي ومع أولادي وحاولت أن أصرف ذهني عن التفكير في هذا الأمر ثم جاءني زوجي منذ أسابيع ليصدمني صدمة العمر ويعترف لي بأنه كان متزوجا من سكرتيرته هذه لمدة عامين وبضعة شهور، وأنها هي الفتاة التي اعترف لي بأنه أخطأ معها ويريد أن يصحح خطأه، وأنها لم تسافر إلى الدولة العربية ولم تتزوج، كما أوهمني، وأنهما معا قد نسجا قصة سفرها للدولة العربية، وقصة المكالمة التليفونية المسجلة، وقصة الشريط الذي زعم لي أنها أرسلته من الخارج، وأنهما قد خططا معا كل ذلك لكى تهدأ أعصابي وأكف عن زيارته في المكتب وشكوكي فيه، وأنه قد تزوجها ليصحح خطاه وهذا هو الجانب الوحيد الصحيح في القصة كلها، لكنه قد تخلص منها الآن وطلقها واستراح بعد معاناة دامت عامين وبضعة شهور.

وكدت أفقد عقلي حين عرفت ذلك وشعرت بعمق الإهانة التي أهانها لي زوجي هو وشريكته، فلقد تلاعبا بي بقسوة وسخرا مني، ورحت أسترجع بعض المواقف السابقة واكتشفت مدى سذاجتي وغبائي وسلامة نيتى، فلقد كنت أشفق على هذه الفتاة وأحسن معاملتها وأسأل عنها حين تمرض في حين كانت هي لا تطيق رؤيتي، وتسخر مني في غيابي أمامه، كما علمت فيما بعد وبغير أن يرد أحد غيبتى.

أما قمة التلاعب بي فقد كانت حين سافرت مع زوجي لأداء العمرة فطلبت مني هذه الفتاة أن أحضر لها بعض الملابس الداخلية لأنها على وشك الزواج ففعلت ذلك بكل ترحيب واشتريتها لها وشاركني زوجي في اختيارها، وكنت في ذلك الوقت أتصور أنني أقوم بعمل طيب لوجه الله في حين كان زوجي يختار معي ملابس شريكته في الهزء بى غفر الله له ولا غفر لها.

فهي فتاة بلا أخلاق أعجب كيف رضي زوجي بأن تكون زوجة له لمدة عامين أو أكثر وأعجب أكثر كيف رضى لي بهذه الإهانة وتلاعب بي على هذا النحو؟

لقد كان يجمع بيننا ويجعلنا نتلاقى وهي زوجة له، وأنا في نظرها البلهاء التي لا تدري بما يدور حولها، ولست ألومه على زواجه منها في حد ذاته ليصحح خطأه معها، لكني ألزمه أكثر على غدره بي وكذبه علي طوال هذين العامين، وعلى «تأليف» لهذه القصة العجيبة التي حبكها وأوهمني بها ومازلت أعجب لها كلما تذكرتها.

لقد أقسم لي بأنه لم يحبها يوما واحدا وأنه كان ينتظر بفارغ الصبر خلاصه منها؟ فهل تصدقه في ذلك يا سيدي وهي التي دخلت المستشفى لإجراء جراحة الزائدة الدودية فكان إلى جوارها طوال الفترة، في حين دخلت أنا المستشفى، وكذلك ابنته فلم يكن يأتي الزيارة كل منا إلا قليلا.

لقد طلبت منه هذه «الفتاة»، أن يسجل في وثيقة الطلاق أنه لم يدخل بها وأنها مازالت «آنسة»، وحين تعجب لذلك و طمأنته، إلى أن الأمر ميسور وأن المغفلين كثيرون هذه الأيام؟ فهل هذه فتاة يرتبط بها زوجى ويغدر بي من أجلها؟

إنها مازالت في نظر أهلها «آنسة»، وهي سعيدة بذلك وأنا أكاد أجن وأفقد عقلي، وقد فقدت احترامي لزوجي وإن كنت لم أفقد حبي وقد دخل الشك قلبي وأصبحت أتشكك في كل كلمة ينطق بها وفقدت ثقتي بالدنيا كلها وأرجو أن تشير علي بما أفعل قبل أن أستسلم نهائيا للجنون وأن تساعدني على أن أنجو بنفسي وبيتي من هذه الأزمة، كما أرجو ان توجه كلماتك إلينا نحن الثلاثة أنا وزوجي وهي التي دخلت بيتي وأكلت فيه خبزا وملحا، فزوجي يرى أنه مظلوم وأنه كان يعيش معها على غير رضا منه وأنه قد اختارني وصان حبي وجاء ليقول لي الحقيقة بنفسه ولو كان قد أخفاها للنهاية ما كنت عرفتها للأبد، وإنه الآن يريد أن يتفرغ لعمله وبيته بغير منغصات أو اضطرابات فماذا أفعل يا سيدي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

اخترت لرسالتك عنوان «ألعاب الخريف» لأرمز به إلى تلك المرحلة الحرجة من عمر الرجل التي قد يستشعر فيها بعض الضعف النفسي لانتهاء مرحلة الشباب فيحتاج لأن يؤكد لنفسه أنه مازال نفس الرجل الذي تتعلق به أحلام المرأة وقد يستجيب للإغراء في ظل هذه الظروف ليس بدافع الحب كما يتوهم أحيانا وإنما بدافع الرغبة الباطنية في إشعار النفس بأنها مازالت مرغوبة من الجنس الآخر رغم كل شي.

وبعض البشر في هذه المرحلة قد يقعون في الخطأ بدافع التعويض النفسي للإحساس المرضي بالعمر وبعضهم بدافع تعويض الحرمان العاطفي الذي يعانون منه في حياتهم الخاصة وبعضهم قد يقعون في الخطأ لغير دافع سوى الرغبة في خلق الإثارة العاطفية التي تحرك المياه الراكدة وتشيع فيها روح المغامرة ومتعة ممارسة «الجديد» من التجارب! وبعضهم قد يقعون فيه كذلك بدافع البطر

والرغبة في الاستزادة من متع الحياة كأنما يسالون أنفسهم وقد تحقق لهم كل شيء: وماذا بعد.. أو ماذا بقي من المتع لكي نضيفه إلى ما لدينا منها؟

وكل ذلك من أحوال هذه المرحلة الحرجة التي يسميها علماء النفس بأزمة منتصف العمر بالنسبة للرجل والمرأة على السواء ولا علاقة له بالحب الحقيقي الذي قد يصادفه المرء في أية مرحلة من عمره فيغير مجرى حياته للأبد ويترك عليها بصمة لا تمحى.

ولهذا فإني أصدق زوجك حين يقول لك إنه لم يحب هذه الفتاة يوما واحدا وأنه كان يتطلع بصبر إلى الخلاص منها ومن آثار تجربته معها على حياته العائلية. إذ لو كان قد أحبها بصدق. أو كانت هي «نصفه الصحيح» الذي ضل الطريق إليه منذ البداية لما أنهى تجربته معها دون ضغط من جانبك، ولواصل حياته المزدوجة معها ومعك إلى أن تنفجر الأزمة على الأقل بل وتر بما كان قد فضلها عليك في لحظة الحسم والاختيار، وأصر على الارتباط بها إلى النهاية رضيت بذلك أم أبيت!

ولم يفعل زوجك شيئا من ذلك والحمد لله، وإنما أنهى تجربته بملء إرادته الحرة ودون أي ضغط من ناحيتك وعاد إليك ليصارحك بكل شيء طالبا منك الصفح عما كان، وكل ذلك يؤكد أنها لم تكن تجربة حب حقيقية في حياته حتى ولو خيل إليه ذلك في البداية، وأن الأمر لا يعد في النهاية أن يكون ضعفا بشريا عابرا أو إغراء لم يستطع مقاومته من جانب فتاة لا روادع لديها تردها عن الاقتراب من أب وزوج ورجل في عمر أبيها! ولقد خاض التجربة معها وتجرع كأسها حتى الثمالة. فكشفت له عن أنه لا شيء فيها يستحق أن يغدر من أجله بشريكة حياته ولا أن يعرض بسببه أسرته وأبناءه للقلاقل والاضطرابات، ولا أن يعاني هو من التمزق بين امرأتين أو يضطر إلى التحايل لإخفاء سره عن شريكة عمره والآخرين من حوله بمثل هذه الألاعيب التي لا تليق به وبوضعه العائلي والاجتماعي.. لقد عرف بذلك نفسه واختار لها ما يليق بها وهو الإخلاص لك ولأسرته «ومن عرف نفسه فلقد عرف الآخرين وعرف العالم وعرف الله» كما يقول غاندي فإذا كان قد بالغ بعض الشيء في ألعاب الخريف هذه بما نسجه حوله من قصص درامية وحيل مبتكرة لإيهامك بانقطاع علاقته بتلك الفتاة، فلقد ضاعف بذلك من حيث لا يدري من إساءته إليك ومن مراراتك تجاهه، لأنه بقدر الخداع يكون الحساب والعتاب، ولأنه لو كان قد سلك الطريق المستقيم الذي بدأه حين صارحك بخطئه مع هذه الفتاة ورغبته في تصحيحه ثم تزوجها كما أعلنك بذلك لفترة قصيرة وطلقها بعدها وتحمل خلال ذلك شكوكك فيه وملاحقتك له بل وتقريعك أيضا.. لو كان قد فعل ذلك إذن لأعفى نفسه من عناء التحايل والخداع معك ولأعفاك أنت أيضا مما تشعرين به الآن من مرارة تجاهه ولأحتفظ على الرغم من خطئه مع هذه الفتاة باحترامك له، لأنه لم يتنصل من مسؤوليته عن الخطأ وإنما تحمل تبعته ثم أنهى القصة كلها نهاية واضحة بلا التواء لكن هكذا شاء أن يعيش تجربته كاملة كما اختارها بنفسه وأن ينهيها في الوقت الذي رآه ملائما وأن يرجع إليك معترفا بكل شيء دون أن تطلبي منه ذلك وهذا وحده هو ما ينبغي أن يدفعك لمراجعة موقفك معه! فلقد أنهى علاقته بهذه الفتاة بملء إرادته

وقبل أن تكتشفي حقيقة أمرها مما يوحي بأن قراره هذا نابع من نفسه وليس استجابة لأي ضغط خارجي من جانبك أو من جانب أية ظروف أخرى. ثم صارحك بحقيقة الأمر كله، ولو لم يفعل لربما تأخر علمك به بعض الوقت وليس إلى الأبد كما يقول، لأن الأسرار لا يطول تكتمها حتى النهاية، ولأن هذه الفتاة نفسها لم تكن لتتردد في الوقت المناسب في تهديده بتسريب الخبر إليك عند الضرورة أو إذا لم يكن كريما معها في شروط الطلاق؟

لكنه على أية حال قد اختار أن يكون أمينا معك في النهاية وأن يعترف لك بكل شيء واعتراف المرء بخطئه لا يعفيه من تحمل تبعاته من الناحية القانونية لكنه يلتمس له فقط التخفيف عنه!

وعلى ضوء هذا المبدأ فإنني أدعوك إلى تصديق ما يؤكده لك من أن هذه التجربة قد انتهت بالفعل من حياته وإلى أنه راغب الآن حقا في الاهتمام بأسرته وعمله، فإن كنت لا أعجب كثيرا لتورطه مع هذه الفتاة مع ما نشهده في الحياة من تجارب فإن عجبي شديد لما تمثله هذه الفتاة نفسها من نموذج غريب لبعض الفتيات ممن لا يترددن كثيرا في الاستجابة لرجل متزوج وأب لفتاة في مثل أعمارهن بل وأحيانا في إغرائه رغم علمهن من البداية بحقيقة أوضاعه العائلية وقد يجري ذلك في بعض الأحيان في مناخ لا يخلو من الضعف الأخلاقي أو الانتهازية والرغبة في اقتناص الفرص على حساب الأسرة الآمنة، ومثل هذه الفتاة هي الطرف الفاعل غالبا في هذا الخطا لأن الرجل مهما بلغ من قدرة على التأثير والإغراء فإنه لن ينال من الفتاة أبدا ما لا رغبة لها في أن تمنحه له ولا ما تردها قيمها الأخلاقية عن أن تعطيه للآخرين كما أن الرجل حتى لو لم يكن ملتزما من الناحية الأخلاقية فإنه يستطيع بعد سياحة قصيرة في دنيا العبث والاستهتار أن يسترد نفسه ويواصل حياته العائلية بلا خسائر كبيرة في بعض الأحيان، أما الفتاة فإنها بعبثها أو استجابتها له لا تهدد فقط أمان أسرة وزوجة وأبناء وإنما تهدد أيضا حياتها هي نفسها وتبعد بنفسها عن الطريق الصحيح لتحقيق السعادة والاستقرار.

ولا عائد لمثل هذه التجربة الطائشة في حياتها غالبا سوى تأخير فرصها الحقيقية في الزواج والأمان وربما ضياعها للأبد، فما معنى هذا العبث إذن. وما معنى مثل هذه المغامرة الطائشة حتى لو اتخذت شكل الزواج المؤقت؟

على أية حال فإن تجارب الحياة يا سيدتي قد علمتنا ألا نغلق باب الصفح والتسامح في وجوه الآخرين، وألا نجلدهم طوال العمر بأخطائهم خاصة إذا أقروا بها ورجعوا عنها، كما علمتنا أيضا الإعجاب بعبقرية خالد بن الوليد العسكرية وهو الذي كان يحرص عند حصار قوات العدو من كل الجهات على أن يترك له ثغرة في هذا الحصار يستطيع أن ينسحب منها بعد أن تقع عليه الهزيمة انسحابا مشرفا يضمد به جراحه ويكون مستعدا بعده للتفاهم حول شروط التسليم، وكان يتعمد ذلك لكيلا يضطر عدوه حين لا يجد له منفذا للانسحاب لأن يقاتله قتال اليائسين من النجاة أو قتال من تستوي عنده الحياة والموت ولم يعد لديه ما يحرص عليه، وهو قتال مدمر دائما حتى ولو انتهى بإبادة العدو! وهذه الخطة هي ما ينبغي لنا

أن نأخذ بها أيضا في تعاملنا مع الجميع خاصة مع شركاء الحياة، إذ لابد لنا أن نتيح لهم دائما «ثغرة» يستطيعون عبرها الانسحاب الكريم من أخطائهم لكيلا يفقدوا الأمل في أي إصلاح ويدمروا المعبد فوق رؤوس الجميع!

و «الثغرة»، التي ينبغي أن تتيحيها لزوجك في مثل هذه الظروف هو إعلانك التجاوز عن خداعه لك طوال الفترة الماضية مقابل قربان اعترافه لك بالحقيقة، ثم أن تلجئي بعد ذلك إلى تدعيم ثقته هو نفسه في قيمه الأخلاقية بتأكيدك له إنه لا يغيب عنك إنه لم يتورط في الزواج من هذه الفتاة التي لا تلائمه من كل الجوانب إلا لأن أخلاقياته لم تكن لتسمح له بالتنصل من مسؤوليته عن الخطا معها، وأن من كانت له مثل هذه القيم الأخلاقية والدينية، إذا كان قد أخطا ذات مرة فإنه لا يقيم على الخطأ ولا يكرره بعد ذلك أبدا.

ولا عجب في ذلك فالإنسان كما يقول لنا الأديب والسياسى الانجليزى لورد تشسترفيلد في رسائله ونصائحه إلى ابنه

«يميل دائما لأن ينهض بالثقة التي نضعها فيه، ولأن يتصف بالصفات التي لا نفتأ نذكرها مقرونة به.

بل إنه ليلوم نفسه إذا لمس تناقضا فادحا بين ما نتوسمه فيه وما يفعله في حياته».

ولهذا فمن الأفضل لنا دائما يا سيدتي أن نستثير في الآخرين عزمهم على أن يكونوا جديرين برأينا فيهم، بدلا من أن نشعرهم باليأس من أن ينالوا ذات يوم ثقتنا فيهم فيدفعهم اليأس إلى التمادي في الخطا مادامت العواقب واحدة في كلا الحالين وهي الشك فيهم وعدم الاطمئنان إليهم!

وهذا ما أعنيه دائما بالقول إننا نحتاج إلى أن نثق في شركاء الحياة ثقة مبصرة وليست عمياء، فلا نجرحهم بالتشكك الدائم فيهم ولا نستنيم إلى اطمئنان الغافلين عما يجري حولهم في كل الأحوال وهذا هو ما أطالبك به أنت أيضا يا سيدتي.. ولسوف تتخلصين تدريجيا من شكوكك في زوجك مع تزايد اطمئنانك إلى أنه قد اختار نهائيا الحياة الفاضلة الآمنة، ولسوف تتخلصين من مرارات الخداع تبعا لذلك. وبدواء الأيام الذي لا دواء لبعض المرارات والآلام سواه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثورة البركان!

أكتب إليك لأني في حاجة لأن أتحدث معك.. فأنا طبيب في الخامسة والأربعين من العمر، تزوجت منذ 10 سنوات من فتاة تصغرني بثماني سنوات، كنت قد التقيت بها بالصدفة عند أحد الأقارب وأعجبت بها ولفت نظري إليها جمالها الهادئ واتزانها وحديثها المرتب العاقل، وبعد شهر واحد من تعرفي بها تقدمت لخطبتها وتمت الخطبة وتزوجتها بعد عام آخر، ومنذ اليوم الأول لزواجنا عرفت زوجتي عني أنني لا أحب أن تعمل زوجتي، ولا أفضل اتساع دائرة العلاقات الاجتماعية من حولنا لأنها في نظري لا تثمر إلا المشكلات والقيل والقال، ووافقتني زوجتي على رغبتي وحصلت من عملها على إجازة بدون مرتب بعد أن أنجبنا طفلتين وتفرغت تماما لرعايتهما، ومضت حياتنا هادئة وجميلة إلى أن بلغت الطفلتان سن المدرسة، والتحقتا بها، وبدأت مشكلة الفراغ في حياة زوجتي فأنا في عملي بالمستشفى في الصباح، وفي عملي بالعيادة في المساء، والطفلتان تنامان في وقت مبكر لتصحوا للمدرسة في الصباح الباكر، ولم يعد هناك ما يشغل فراغ زوجتي سوى التليفون، وبعد الانتهاء من أعمال البيت تبدأ الاتصال بكل من تعرفهم من أهل وأصدقاء ومعارف، وتبدأ الثرثرة والتدخل في مشكلات الصديقات مع أزواجهن، ويستدعي ذلك بالطبع أن تشكو لها الصديقة.. وأن يتدخل الزوج أو الخطيب وتكون هي الحكم بين الطرفين!

ولم أكن أعرف ذلك بالتفصيل في حينه، كما لم أكن أعرف أنها تقوم بهذا الدور لصديقاتها وكان كل ما أعرفه هو أنها تثرثر كثيرا في التليفون مع مجموعة من الأهل والمعارف، فلا أدقق في موضوعات الحديث، وأثور قليلا كلما جاءت فاتورة التليفون الباهظة ثم أنسى الأمر بعد بضعة أيام وتمضي الحياة على طبيعتها، وكلما ثرت من أجل فاتورة التليفون والثرثرة الطويلة فيه كل يوم. قالت لي زوجتي أنه الشيء الوحيد الذي يخفف عنها وحدتها. فهي لا تعمل ولا تخرج وليس لنا جيران نتزاور معهم وقد ملت مشاهدة التليفزيون وقراءة الكتب.. فماذا تفعل؟ فلا أجد ما أجيبها به فأسكت على غير اقتناع.

ومضت حياتنا على هذا النحو إلى أن بدأت ألاحظ منذ عام تقريبا كثرة المعاكسات التليفونية في منزلي.. وكثرة المرات التي يدق فيها جرس التليفون وأرفع السماعة فلا يجيبني أحد، أو أسمع في بعض الأحيان أغاني عاطفية أو أصواتا غريبة سخيفة، وبدأت أتشكك في هذه المعاكسات وأربط بينها وبين مكالمات زوجتي التليفونية، وبدأت أواجهها بذلك فتثور وتقول لي إنها هي أيضا تشكو من هذه المعاكسات.

وبالرغم من أن كثيرين من أصدقائي كانوا يشكون مثلي من ظاهرة المعاكسات هذه إلا أنني نظرت إليها من منظور آخر، وبدأ الشك يقتلني أما زوجتي فلم تعبأ بثورتي وشكوكي ونصحتني في هدوء وثقة بأن أضع التليفون تحت المراقبة لكي تتوصل شرطة مباحث التليفونات إلى مرتكبيها وتضبطهم وتقدمهم للمحاكمة.

فإذا بهذا النصيحة العابرة تفجر في داخلي فكرة أخرى، فقد كنت قد شاهدت في أحد أسفاري للخارج جهازا لتسجيل المكالمات التليفونية داخل البيت بغير أن يشعر المتحدث فأرسلت إلى أحد أصدقائي المقيمين بالخارج وطلبت منه إرسال جهاز من هذا النوع على عنوان عيادتي وتسلمت الجهاز بالفعل وقمت بتوصيله سرا بتليفون البيت لأعرف كيف وفيم تتحدث زوجتي خلال غيابي عنها، وطوال شهر بعد ذلك رحت أسمع كل مساء حصيلة مكالمات اليوم الطويلة ومعظمها يجري خلال غيابي، فإذا بها أحاديث في غاية الاحترام! ليس فيها ما يجرحني كرجل أو زوج.. بل إنني في بعض الأحيان كنت أشعر بالرضا عن تناولها المنطقي العاقل لبعض مشكلات المعارف رجالا كانوا أم نساء.

واسترحت نسبيا لما سمعت لكني لم أتخلص من إحساسي بعدم الارتياح لمجرد أن تجري زوجتي كل هذه الأحاديث خلال غيابي عن البيت، وبدأت أثور من جديد عليها لكثرة أحاديثها التليفونية في غيابي وأكدت لها أن مجرد حديثها مع أحد في عدم وجودي لا يرضيني ولا أستطيع قبوله وازداد توتري معها فبدأت أنفعل عليها بشدة وأسمعها في كل مناقشة حول هذا الأمر سيلا من الشتائم فبدأت تقلل من هذه المكالمات كثيرا وبدأت شخصيتها تتغير من البساطة والمرح إلى التجهم والبكاء ونظرات العتاب، إلى أن اشتبكت معها في جدال عنيف حول هذا الموضوع ذات يوم فبدأت في إنكار أنها كانت تتحدث مع أحد في غيابي من الأصل! ولم أملك في ثورتي وشدة انفعالي سوى أن اتهمها بالكذب وأروى لها نص المحادثة التي سمعتها من الجهاز، فانعقد لسانها من الدهشة وسألتني كيف عرفت بأمرها، فلم أتردد في أن أكشف لها عن سر جهاز التسجيل.. وأنا في قمة الغضب والانفعال!

وانتظرت أن تمتص زوجتي غضبي وانفعالي كعادتها كل مرة، فإذا بها تنفجر كالبركان غضبا وانفعالا وبكاء.. وتثور علي ثورة عنيفة وهي تسألني كيف أتشكك في سلوكها بعد كل هذه السنين وأنا من يعرفها جيدا ويعرف أخلاقياتها وهي التي لا تخرج من بيتها ولا يزورها أحد الخ.. ثم نهضت وهي في قمة الانفعال فجمعت ملابسها وأشياءها لتغادر البيت فهددتها بأنني لن أسمح لها باصطحاب الطفلتين معها، فلم تعبأ بتهديدي وغادرت البيت إلى بيت أهلها.

وتركتها تخرج من البيت وأنا على ثقة بأنها لن تحتمل البعد عن طفلتيها وعني أكثر من أسبوع فمضى الأسبوع ولم ترجع ولم تتصل بي ولم يأت إلى البيت أحد من أهلها للتفاهم معي حول ما حدث.

ومنعني كبريائى من ان اتصل بها لكنني أرسلت إليها أختي وهي قريبة نفسيا منها فوجدتها في حالة اكتئاب شديدة ولا تريد أن تقابل أحدا ولم تجد لديها إلا الدموع.. ولم تصارحها بسبب المشكلة كما لم تصارح بها أحدا من أهلها وان كانت قد منعتهم من الاتصال بي ورفضت زوجتي العودة إلى بيتها بإصرار ورجعت اختى تنعي إلى فشلها في إقناعها بالعودة.

أما الطفلتان فلقد نقلتهما إلى رعاية والدتي المسنة التي لا تستطيع رعايتهما ولا تكفان عن البكاء طلبا لأمهما.. وأما أنا فأعيش وحيدا منذ هجرت زوجتي بيت

الزوجية وأشعر بالتمزق.. والضياع.. والعجز أدخل بيتي في المساء فأجده مظلما وصامتا كالقبر، فلا أطيق البقاء فيه، واسترجع ما كانت تفعله لي زوجتي في كل شيء من ترتيب مواعيدى وأعمالي إلى إعداد ملابسي وحذائي.. إلى الحنان الدافق الذي كانت نغمر به طفلتيها.. وتغمرني به فأشعر بغصة مؤلمة.. إنني اعترف لك أنها أعظم زوجة وأخلص حبيبة وأريدها أن تعود إلى زوجها وبيتها وطفلتيها، فإذا كنت لم أذهب إليها حتى الآن فلم يكن ذلك عن استكبار أو مكابرة وإنما تجنبا لأن تتطور الأمور بيننا إلى الأسوأ وتفاديا للاحتكاك بيني وبين والدها خاصة أنه حاد الطبع مثلي ولقد ساءت أحوالي النفسية والمعنوية كثيرا خلال الفترة الماضية وازداد شرودي حتى بدأ يؤثر على عملي وحتى أخطأت تشخيص أكثر من حالة في الفترة الأخيرة مما يهدد مستقبلي.. وإنني أرجوك أن تناشد زوجتي وحبيبتي وأم أطفالي العودة إلى بيتها الذي هجرته، كما أرجوك أيضا أن تتوجه بالنداء إلى هؤلاء العابثين المستهترين الذين يتلهون بآلة التليفون ومعاكسة الزوجات المحصنات والبنات، أن يراعوا الله في البيوت الآمنة التي يزرعون فيها بذرة الشك ويقوضون أركانها بهذا العبث.. ويشردون أطفالها ويفرقون بين شركاء الحياة وشريكاتهم وليقل لي واحد منهم بشجاعة هل يرضى بأن يفعل أحد نفس هذا الشيء بزوجته أو ابنته أو شقيقته؟

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

من مواقف الحياة ما لا يحتمل التردد طويلا أمامها ولا الإحجام عن مواجهتها وحسمها بغير تهيب للحظاتها العصيبة، وأنت يا سيدي تواجه موقفا من هذا الموقف التي لا يجديك فيها الإحجام عن أن تفعل ما ينبغي عليك فعله مهما كانت المبررات، فلقد أسأت الظن بزوجتك وساورتك الشكوك في صدق إخلاصها لك فأقدمت على خطوة خطيرة هي مراقبة اتصالاتها التليفونية والاستماع إليها خفية، وفي مثل هذه الحالة فإما أن تسفر المراقبة عن تأكيد الظنون، فلا يكون أمام شريك الحياة سوى أن يتصرف على ضوء ذلك متحملا تبعاته.. وإما أن تكشف خطأ هذه الظنون فيطمئن قلبه إلى إخلاص من تشاركه الحياة، ويشعر بالخجل من نفسه أن سمح لجنون الغيرة والشك بأن يفقده رشده.. وفي هذه الحالة عليه أيضا أن يتعامل مع شريكة الحياة على ضوء هذه الحقيقة.. ويرجع إلى الثقة فيها والاطمئنان إلى تصرفاتها ولأن أحدا لا يسعده أبدا أن يقول له شريك حياته أنه كان يسيء الظن بأخلاقياته إلى الحد الذي دفعه لأن يراقبه سرا حتى تأكدت له براءته فقد يكون من الأوفق لمن تورط في سوء الظن بشريك حياته إلى حد مراقبته له سرا أن يتكتم عنه فعلته هذه حتى بعد ثبوت براءته لكيلا يثير عليه حفيظته، ويفجر ينابيع المرارة في قلبه.. إذ ليس أقسى على الإنسان البريء من أن يكتشف سوء ظن أقرب الناس فيه وهو الذي يعصم نفسه عن الخطأ والغواية ويلتزم بالطريق القويم، وعلى عكس من يكون موضعا للشبهات بسلوكه المذبذب والذي قد يسعد كثيرا إذا ما شهد له الأقربون بالالتزام بعد طول المراقبة، فإن الإنسان المستقيم أصلا يشعر بجرح غائر لكرامته وجدارته لمجرد

وضعه في دائرة الظنون التي لا تليق به من الأصل.. ولا تعنيه شهادة المراقب له بأنه قد اجتاز «الاختبار» بنجاح وتأكدت جدارته بالثقة، بقدر ما يؤلمه أن يضعه من ينبغي له أن يثق به في دائرة الشبهات، وإذا غفر لمن أساء الظن به، سوء ظنه فيه بعد بعض الوقت، فإنه قد لا يغفر له بنفس السهولة وضعه إياه تحت المراقبة السرية وانتهاك حرمة خصوصيته، واستخدام أساليب التجسس الكريهة معه.. ليس فقط لما تمثله من عدوان على خصوصيته وإنما أيضا لأنها تتناقض مع الثقة المفترضة فيه.. ومع ما يرى هو نفسه جديرا به

من الاطمئنان إلى مبادئه وأخلاقياته.

ومشكلتك يا سيدي هي أنك لم تتصرف مع زوجتك على ضوء إحدى هاتين النتيجتين المتوقعتين لمثل هذا «الاختبار»، فلا أنت حسمت ظنك باليقين وتصرفت معها على ضوء ذلك، ولا أنت شعرت بخطأ وضعك لزوجتك تحت المراقبة وصارحتها بذلك واعتذرت لها عنه بحبك لها وغيرتك عليها، ورغبتك في أن تنقذ نفسك من عذاب الشك الذي أفقدك حسن التقدير.

ولو كنت قد فعلت ذلك في حينه، ولم تواجهها بمراقبتك لها في سياق الجدال معها حول مكالمة تنكرها، وتثبتها أنت بدليلك المستمد من تسجيلاتك السرية، لما تدهورت الأمور بينك وبينها إلى هذا الحد، ولأنحصر لومها لك وغضبها منك في إقدامك على مراقبتها سرا دون علمها.. ولا لتمست أنت لنفسك بعض العذر وليس كله فيما فعلت في حبك لها وغيرتك عليها، ولظل الأمر كله في إطار خلاف الحب والغيرة والأسلوب الخاطئ لالتماس اطمئنان القلب، ولما انحدر إلى دائرة خلاف الشك في الإخلاص، وسوء الظن بشريك الحياة.. ولاستطاع كل منكما ولو بعد فترة طبيعية من التوتر والغضب للإهانة، أن يتوصل مع شريك حياته إلى صيغة ملائمة تدعم ثقة كلا الطرفين في الآخر وتجنبه عذاب الشك والحيرة، فتكف زوجتك عن الحديث الطويل في التليفون في غيابك عن البيت مهما كانت براءته تجنبا للمشكلات والمتاعب وبعدا عن المظان، وتكف أنت عن المغالاة في سوء الظن والشك في بعض هذه الاتصالات إذا اضطرتها إليه الضرورة الاجتماعية والعائلية، والحق أنها مشكلة شائعة في عدد كبير من الأسر، وقد تنجم عنها خلافات كبيرة والبداية، دائما متشابهة.. مكالمات طويلة ومتكررة بالساعات من جانب الزوجة، وضيق من الزوج بهذه المكالمات.. ثم يبدأ سوء الظن بها الذي يتزامن غالبا مع تكرار دق جرس التليفون دون أن يتكلم المتحدث إذا أجاب الزوج أحيانا، والزوجة في أحيان أخرى، ومهما أجهدت نفسي في اختيار ابشع الكلمات فلن أجد تعبيرا يصور عمق خسة مثل هذا السلوك الذي يزرع به بعض العابثين بذور الشك في نفس أحد الزوجين في اخلاص الطرف الآخر، فهو أخس الجرائم وأحقرها إذ يفسد به مرتكبها سلام أحد الزوجين النفسي واطمئنانه إلى شريك حياته ويعرضه لمحنة الشك والغيرة بلا ذنب جناه. ولأنه ليس من العار أن يخطيء الإنسان مرة، لكنه من العار حقا أن يفتقد الشجاعة الأدبية للاعتراف بالخطأ والاعتذار عنه، فمن واجبك يا سيدي إذا كان ضميرك قد استراح إلى بعد زوجتك عن هذه الشكوك أن تصارحها بما قلته لي عنها في رسالتك من أنها أعظم

زوجة وأخلص حبيبة.. ليس فقط لأن هذا من أبسط حقوقها عليك، وإنما أيضا لأن الإنسان الشريف لا يقر له قرار إلا إذا أبرأ ذمته مما رمى به غيره من سوء ظن، لأنه واجب أخلاقي وديني يتعلق بقيمه هو وعدله مع الآخرين قبل أي شيء آخر، وبغض النظر عما ينتظره من الطرف الآخر بمثل هذا الإبراء، وسواء عفا عنه أو لم يعف إذ أن النكوص عن ذلك خيانة لروح العدل.. وكتمان للشهادة لا يطيقه أصحاب الضمائر، ولهذا كله فإني لا أرى لك أن تظل متهيبا مواجهة الموقف مع زوجتك أو مع والدها مهما كانت النتائج، لأنه مهما كانت نتائج المواجهة فلن تكون أسوأ مما ترددت إليه الأحوال بينك وبين زوجتك الآن.. ولربما كانت أفضل لكل الأطراف من هذا الوضع المزعج للجميع وزوجتك تنطوي على مراراتها بشأن شكوكك السابقة فيها والتي لم تصارحها حتى الآن ببراءتها منها أو خلطت بين ذلك وبين غضبك عليها لإنكارها تلك المكالمة التي أنكرتها وأخطأت هي بغير جدال في إنكارها ومن واجبها أن تضع خطأها هذا في اعتبارها وهي تتألم لسوء ظنك بها ومراقبتك لها، وطفلتاك مبعدتان لدى جدتهما وتفتقدان صدر أمهما وحنانها، وأنت تعيش في بيت صامت مظلم تضطرب فيه أفكارك ويزداد شرود ذهنك حتى لتخطئ في عملك أكثر من مرة. وتأخر المواجهة لا يعني إلا استمرار المعاناة لكل الأطراف، ومواجهة أسوأ الاحتمالات قد يكون أفضل في بعض الأحيان من استمرار العناء بسبب تهيب مواجهة الموقف التي نخشى تبعاتها أو نشفق على أنفسنا من لحظاتها العصيبة. وليس بالهروب من المشكلات يستطيع الإنسان أن يحسم خياراته ومشكلاته ويتخلص من معاناته، فلا تزد الأمر تعقيدا يا سيدي ولا تطل معاناتك ومعاناة طفلتيك وزوجتك.. وتوجه إليها ساعيا في الإصلاح ومعتذرا عن خطأ وضعك لها تحت المراقبة، وتحمل بشجاعة الرجال لمسؤوليتهم عن أفعالهم التبعات النفسية والعصبية المحتومة لمثل هذه المواجهة.. ولسوف تتوصلان معا بإذن الله إلى صيغة مناسبة تعيد الثقة إلى نفس كل منكما وتسمح بعودة الحياة إلى طبيعتها بينكما بعد فورة البركان الضرورية في مثل هذه الأحوال.. وبعد أن يقذف البركان الثائر كل حممه.. ويفرغ طاقته ويرجع إلي الخمود والهدوء من جديد

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صوت الموسيقى!

أنا من أكثر قرائك حرصا على قراءة بابكم الإنساني الجميل، وأنا رجل محترم جدا أبلغ من العمر 68 عاما.. وبعد شهور قليلة سوف نحتفل بمرور 40 عاما على زواجنا السعيد بإذن الله، وقد أنجبت خلال هذا الزواج البنين والبنات، وحصلوا جميعا على الشهادات الجامعية وعملوا.. وهاجر من هاجر منهم وتزوج الابن الأكبر.. وبقي معي أصغر الأبناء.. وأصبح لي بضعة أحفاد، وفي الطريق غيرهم قريبا بإذن الله، ولقد عملت ٣٣ عاما في وظيفة حكومية مرموقة خارج مصر كانت إغراءات الإنحراف فيها كبيرة، وكان من الممكن أن أنزلق فيها إلى عالم الرشوة والعياذ بالله، لكنني تساءلت وما ذنب أبنائي في أن يطعموا من حرام أو أن يشير إليهم الناس ذات يوم ويقولوا إن أباهم مرتش ودخل السجن؟.. فتعففت وقررت أن أعيش بمرتبي وحده، وكان كافيا جدا وساعدني على ذلك زوجة مخلصة محبة عطوف ومدبرة لم تشعرني بالعوز والحاجة، فعشنا حياة فوق المتوسطة بيتنا مفتوح للضيوف، و الجودة في الموجود و حتى استوفيت فترتي بهذا البلد وحضرت إلى مصر منذ أربع سنوات ولم أغير أسلوب حياتي ولم يتخل عني ربي الرزاق الكريم والحمد لله على كل شيء.. ومنذ شهور سافرت زوجتي إلى الخارج لتقيم مع ابنتنا المهاجرة مع زوجها وتساعدها في تربية أطفالها فخلا على البيت نهائيا وشعرت بالوحدة التامة رغم وجود ابني الأصغر معي يعمل ليلا وينام نهارا ونكاد لا نلتقي أو نجلس لنتحدث ونتسامر بالأيام الطويلة، وأصبح البيت الذي كان يضج بصراخ الأطفال ومشاحنات الكبار وسمر الضيوف، صامتا إلا من صوت الموسيقى التي تملا أركان البيت، فكنت أرقب أطفال الجيران وأرى فيهم صورة أحفادي وأشعر بالسرور حين ينادونني بلقب «جدو» ، وأغدق عليهم بالهدايا الصغيرة والحلوى بمناسبة وبدون مناسبة، ثم جال في فكري الساذج البسيط و أن أقدم هدية لوالدتهم وأنا أعتبرها ابنة من بناتي، فاحترت ماذا أقدم لها، وربما أساء إليها ذلك مع زوجها ففكرت أن أقدم لها بعض المال لتشتري هي به ما تريد، وقلت لها إنني فكرت أن

أقدم لك هدية بمناسبة العيد لكني لم أوفق في الاختيار فخذي هذا المبلغ واشتري به الهدية التي ترغبينها!.. فانتفضت غاضبة وهرولت مبتعدة وهي تردد بعض الكلمات التي لم أسمعها فتوجست شرا ودعوت أن تكون العواقب سليمة، ودهشت وأنا الذي فعل ذلك بتلقائية شديدة!

فلم تمض أيام حتى قابلني زوجها بثورة عارمة ووجه لي الاتهام كيف أقدم مالا لزوجته؟.. وأجبته: وماذا في ذلك وأنا أقدم للأولاد كل يوم الهدايا وهي مثل ابنتي وأنا رجل كبير السن ومريض بالبروستاتا وليس لي مأرب سوء في زوجتك؟!

لكنه لم يقتنع ولم يهدأ وقال لي إنني وأنا أقدم لأولاده الحلوى أرفع دائما وجهي وانظر إلى حيث يقيمون!

فلم أجد ما أقوله له سوى إنني قد جوزيت شرا على خير أردته وانصرفت.. مرتبكا ومضطربا.. ومنذ ذلك اليوم وأنا أخرج من البيت مبكرا جدا وأعيش في قلق شديد وقد ارتفع ضغط الدم عندي وبدأت أشعر بآلام شديدة في ذراعي ولا أعرف لماذا فعلت السيدة الفاضلة ذلك، وأنا الذي كنت أعاملها مثل بناتي ولم يصدر مني ما يسوؤها كما إنني لست مراهقا وإنما تشي تصرفاتي بكل عقل وحكمة واحترام!!

والذي يشغلني أكثر هو ماذا لو وصل هذا و الزعم، إلى أبنائي الذين أكن لهم كل حب واحترام وأريد أن تظل صورة والدهم أمامهم طاهرة نقية حتى النفس الأخير.. كما أريد أيضا أن تظل صورتي كذلك أمام زوجتي المخلصة المحبة التي أكن لها كل حب واحترام.. وأعجب كيف تهدم هذه الصورة تلك السيدة بتصرفها. الطائش، هذا.. ربما يكون هذا نوعا من الحقد.. والحسد والغيرة، لكني أستغفر ربي وأترك له «القصاص»!

فهل أطلب منك أن توجه كلمة لهذه السيدة الفاضلة تصحح بها ما أساءت فهمه؟.. وهل توجه كلمة أخرى إلى من يتصرفون «بتلقائية»، شديدة لكي يحترسوا في تصرفاتهم حتى ولو كانوا يظنون أنهم يفعلون الخير حتى لا يتعرضوا مثلي لمثل هذا الموقف المخزي المخجل؟؟

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لا شأن لي بهذه السيدة الفاضلة التي تصرفت التصرف الوحيد الذي ينبغي لها أن تفعله في مثل هذه القصة، ولن أوجه إليها أية كلمة.. اللهم إلا كلمة الإعجاب بأخلاقياتها وقيمها السليمة التي لم يفسدها الزمن الرديء، وكذلك «بحكمتها»، التي بفضلها لم يغب عنها فهم الموقف الفهم الصحيح والتصرف إزاءه على أساس من هذا الفهم.

أما أنت يا سيدي فلي معك كلمة وربما كلمات.. وبادئ ذي بدء فإني سوف «أفترض» إنك قد فعلت ما فعلت «بتلقائية» شديدة بهدي من «تفكيرك» الساذج البسيط. لأنك ترى في هذه السيدة «ابنة» من بناتك وفي أبنائها صورة أحفادك، ولسوف أقول لك بعد ذلك إنه حتى لو كانت نيتك طيبة وبريئة تجاه هذه السيدة، فإن حسن النية وحده لا يكفي في بعض الأحيان لكى يتجنب المرء الإساءة إلى نفسه وإلى الآخرين، فالإنسان يحتاج لأن يتمتع إلى جانب حسن النية بحسن الإدراك والفهم لكي يتفادى الإساءة إلى الآخرين.. وينجو من سوء الظن، وأنت يا سيدي مع افتراض حسن النية فيما فعلت. قد غاب عنك الإدراك السليم فأسأت بتصرفك هذا إلى هذه الزوجة المحصنة أبلغ الإساءة.. وأسأت إلى نفسك وإلى صورتك في أعين من حولك بمثل ذلك وأكثر، إذ كيف تقدم «مالا» لزوجة وأم لا تربطك بها أي صلة سوى صلة الجوار البسيطة بدعوى إنك قد «حرت» فيما تقدمه لها من هدية وقررت أن تعطيها مبلغا من المال لتشتري به لنفسها ما تشاء؟!

إن مجرد تفكيرك في أن تقدم إليها «مالا» وهي ليست من عصبك ولا من أهلك ولا من دائرة الأصدقاء المقربين يحمل معنى «الإهانة» البالغة إلى شخصها وقيمها وأخلاقياتها، ويعطيها كل الحق في أن تفترض فيك أسوأ النيات.. وأبشعها وهي إنك تسيء الظن بقيمها وأخلاقياتها حين تتصور أنها يمكن أن تقبل مالا من رجل غريب.. - ولا عجب في ذلك - فالهدية في حد ذاتها تفترض وجود الصلة الحميمة بين الطرفين.. وإلا فقدت معناها، وحملت معاني أخرى كريهة، وأنت لا صلة لك بهذه السيدة سوى صلة الجوار السطحية التي لا تبرر تقديم الهدايا، فما معنى أن تقدمها لها؟.. أما استبدال الهدية بقيمتها المادية.. وتقديم هذه القيمة للمهدي إليه ليفعل بها ما يشاء، فهو سلوك يعكس ما هو أعمق من مجرد الصلة الحميمة.. ولا يقع ألا إلا بين أقرب المقربين الذين زالت بينهم الكلفة والحواجز.. فهل كانت صلتك بهذه السيدة بمثل هذه الحميمية والعمق.. لكي تفكر مجرد تفكير في أن تقدم إليها مبلغا من المال بصفة هدية؟!

وإذا كان الأمر بعيدا حقا عن كل شبهة من البداية، فلماذا خشيت إذن إن أنت قدمت إليها هدية اخترتها أن يسيء إليها ذلك مع زوجها؟.. إنني احتراما لسنك ووضعك العائلي لن أوجه إليك أي اتهام، لكني أتساءل فقط لماذا لا يشعر بعض الرجال بمثل هذه المشاعر «الأبوية البريئة» إلا تجاه سيدات أو فتيات من الجنس الآخر، مع أن لهؤلاء الرجال أبناء يفتقدونهم كما يفتقدون بناتهم، وفي الدنيا «شبان» كثيرون قد تخفف مثل هذه المشاعر «الأبوية» «التلقائية» عنهم بعض عناء حياتهم؟

إن التبرير حيلة نفسية دفاعية يلجأ إليها الإنسان لا شعوريا حين يواجه ضغوطا واتهامات يعجز عن احتمالها.. وهو شيء مختلف عن إنكار المخطيء لارتكابه الخطأ وقد يكون أخطر منه عاقبة، لأن المرء يسلم فيه بوقوع الخطأ الذي لا سبيل لإنكاره.. لكنه يرفض لا شعوريا أن يعتبر الخطأ خطأ ويحاول بكل الجهد أن يفسره تفسيرا ضلاليا يخرج به من دائرة الفعل الخاطئ إلى دائرة الفعل البريء الذي أساء الآخرون فهمه ونسبوا له ما فيه، وبالتالي فليس المخطيء هو من ارتكب ذلك الفعل وإنما من أساء فهمه واعتبره خطا، وقد يلح الإنسان على نفسه بهذا التبرير كلما اشتد خوفه من العواقب حتى ليصدقه أو يخيل إليه أنه يصدقه فيعجب للآخرين كيف لا يصدقونه.. ويتهمهم بالتجني عليه. وهذه هي خطورة التبرير كحيلة دفاعية قد تؤدي بالإنسان إلى اضطراب التفكير.. لأنها تقلب الحقائق وتحول الجاني إلى ضحية.. والضحايا إلى جناة.. وتحرم الإنسان من فرصة تصحيح الخطأ والإقلاع عنه. والاحتراس من عدم تكراره.

وعلماء النفس يقولون لنا إن أي إنسان لا يخلو من قدر ضئيل من الميل للانحراف عن السواء، لكن الناس يختلفون في مقاومتهم له وقدرتهم على كبحه والسيطرة عليه، ومنعه من أن يجرفهم في لحظة ضعف عابرة إلى التورط في فعل أو سلوك أو موقف مخز قد يهدم كل ما بناه الإنسان خلال رحلة السنين من سمعة طيبة وحياة فاضلة محترمة!

والحق إنني قد وجدت في هذه المقولة النفسية حين قرأتها منذ سنوات، ما غاب عني فهمه من قبل، في مضمون الحديث الشريف الذي يقول لنا إن المرء قد يقضي عمره يعمل بعمل أهل الجنة، ثم يتبعه بعمل من عمل أهل النار فيدخلها به، وقد يقضي عمره يعمل بعمل أهل النار ثم يتبعه بعمل من عمل أهل الجنة فيدخلها به فلقد كنت أفهم أن يغفر الله سبحانه وتعالى من يشاء بغير حساب ويكفر عنه سيئاته {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ} [النساء: 48].. {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: ١١٠]

صدق الله العظيم، لكني لم أكن أستوعب كيف يمكن أن يتورط من عاش حياته في طاعة الله، في عمل من عمل أهل النار في أخريات العمر فيدخل به النار حتى قرأت عن هذا القدر الضئيل من الميل للانحراف عن السواء الذي لا يخلو منه أي إنسان، والذي قد يدفع المرء إذا لم يكبحه ويسيطر عليه، لأن يفعل «فجأة» ما يتناقض تماما مع سيرته الجادة السابقة في الحياة.. حتى ليرفض أقرب الناس إليه أن يصدقوا أنه هو نفس الشخص الذي أقدم على هذا الفعل الغريب!.. إلا من رحم ربك وحماه من شر نفسه واستعان هو عليها بالإرادة والعبادة وتجنب الإغراءات ومواطن الشبهات فإذا كان الأمر كذلك يا سيدي، فإن أرجوك أن تعجل بدعوة زوجتك للعودة إلى بيتها وأن تلح عليها في ذلك ويكفيها ما قدمت لابنتها وأطفالها حتى الآن من رعاية، ولنرجع إليك الآن لتؤنس وحشتك وتبعد عنك شرور الوحدة.. وتبعث النبض والحياة في مسكنك الخالي الآن إلا من صوت الموسيقى.. وهواجس القلق والخوف على صورتك في عيون الأهل والأحباء.

فأنت يا سيدي في حاجة نفسية وإنسانية شديدة إليها ومن حقك عليها أن ترجع إليك الآن لتواصل معا رحلة الحياة في أمان وسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نقطة الانفجار!

منذ فترة طويلة تساورني الرغبة في أن أكتب إليك قصتي فيمنعني كبريائي من ذلك، فأنا طبيبة في العقد الثالث من العمر تزوجت من إنسان محترم يعمل مهندسا ويكبرني بعامين ولي منه ابنة في الرابعة من عمرها، وقد تزوجنا منذ ست سنوات بالطريقة التقليدية، ولم يدخر زوجي وسعا في تأثيث المسكن والاهتمام بأدق متطلبات الحياة الزوجية، لكنه كان يعمل خارج القاهرة ولا يرجع من عمله إلا لبضعة أيام كل شهر فكنت كلما سافر للعمل ذهبت إلى بيت والدتي وأقمت فيه بلا مسؤوليات ولا أعباء زوجية ومنزلية. وكان ذلك أمرا مألوفا في حياتي لأنني وحيدة أبي وأمي ومازلت في نظرهما الطفلة المدللة التي لم تكن أمي تسمح لها بالمشاركة في الشئون المنزلية وخلال غياب زوجي في عمله كان يتصل بي بانتظام ويبثني أشواقه الحارة من خلال التليفون وعبر الرسائل إلى أن نقل زوجي إلى القاهرة واستقر فيها بعد ثلاث سنوات من زواجنا وبدأت حياتنا الزوجية الفعلية، ففوجئت د بالمسؤوليات، التي لم أعط لها اهتماما من قبل، وهي مسؤوليات البيت والزوج والطفلة التي كانت قد أتمت عامها الأول في ذلك الوقت، وكل ذلك لم أعتد عليه في بيت أسرتي ولم تدربني أمي على تحمله ومع ذلك فقد راح زوجي يساعدني في تحمل أعباء البيت والطفلة ويواجه كل مشكلة بابتسامة، في حين أصبحت أنا دائمة العبوس في وجهه ومتصلبة الرأي في مطالبي ولا أقبل منه إلا تنفيذ رغباتي حرفيا كما تفننت أيضا في اختلاق الأسباب حتى استطعت مقاطعة أسرته تماما بالرغم من قرب مسكنها منا، ولم يدخر زوجي جهدا للإصلاح بيننا، لكنني سددت عليه كل الأبواب لكي استأثر به وحدي دون أسرته وليظل «تابعا»، لي على الدوام كما تعلمت للأسف من أمي في علاقتها بأبي، ولقد حرصت على أن أتبع نفس و المنهج، الذي نشأت فوجدتها تتبعه معه وتقول عنه أنه المنهج الأصح في معاملة الزوج لكيلا يتمرد على زوجته واعترف لك بأنني قد طبقت هذا المنهج مع زوجي بدقة وأنه على حين كان يحرص دائما على إرضائي ويشعرني بالحب في كل وقت حتى في نبرات صوته، كنت أنا أضن عليه بمشاعري وأتمنع عليه حتى في حقوقه الزوجية لكى يظل متأججا من ناحيتي باستمرار، كما كنت لا أستجيب، لرجاءاته لي باحترام أهله والسؤال عنهم إلى أن حلت القطيعة التامة بيننا. وحين كان يصطحب ابنته لزيارة أبيه وأمه وأخوته لبعض من الوقت، كانت تنتظره في البيت دائما مشكلة كبرى افتعلها معه كأنني «أؤدبه»، بها على اجترائه على اصطحاب طفلتي إلى جديها وعلى مودته لأهله، إلى أن جاء يوم أراد فيه أن يصطحب طفلتنا إلى بيت أسرته، وأصررت أنا على منعها من الذهاب، وتماديت في الخلاف معه، فإذا به ينفجر في وجهي انفجارا صاعقا ويصفعني على وجهي، فكانت الطامة الكبرى.. والحريق الذي أصررت على إشعاله وتأجج ناره حتى النهاية واستدعيت أهلي على الفور فجاءوا إلي مسرعين واصطحبوني معهم بعد أن وجهوا إليه سيلا من الإهانات.. ووقع الخلاف الكبير بيننا على غير توقع مني إذ ظننت أنني مهما فعلت معه فلن يصل أبدا إلى نقطة الانفجار هذه معي،

وبدأت سلسلة المحاضر في أقسام الشرطة ضده بخصوص طردي من البيت والتعدي علي وعدم الانفاق، وطلب تمكيني من منزل الزوجية بواسطة النيابة بالإضافة إلى قضايا أخرى خاصة بالنفقة وتبديد المنقولات وغير ذلك من سلاسل الحلقة الجهنمية المألوفة لدى محامي الأحوال الشخصية الذين يتصيدون مثيلاتي ويرضين غرورهن بأنهم سوف يأتون لهن بالزوج راكعا أمامهن وطالبا الرحمة!

ومضت أربعة شهور ونحن في هذا المسلسل اللعين.. ومع ذلك فقد فوجئت بزوجي يطلب مني فتح صفحة جديدة بيننا ويصفح عن كل ما اتخذنا ضده من إجراءات، وقبلت العودة إليه بعد تمنع طويل وامتهان كاف لكرامته، ورجعت الحياة بيننا وعشنا في هدوء بضعة شهور ثم وجدتني أرجع تدريجيا لسابق عهدي معه من النكد والعبوس واختلاق المشاكل وتطبيق منهج أمي معه على الوجه الأكمل. وحدث شجار آخر بيننا فلم أتردد في استدعاء أهلي من جديد. وفي هذه المرة قمنا بنقل كل متعلقاتي وما يخصني وما لا يخصني من أجهزة وأدوات ومفروشات حتى المناشف ومفارش السفرة فلم أترك في البيت سوى المنقولات الخشبية العارية وحدها ورجعت إلى بيت أسرتي، وفي الصباح التالي كان المحامي يعمل بنشاط في استكمال الحلقة الجهنمية إياها من محاضر ودعاوى واتهامات وجهت فيها إلى زوجي كل ما من شأنه أن يصوره كوحش كاسر يعاملني معاملة العبيد ويقبض يده عن الإنفاق على وعلى طفلته، ويضربني بانتظام وبقسوة ويضرب طفلته كذلك، بل إنني قد اتهمته أيضا بتبديد المنقولات وعرضته لخطر الحبس فأسرع بطلب منا تسلم هذه المنقولات على الفور وذهبت إلى البيت مع أسرتي وانزلناها إلى عربة النقل وتركنا له المسكن على البلاط!

وخلال ذلك جاءني زوجي في عملي ثلاث مرات وأعطاني نقودا، فأخذتها منه وأنا أتوعده أنني سأحصل على كل حقوقي منه عن طريق المحكمة ثم منعته بعد ذلك من رؤية طفلته. فأقام ضدي دعوى رؤية للطفلة وحكم له فيها وتقرر أن يراها بمقر الحزب الوطني لكنه لم يحضر لرؤيتها سوى ثلاث مرات وآثر بعدها الابتعاد لأن نفسية الطفلة تأثرت بذلك ثم حكمت لي المحكمة الابتدائية بالطلاق منه غيابيا، فقدم هو معارضة في هذا الحكم واكتشفت أنا فجأة أنه قد مضت ثلاث سنوات وأنا في ساحات المحاكم والنيابات ومكتب المحامي الذي يستنزفني ماديا، والقضايا والنزاعات تسرق عمري وقد تعديت الثانية والثلاثين وأوشكت ابنتي على الالتحاق بالمدرسة وهي بعيدة عن أبيها، والصورة من حولي قاتمة فلا أنا زوجة ولا أنا مطلقة، كما أنني في أعماقي لا أرغب في أن أحمل لقب المطلقة البغيض، لكن كبريائي يمنعني من أن أعلن ذلك. ونشأتي في أسرتي لم تساعدني على الإقرار بالخطأ مهما كانت الظروف وحين نظرت إلى حياتي بعد ثلاث سنوات من الصراع والنزاع والقضايا وجدتني قد أصبحت مطمعا لكل من تسول له نفسه أن يجرب الاقتراب من إنسانة يائسة سعت بإرادتها إلى تدمير حياتها.

وبعد مغالبة شديدة لكبريائي اللعين قررت أن أكتب إليك لسببين الأول أن تساعدني على اتخاذ القرار السليم في حياتي هذه، والثاني لكي أرجو منك أن تكتب لزوجي وهو من قرائك المستديمين أن يصفح عما كان وأن يبدأ معي صفحة جديدة. ولعنة

الله على «المنهج»، الذي حاولت أن أطبقه مع زوجي تقليدا لأمي. ولعنة الله على كل زوجة

لا تتقي الله في زوجها وأطفالها.

إنني أعرف أنني قد أدركت ذلك بعد فوات الأوان لكني أتمسك بالقشة التي قد يتعلق بها أمل الغريق. وأمل أن يصفح عني زوجي هذه المرة أيضا كما صفح من قبل وأن تكون كلماتك له بمثابة نداء العقل من أجل ابنتنا الصغيرة، أما أنا فإني لا أنتظر منك إلا أقسى الكلمات ولن ألومك على ذلك والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

يخيل إلي في بعض الأحيان أن ما قاله الأديب الأمريكي الساخر مارك توين يجد ظلا من الحقيقة في بعض البشر. فلقد قال ساخرا من ظلم الإنسان للإنسان: الإنسان حيوان ناطق.. لكنه لا يصل في بعض الأحيان إلى المستوى الأخلاقي «الرفيع» للوحوش! «فالوحش يقتل بدافع الجوع. أما الإنسان فيقتل بدافع الحقد أو دوافع أخرى ليست عادلة كدافع الجوع»!

فهل أكون قاسيا عليك كثيرا يا سيدتي إذا قلت لك إنك لم تنازعي زوجك أمام الشرطة والنيابة والقضاء طلبا لحق ولا بدوافع عادلة وإنما بدافع الرغبة في قهره وتطويعه وهزيمته وإذلاله؟

وهل أتجاوز الحقيقة إذا قلت إنك أنت المسؤولة من البداية إلى النهاية عن هدم حياتك الزوجية وحرمان طفلتك من أبيها. وضياع فترات ثمينة من العمر في دهاليز المحاكم ومكاتب المحامين حتى أوشكت طفلتك على الالتحاق بالمدرسة بعيدا عن أبيها؟

لقد أقررت على نفسك بذلك.. لكن كبرياءك الأجوف يحول بينك وبين تدارك الأمر قبل أن يمضي إلى الهاوية السحيقة، ولست أدري في الحقيقة كيف تجدين في نفسك القدرة على الاعتراف بالخطأ ثم تعزفين في نفس الوقت عن مصارحة من أخطأت في حقه بذلك؟ وكيف تسلمين بأن معظم ادعاءاتك على زوجك وإتهاماتك له كيدية وباطلة. ثم تقولين رغم ذلك الاستمرار في منازعته قضائيا على أساسها؟

إن العدل مع الآخرين يا سيدتي فريضة دينية وأخلاقية كغيرها من الفرائض، وظلم الإنسان لغيره جناية يهتز لها عرش الرحمن في سماواته العلا وهو من حرم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرما كما يقول لنا الحق سبحانه وتعالى في مضمون الحديث القدسي.

فإن عجبت لشيء بعد ذلك فلست أعجب لانسياق البعض وراء الفجر في الخصومة إلى حد الافتراء على الآخرين ورميهم بما ليس فيهم طلبا لقهرهم وإذلالهم والانتصار عليهم، وإنما أعجب حقا وصدقا لمن يقدم على ذلك وهو عليم

بما يفتعله ثم يجد في نفسه بعد ذلك القدرة على أن ينعم بنوم هادىء في الليل، ولذة طعام وشراب، وإحساس غامر بالأمان والاطمئنان إلى الغد والمستقبل وقد علمنا منذ قديم الزمان بأن خير ما نحتمي به من غوائل الأيام ألا نظلم أحدا عامدين لأن الحياة ديون، ولسوف تقتص منا الحياة ذات يوم بما ظلمنا به الآخرين.

ولقد قلت مرارا من قبل إنني لا أحترم زوجة تنازع زوجها أمام الشرطة والقضاء ولا أقبل منها هذا السلوك على مضض إلا في حالة واحدة استثنائية هي أن يتكرر إيذاء زوجها لها وتفشل معه كل الوسائل السلمية والودية لردعه عما يفعل، فلا يكون لجوء الزوجة هنا للشرطة إلا طلبا لحمايتها من زوجها ووالد أطفالها بعد أن خاب كل سعي آخر معه، أما أن يكون أول ما تفكر فيه الزوجة وأهلها عند كل خلاف عابر من خلافات الحياة الزوجية هو اللجوء إلى الشرطة فلا معنى له إلا فساد القيم العائلية والأخلاقية التي تحكم هذه الزوجة وأسرتها.

لكنه لا عجب من ناحية أخرى فيما فعلت حين هرولت من أول صفعة إلى أقسام الشرطة بعد طول صبر واحتمال من زوجك فلقد كان ذلك منطقيا تماما مع «المنهج» الفاسد الذي حاولت اتباعه معه لترويضه والسيطرة عليه تقليدا لوالدتك، لكنه قد فاتك في ذلك للأسف أن ما يصلح مع إنسان قد لا يصلح مع غيره وأن هذه المناهج الفاسدة لا تعني نجاح الحياة الزوجية وإنما تعني فقط العجز عن تغييرها في بعض الأحيان.

كما فاتك أيضا أن لكل إنسان قدرته على الاحتمال التي لا يستطيع تجاوزها ثم تنفجر بعدها براكينه مهما بدا لنا هادئا وخانعا ومستكينا لأن الضغط يولد الانفجار، فإذا كانت حياة والدتك لم تشهد مثل هذا الانفجار مع زوجها فلأنها كانت فيما يبدو تعرف متى تتوقف عن الضغط عليه في الوقت المناسب وقبل أن تتهشم قشرة احتماله الرقيقة في حين اندفعت أنت بجهلك بالطبيعة البشرية وبشخصية زوجك وبكبريائك غير المفهوم في الضغط على زوجك حتى بلغت به نقطة انفجار المرجل وانطلاق بخاره المكتوم، والزعيم السوفيتي الأسبق خروشوف يقول لنا أن الناس لا يساقون حتى إلى الجنة بالعصا وإننا لوسقناهم بها إلى رحابها لأبوا دخولها، فكيف بهم إذا سقناهم بعصا التكبر والعناد وصلابة الرأي وجفاء المشاعر إلى ما لا يرضيهم ولا يشعرهم بكرامتهم ورجولتهم؟ هل يحق لنا في هذه الحالة أن نتوقع منهم أن يزدادوا رغبة فينا. وتمسكا بنا؟

وهل يكون غريبا عليهم أن ينفجروا فينا ذات يوم ويفضلوا غيرنا حتى ولو بدوا لنا من قبل شديدي الحرص علينا؟ أنه ليس خطأ المنهج الفاسد في التعامل مع الزوج وحده ولا هو فقط خطأ النشأة المدللة التي أورثتك العناد والأنانية وإيثار الذات حتى على مصلحة طفلتك، لكنه أيضا خطأ التكبر والاعتزاز الزائد بالنفس واعتبارها ذاتا «ملكية» فريدة ينبغي على الآخرين أن يطلبوا ودها دائما ويقربوا إليها القرابين في كل حين وليس من حقهم أن ينتظروا منها بعد ذلك تجاوبا ولا إنصافا ولا تكريما، وإنما يكفيهم فقط شرف الاستمرار في «المعية» وشرف «حظوة» الحياة تحت سقف واحد معها!

وفي هذا الخيال وحده ما يكفي لتدمير أي علاقة إنسانية بين طرفين مهما كانت قوة مشاعر أحدهما تجاه الآخر، وصدق من قال أنه ما هلك امرؤ عرف قدر نفسه وما سعد أمرؤ أعماه الكبر والغرور عن حقائق الحياة. يا سيدتي إنني آسف حقا لاضطراري إلى توجيه هذه الكلمات القاسية لك. لكن عذري فيها أنك قد عرفت من البداية إنك لن تجدي عندي سواها وعذري أيضا إنني أرثي لحال طفلتك الصغيرة التي حرمت بلا مبرر من حقها في الحياة الطبيعية الآمنة بين أبويها. لكني على أية حال لا أستطيع أن أتجاهل نغمة مراجعة النفس والإقرار بالخطأ التي تسود رسالتك.

فلا شك أن هذه النغمة تحول جديد في شخصيتك وفي فهمك للموقف لكن الإقرار بالخطأ لا يكفي وحده لإصلاح ما أفسده العناد والكبرياء والافتراء على الغير ما لم يستتبعه الندم الصادق عليه. و «الفعل» الذي يكفر عن هذا الخطا أو يقلل من أضراره «وكفارة الذنب الندامة» ، كما يقول لنا معلم البشرية صلوات الله وسلامه عليه، وإصلاح ما أفسدت بينك وبين زوجك يتطلب منك أن تتنازلي على الفور عن كل ما أقمت ضده من دعاوى كيدية وظالمة ليس استرضاء له وإنما استرضاء لمن هو أكبر منا شانا وأعز قدرا وهو العادل الذي حرم الظلم على نفسه سبحانه وتعالى واعتذارا إليه، ورجاء لمغفرته وانتصارا للحق والعدل. واحتراما للنفس وكراهة لأن تقبلي لها بالافتراء على الآخرين.

ولا شك أنك حين تفعلين ذلك إحقاقا للحق وليس جزءا من صفقة أو حل وسط بينك وبين زوجك، فإنك تكونين قد فتحت بالفعل صفحة جديدة في حياتك وتطهرت حقا من كل أخطاء الماضي. ووفيت بحق طفلتك عليك وأصبحت جديرة بأن يتمسك بك زوجك ويسعى إلى استئناف الحياة معك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شاطىء الأمان

أكتب إليك بعد أن قرأت رسالة «الرد الجريء»، للأم التي تشكو لك من ابنتها التلميذة التي تسرق الأشياء في المدرسة، وسرقت مبلغا من المال من دولاب ملابسها وأنفقته على صديقاتها، ولقد شرحت لها في ردك عليها الدوافع النفسية لهوس السرقة عند الصغار، والذي قد يستمر معهم في مراحل أخرى من العمر، إذا لم يعالج في الوقت المناسب، وأوضحت لها طرق العلاج، لكني أريد أن أضيف إلى ما قلته لها إضافة أخرى قد لا يستطيع غيري أن يقدمها لها لأنني قمت أنا نفسي بما قامت به هذه الفتاة الصغيرة في نفس هذه السن تقريبا فإذا كانت الفتاة الصغيرة قد اعترفت لأمها بما فعلت، فلن أقول إنها قد فعلت ذلك بكل جرأة - كما قالت لك أمها في رسالتها - وإنما أقول إنها قد فعلت ذلك نادمة، على عكس ما فعلت أنا حيث لم أعترف أبدا بجرمي وإنما كذبت وأنكرت ولازمني داء الكذب في هذه المرحلة من عمري فسرقت أكثر من مرة، وكذبت وكنت أكذب بمناسبة وبغير مناسبة، وعندما أكتشف أبي الأمر هوى على جسدي النحيف بالضرب العنيف، في حين احتضنتني أمي بين ذراعيها، وانهالت علي بالمواعظ الدينية، وصدقني يا سيدي إنه لا ضرب أبي العنيف لي، ولا مواعظ أمي الحانية قد أفلحت في تغيير حالي، فلقد كنت أشعر وقتها بالرغبة في أن أسرق، ولا أستطيع أن أحدد سببا واضحا لذلك، لكني سأذكر لك بضعة أمور أظن أنها كانت وراء هذا السلوك المعيب، وقد وجدت في تحليلك للدوافع النفسية لمثل هذه السرقة بعض أصدائها في طفولتي، فلقد كنت في هذه السن اتطلع لأن امتلك أشياء تخصني وحدي ولا يستعملها أحد غيري كفرشاة أسنان، أو منديل أو قلم وكان أبي يلبي دائما مثل هذه الحاجات لأخي الذي يكبرني ولا يلبيها لي، ربما بدعوى أنني أصغر من أن أحتاج إليها ولم أكره أبى لذلك أبدا لكني كنت أحزن له، وكنت في هذه المرحلة من العمر أنتظر العيد بفارغ الصبر من أجل «العيدية»، فيعطيني أبي عيدية ضئيلة للغاية بالمقارنة بما يحصل عليه أصدقائي من آبائهم فكان هؤلاء الأصدقاء يجلسون معا صباح يوم العيد، ويخططون للاستمتاع بالعيد، فأجد نفسي عاجزا عن الاشتراك معهم في خططهم لأن و «ميزانيتي» لا تؤهلني لذلك، وأجد نفسي محروما من مشاركتهم الصحبة واللعب، وكان هذا دائما حال أبي معي فيما يتعلق بالنقود، فلقد كان يعطيني منها بميزان، ربما لم يتم اختراعه بعد لدقته المتناهية في «وزن» ، أصغر وحده نقدية في الوجود، وفي صغري أيضا كنت أتوق دائما لأن أخلق لنفسي «مكانة» مناسبة بين أفراد أسرتي، كفرد له وجود محسوس وكيان، أي أنني كنت أريد أشعار أفراد أسرتي بأنني لست «عيلا» صغيرا، وهو الإحساس الذي لم يمنحه لي أبي أبدا وقتها، وإنما كان يهملني ولا يناقشني في شيء، ولا يحدثني كشخص أو إنسان له وجود وكيان، ولا يتذكرني إلا إذا أراد مني شيئا من نوع «هات كوبا من الماء» أو «ضع هذا الشيء هناك»، إلى آخره، وباختصار فقد أهملني أبي عاطفيا وعقليا، ولم يمنحني الحب ولم يحترم عقلي، حتى شعرت وقتها بأنه «كتلة صلبة» لا مكان للمشاعر لديها.

أما أمي فقد كانت ومازالت كالراهبة، سلاحها في الحياة الموعظة الحسنة، فكانت تقول لي دائما كلاما «كبيرا»، عن الجنة والنار وثواب الصادقين وعذاب المنحرفين، ولم أكن أفهم كلامها هذا لكنه كان رغم ذلك يرن في أذني رنينا غريبا، وأتأثر به تأثرا غامضا.

ولقد تذكرت الآن وأنا أكتب لك هذه الرسالة، أن سرقتي الأولى قد حدثت حين طلب مني مدرسي تبرعا صغيرا للمدرسة ورفض والدي أن يعطيني هذا التبرع.. في حين أصر عليه المدرس، إصرارا غريبا كما أتذكر أيضا أن أصدقائي كان معهم دائما نقود ينفقون منها متى شاءوا، وانني لم أكن مثلهم في ذلك، هذا عن السرقة أما الكذب فأظن أنني قد انجرفت إليه بتأثير الخوف من أبي، وبتأثير السخرية والاستهزاء، من جانب إخوتي بأي سلوك أقدم عليه حتى ولو كان صحيحا فقد كان هذا حالهم معي حتى حين ألمس سلوكا طيبا من أحد الأفراد، وأحاول تقليده وكان الإحساس العام لدي وقتها هو أنني لست موضع الرضا والاحترام منهم!

ولا يفوتني أن أؤكد لك مرة أخرى إنني في «جاهليتي»، السابقة لم أكره أبي يوما واحدا، حتى وإن أنكرت عليه بعض تعاملاته معي، ولقد مضت الأيام وتغيرت معاملة أبي المادية والعاطفية معي وتوقفت عن هذا السلك نهائيا مع التحاقي بالمدرسة الثانوية. وتفوقت دائما في دراستي وبلغت الآن من العمر 30 عاما. ولقد رأيت أن أكتب بتجربتي الواقعية مع السرقة والكذب في مرحلة الطفولة وأوائل الصبا للأم الفاضلة كاتبة الرسالة لعلها تفيدها في تربية ابنتها والتعامل معها، كما أريد أن أطمئنها إلى أن هذا الداء لن يتمكن من ابنتها بإذن الله، إذا أحسنت التعامل معها، وتلاشت الأسباب التي أشرت أنت إليها في الرد عليها.. والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

«وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ».. كما يقول الله تعالى ولهذا فلقد وجدت في رسالتك ما لم أجده من قبل من التفسيرات النظرية لهوس السرقة في علم النفس، مع أن المنابع مشتركة في كل الأحوال.

ولعلك لو راجعت أهم دوافعك النفسية والمادية للإقدام على فعل السرقة خلال طفولتك وصباك لوجدت أنها تتركز في دافعين سبق أن أشرت إليهما في ردي على كاتبة الرسالة لكنك رغم ذلك تقدم لنا. صورة أعمق لتأثيرهما عليك كصاحب تجربة سابقة في هذا المجال: أما الدافعان فهما تلبية الاحتياجات المادية التي عجزت الطرق المشروعة عن تلبيتها لك بسبب نكوص والدك عن توفيرها لك وبسبب افتقادك لامتلاك أشياء خاصة بك أتاح والدك لشقيقك امتلاكها دونك، أما الدافع الآخر فهو محاولة البحث عن «الإعزاز» المفتقد داخل الأسرة، ومحاولة تعويضه وتعويض إهمال الأب عاطفيا وعقليا للابن بالإقدام على فعل يؤكد به

الطفل ذاته، ويشعر الآخرين بوجوده من خلاله أو بانتقامه منهم لتجاهلهم إياه أو سخريتهم منه، وهو ما عبرت أنت عنه تعبيرا تلقائيا صادقا بقولك إنك كنت تتوق دائما وأنت طفل لأن توجد لنفسك «مكانة» لائقة بين أفراد الأسرة..

أما الكذب الذي صاحب اقتراف فعل السرقة، فأمر مفهوم لأنه الوجه الآخر للعملة دائما في كل فعل أو سلوك يعرف فاعله جيدا أنه خاطىء ويكره أن يطلع عليه الآخرون.

ولعلك تلاحظ أن إقلاعك عن السرقة والكذب في بداية التحاقك بالمرحلة الثانوية، قد سبقه تحول جوهري مهم في علاقة أبيك بك، كما سبقه أيضا تحول وجداني مهم داخلك أنت، فلقد بدأ والدك فيما يبدو يستشعر خطورة الحرمان من الاحتياجات المادية الضرورية عليك، فبسط يده معك بعض الشيء ثم تجاوز ذلك إلى الإقدام على ما ينصح به علماء النفس في مثل هذه الظروف، وهو إشعار الابن بالمسؤولية المادية، وتدريبه على تحمل مسؤولية النقود وإدراك قيمتها، فتخلى عن ميزانه الحساس السابق في التعامل المادي معك ومنحك مبالغ من المال تزيد على متطلباتك اليومية وأوصاك بالحفاظ عليها وعدم الإنفاق منها إلا عند الضرورة.. فنمى بذلك لديك فكرة المسؤولية المادية، وفكرة الملكية الخاصة التي لا تتخفي بها عن الآخرين لأنها من مصادر مشروعة، ووجدت نفسك مطالبا بحسن التصرف فيما أصبحت «تملك» من مال يخصك، وأدركت تبعا لذلك أن والدك قد بدأ ينظر إليك بعين الاعتبار، كإنسان جدير بأن يتحمل المسؤولية، وليس مجرد طفل قاصر لا يؤتمن على شيء.. فانتفى بذلك التجاهل العاطفي والعقلي لك وبدأ التعامل الجاد معك، وأشعرك ذلك بالجدارة والثقة فكففت عن فعل ما يتناقض مع هذه النظرة فضلا عن أن نموك العقلي والوجداني في هذه المرحلة من العمر قد صاحبه بالضرورة نمو مماثل للضمير الأخلاقي في أعماقك وأبسط تعريف للضمير هو أنه قدرة الإنسان على التمييز بين الحق والباطل، وهو ملكة فطرية يتمتع بها كل إنسان لكن التزام المرء بما تمليه عليه من تبعات يختلف من شخص لآخر.

وفي كل الظروف والأحوال، فإن الإنسان لا يسعد أبدا بالإقدام على فعل الأشياء التي يعرف في قرارة نفسه أنها غير صائبة، ولهذا فقد كان أبو الفلاسفة سقراط يقول إن من يعرف الحق لن يقدم على الباطل.. لأن الإنسان يطلب لنفسه السعادة دائما ولن يسعد أبدا بارتكاب ما يعرف تماما أنه خاطىء وباطل، وإنه مهما أبحر في بحر الخطيئة والظلام.. فلابد أن يطلب سلام النفس بالعودة إلى شاطىء الحق والصواب.

وإذا كنت تقول إنه لا عقاب والدك البدني لك على السرقة، ولا مواعظ والدتك الدينية لك قد أثمرا ثمارهما في إقلاعك عن السرقة والكذب، فالحق أنهما قد ساهما بقدر غير منكور في ذلك وأنهما قد فعلا فعلهما في أعماقك دون أن تشعر بذلك بطريقة مباشرة لأن التحول في مثل هذه الحالة لا يتم بطريقة طفرية وإنما عبر تفاعلات بطيئة ومتدرجة داخل النفس، ولو لم يصاحب ذلك تغير معاملة الأب لك المادية وتغير نظرته إليك فلربما لم يكن لهذين العاملين أثرهما الإيجابي عليك

فيما بعد، وأوضح دليل على ذلك هو ما كنت تشعر به من تأثر غامض بما تحدثك به والدتك من ترغيب في جزاء الصالحين وترهيب بمصير الطالحين رغم أنك لم تكن تفهم حديثها أو تستوعبه.

فشكرا لك على رسالتك المفيدة، ورغبتك المخلصة في مساعدة الأم الحائرة كاتبة رسالة «الرد الجريء»، على أمرها مع ابنتها ولعلها تجد فيها ما يطمئن خواطرها إلى قرب خلاص ابنتها من هذه الآفة اللعينة كما تخلصت أنت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الورقة الصفراء!

أنا مهندس شاب من أصدقاء بريدك شهدت حياتي الزوجية منذ أيام تجربة إنسانية بسيطة أردت أن أشركك وأشرك قراءك معي في عبرتها. فلقد تفتحت عيناي على الحياة فوجدتني شقيقا أصغر لأربعة إخوة غيري وابنا لأب مهندس فاضل متدين وأم ربة بيت فاضلة يخيل إلى أن الله سبحانه وتعالى قد قبس من قلبيهما بعض ما يفيضان به من حنان فوزعه على الأرض وبه يتراحم الناس حين يتراحمون!

ولا عجب إذن أن وجدت إخوتي الكبار يعتبر كل واحد منهم نفسه أبا لي وأما، لأن فيض الحنان يغمر الجميع، وهكذا نشأت والحمد لله على الحب والتراحم والرضا والتدين وأتممت تعليمى ككل إخوتي وتخرجت في كلية الهندسة عام ١٩٩٠، وتزوجت من إحدى قريبات والدتي بمباركة أفراد الأسرة ومساندتهم بارك الله فيهم ولهم وفي أبنائهم جميعا، ومنذ سنوات طويلة وأنا أقرأ بانتظام باب بريد الجمعة أو «صدمة الجمعة»، كما وصفه أحد أصدقاء الباب في رسالة له منذ فترة، وقد قرأت في ٢٧/ ١٢/ ١٩٨٠ رسالة نشرت بعنوان «أدب الحياة» لزوجة مصرية محبة لزوجها وأسرتها تحكي لك فيها عن حياتها مع زوجها وأبنائها، وكيف يكافح الزوجان لإسعاد أبنائهما بالدخل المتاح لهما وكيف تظلل «البركة» حياتهما بالرغم من أنهما أقل دخلا من باقي أفراد العائلة، لكنه بالحب والرضا والتراحم تتحقق المعجزات وتغرد طيور السعادة فلا يشعر أحد من حولهما بنقص شيء في حياتهما، ولا يحلو للعائلة الكبيرة طعام ولا شراب ولا سهر إلا في بيتهما السعيد، وقد لا يكون فيه ما يزيد عن حاجة يومهما قرشا

زائدا.. لكنها بركة الستر التي ينعم الله بها عليهما.. وبركة الحب والحنان والتراحم التي تظلل حياتهما، وكانت السيدة كاتبة الرسالة قد كتبتها إليك لتعلق بها على رسالة سابقة بعنوان «بئر الحرمان» الزوجة تشكو فيها من قلة دخل زوجها وضيقها بذلك إلى حد أن كرهت زوجها لهذا السبب مع أنه زوج مثالي، فراحت تلك السيدة العظيمة تعتب عليها في ذلك وتروي لها عن حياتها وتقول لها: « إنني لا أملك حلقا ذهبيا أزين به أذني لكني بهذه الأذن العارية أسمع أجمل وأرق الكلمات من زوجي، ولا أملك عقدا ذهبيا يزين صدري لكني أملك قلبا ذهبيا يحب الناس ويبادلونه الحب، وليس في يد سوار ذهبي.. لكن في يدي ألف بركة» !، وليس على نوافذ بيتي ستائر، لكن ستر ربنا يغطينا من كل جانب، وليست شقتي مفروشة بالسجاد الفاخر، لكنها مفروشة بالحب والحنان، بيتنا دائما مستور بستر إلهي له العجب ورغم أنه أقل البيوت دخلا بالنسبة لبيوت معظم أفراد أسرتي.. إلا أنه واحتهم التي يشعرون بالراحة فيها وما من طعام أصنعه بيدي إلا ويتهافتون عليه بسعادة رغم بساطته « وستره عجب»، كما يقولون وكثيرا ما تحدث في حياتنا أشياء صغيرة تملؤنا سعادة وحبا فمثلا قد يكون رصيدنا في الثلاجة صفرا وفجأة يأتينا الخير من حيث لا ندري وبمجرد أن تمتلىء الثلاجة يأتي الضيوف فنقوم بالواجب وزيادة وفرحة الدنيا لا تسعنا وأنا بأقل

الأشياء أصنع سفرة رائعة وأجيد صنع كل شيء من الخبز الأفرنجي، إلى التورتات وأنواع الحلوى إلى المحشي والكشري و أبو دقة، وكل أفراد أسرتي يحبون طعامي ويستطيبونه وأنا من النوع الذي يصنع من الفسيخ شربات وهكذا سيدات كثيرات يدبرن حياتهن بلا شكوى ولا أنين وفي نهاية رسالتها راحت توجه نصيحتها المخلصة للزوجة المتذمرة وتقول لها إن النقود تذهب وتجيء أما الزوج المحب المخلص فإنه لو ذهب فلا شيء في الدنيا يعوضه، وتطلب منها أن تحافظ على زوجها وأن تتقرب منه وتحاول أن تصنع شيئا بيدها وتستخدم قدراتها في تجميل حياتها والترويح عن نفسها والتخفيف من جفاف الحياة إلخ.

ولقد شدتني هذه الرسالة إليها حين قرأتها منذ أكثر من عشر سنوات ووجدتني أقصها وأحتفظ بها بين أوراقي وأتمنى على الله أن يرزقني بزوجة راضية ومحبة مثلها، ثم مضت السنوات في طريقها المعهود وأنهيت دراستي الجامعية وتخرجت وتزوجت منذ أربع سنوات وأنجبت طفلا جميلا، ثم رجعت من عملي منذ يومين فوجدت زوجتي تبكي وسألتها عن سبب بكائها فعرفت منها أن نفسها قد ضاقت فجأة بقلة دخلنا الشهري بالقياس إلى مطالب الحياة، وباضطرارنا لأن نتحسب لكل خطوة في حياتنا ونعد لها العدة قبلها بوقت كاف.. مع أن بيتنا به كل الأجهزة الحديثة ومرتبي يكفي البيت وزوجتي والحمد لله مؤمنة وراضية.. لكنها النفس التي تتوق أحيانا يا سيدي إلى السعة في المال.. وإلى بحبوحة العيش التي لا يتحسب الإنسان فيها لكل شيء في حياته وقد صادفتها هذه الحالة النفسية قبل عودتي للبيت فضعفت لها وبكت! واستمعت إلى ما قالته لي زوجتي في هدوء، وحدثتها في هدوء أيضا عن حياتنا.. وكيف من الله سبحانه وتعالى علينا بنعم جليلة وكثيرة.. من مركز اجتماعى جيد وبيت به إمكانيات الحياة المقبولة.. وأسرة صغيرة سعيدة وولد يملأ حياتنا مرحا وسعادة، وحب وتراحم متبادلين بيني وبينها، أما كثرة المال فلا أحد يدري هل هي خير أم شر «وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ»، ونحن والحمد لله لدينا أساسيات الحياة.. ولدينا سيارة، صحيح أنها قديمة، لكنها نعمة وستر لنا تكفينا الحاجة للمواصلات العامة.

وخلال حديثي إليها تذكرت فجأة تلك الرسالة القديمة التي قرأتها وقصصتها واحتفظت بها منذ سنوات طويلة ونهضت فبحثت عنها بين أوراقي القديمة حتى وجدتها، وقدمتها لزوجتي وطلبت منها أن تقرأها.. وكانت ورقة جريدة قديمة صفراء اللون من مرور السنين لكن بها وصفة السعادة والرضا، وبدأت زوجتي تقرأها فإذا بدموعها تسيل طوال فترة قراءتها، وإذا بها بعد أن انتهت منها تنحيها جانبا وتحتضنني وتحتضن طفلنا معي وننام نحن الثلاثة على هذا الوضع قريري الأعين راضين بما أراد الله لنا.. شاكرين له نعمه التي لا تعد ولا تحصى.

وتعجبت لأمر هذه الرسالة التي تذكرتها بعد هذه السنين فكانت بلسما لبعض متاعبنا العابرة ولقد قررت أن أكتب إليك بتجربتي هذه لتعرف كم تؤثر الكلمة الصادقة في معنويات الإنسان، ولكي أرجوك أن تعيد نشر هذه الرسالة الطاهرة النقية التي تقطر صدقا من كل حروفها.. فالزواج مهما كان سعيدا ومهما كان عطاء الدنيا للزوجين يمر دائما بوعكات خطيرة لأن التطلع إلى المزيد هو دأب

الإنسان منذ وجد في الدنيا وهذه أحد الأدوية الناجعة لمثل هذه الوعكات الزوجية العابرة لأنها درس في كيفية تذوق طعم الرضا والقناعة إنني أتذكر دائما عبارة حكيمة لك تقول فيها تعليقا على رسالة مشابهة:» إن السعادة قد تكون في كثير من الأحيان بين أيدينا.. لكننا نتعامى عنها ونلهث وراءها ونظن دائما أنها هناك عند المنعطف الذي لا يجيء أبدا».

وأتذكر لك أيضا عبارة أخرى تقول فيها:» املأ عينيك من كل الأشياء. وتمتع بوجوه الأحباء والأصدقاء فربما لا تراهم مرة أخرى». وأنا أملأ عيني كل يوم بالفعل من وجوه أمي وإخوتي وزوجتي وابني وقد تعلمت أن هذه النظرة أثمن من كل كنوز الدنيا، وحين أعد نعم الله علي لا أحصيها وصدقني فإن الله قد أعطاني من نعمه الكثير والكثير حتى لا أظن أنه قد رزقني بأكثر مما رزق به نبيه سليمان عليه السلام، فاللهم احفظ نعمك علينا وأدمها لنا إنك أنت الرزاق الكريم وبهذه المناسبة هل تعرف شيئا عن كاتبة رسالة أدب الحياة.. وماذا فعل الله بها وبزوجها وأبنائها.. وهل وسع الله عليهم رزقه الله عليهم رزقه بعد هذه السنين؟.. وهل مازالوا يتشاربون الحب والحنان، كما أرجو لهم جميعا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

ليست المشكلة الحقيقية هي فقط في دأب الإنسان على التطلع للأفضل منذ وجد في الدنيا كما تقول: وإنما أيضا في صبره على احتمال حياته إلى أن يحقق لنفسه ما يرجوه لها من أهداف وفي تعجله الوصول إلى هذه الأهداف بما يتعارض أحيانا مع الأطوار الطبيعية لحياة الإنسان.

ومن الجدير بالتأمل حقا.. أن الإنسان يسلم بأطوار النمو هذه من الناحية الجسمانية والعقلية ولا يعترض عليها.. لكنه في بعض الأحيان يرفض أن يسلم بها، من الناحية الاجتماعية والمادية، فيطلب لنفسه أن «يولد» كبيرا من الناحية الاجتماعية والمادية.. وأن يجد في بداية حياته كل ما ينبغي له الكفاح السنوات طويلة لكي يحصل عليه. أما مرره النفسي لذلك فهو أن هناك من «يتمتعون» بالفعل بكل ذلك بغير احتمال لصعوبات البداية ولا كفاح طويل لتحقيق الأهداف، وهو مبرر مردود عليه بأن القادرين قلة دائما في كل مجتمع، وأن البسطاء والمكافحين هم الأغلبية العظمى الكاسحة من البشر في كل مكان من الأرض حتى في أغنى المجتمعات وأكثرها ثراء، وإن حياة الإنسان الطبيعية هي أن يبدأ من نقطة البداية الصغيرة.. ثم يحقق لنفسه وأسرته بالكفاح الطويل ما يطمح إليه من أهداف، وأن يرضى عن كل مرحلة من مراحل العمر، ويستجلي مميزاتها وجمالها ويسعد بها برغم ما فيها من عناء.. وفي ظلال الحب والرضا والاستعداد النفسي للابتهاج بالأشياء يشعر الإنسان في كل مرحلة من مراحل العمر بأنه قد حقق لنفسه ولأسرته خطوة مهمة للأمام.. فيرضى عنها ويشكر ربه عليها.. ويتطلع لما بعدها من أهداف قريبة وبسيطة.

والفارق الجوهري بين من يسلمون بحقائق الحياة راضين وبين من يسخطون عليها.. هو أن أصحاب النفوس الراضية يدركون جيدا قيمة الأشياء التي تستحق أن يشقى الإنسان للحفاظ عليها ويفرقون بينها وبين تلك الأشياء التي حتى وإن طلبها الإنسان لنفسه ونالها فإنها وحدها قد لا تحقق له الهناء ولا تعوضه عما يكون قد فقده خلال الطريق من الأهداف الجديرة بالاهتمام، كالسعادة.. وراحة القلب وسلامة الأبناء والصحة ورفق الأقدار بالإنسان.. إلخ.. كما لا يغيب عن هؤلاء كذلك وهم في مرحلة الكفاح والرزق الشحيح.. أن رزق السماء للإنسان ليس فقط رزقا إيجابيا مباشرا، وإنما هناك أيضا ذلك الرزق السلبي المهم الذي يتمثل في حجب الآلام والاختبارات القاسية التي لا ينفع معها جاه ولا مال، والتي قد تبتلع في لحظات كل ما شقي الإنسان لجمعه في سنوات، وذلك حقا هو الرزق العميم.. أن تترفق بنا الأقدار فتكون اختباراتها لنا هينة ورحيمة وفي حدود الاحتمال البشري، وأن تنعم علينا السماء بالسعادة والصحة وسلامة الأبناء وراحة القلب وحب الآخرين وذلك هو الفوز العظيم.

أما أهداف الحياة المادية.. وإن كانت طموحا مشروعا للجميع فهي لا تتحقق باللمسات السحرية ولا بالقفزات المفاجئة، وإنما عبر كفاح السنين وبشرط ألا يفقدنا السعي إليها قدرتنا على استشعار السعادة في أبسط الأشياء، فالطموح الضاري قد يجعل الإنسان ناجحا في نهاية الأمر، لكن الإنسان قد يفقد أيضا خلال انغماسه فيه كل ما يجعله يستمتع بهذا النجاح حين ينجح في تحقيق الأهداف، ولا عجب في ذلك لأن من لم يسعد بالقليل في حينه.. لن يسعد أيضا بالكثير حين يجيء، لأنه قد فقد الرضا منذ زمن طويل وخسر أشياء جوهرية في روحه لا يعيدها إليه مال ولا جاه.

فإذا هاجمت الإنسان نوبة من نوبات الضعف البشري.. وتشكى من أقداره وقلة رزقه ونعى على نفسه حرمانها مما يتمتع به الآخرون، فأحرى به أن يقيس المسافة بين نقطة البداية التي انطلق منها.. وبين النقطة التي يقف عندها الآن شاكيا متسخطا، ليعرف أنه يمضي على الطريق ولا يرجع إلى الوراء.. لكن آفة بعض البشر أنهم يعكسون الآية ولا يلتفتون للوراء.. وإنما يقيسون فقط المسافة بين النقطة التي يقفون فوقها الآن وبين خط النهاية الواعد بتلبية كل الرغبات وتحقيق كل الأهداف.. فيتولاهم الضيق ويستهولون بعد الطريق. ويشعرون أنهم يتقهقرون عن غيرهم في نفس السباق ولا يتقدمون وهذا خطأ بشري شائع أيضا.

لهذا فإنه من واجب الإنسان أن يتذكر البدايات دائما لكي يرضي عما قطع من أشواط على الطريق ويتجدد لديه الأمل في بلوغ الشاطىء الموعود ذات يوم قريب.. والمهم أولا وقبل كل شيء هو ألا يبدد أيامه في السخط والتشكى ولوم الحياة على أقداره فيها وأن يرد نفسه دائما إلى الرضا عما أتيح له من أسباب وإلى الإيمان بربه وغده ومستقبله وأن يتذكر دائما أن لكل إنسان من حظه ما يرضي عنه.. ومن قدره ما يشقى به مهما بلغ من شأن في الحياة لأن الأقدار تتساوى في النهاية ومهما بدا لنا غير ذلك، وقديما قال العقاد العملاق: لا تحسدن غنيا في تنعمه قد يكثر المال مقرونا به الكدر

تصفو العيون إذا قلت مواردها   والماء عند ازدياد النيل يعتكر

ولو خير عاقل بين وفرة المال المقرون بالكدر.. وبين حياة بسيطة مقرونة بالسعادة والصحة والوئام لما تردد في اختيار الأخيرة.

وكل زوجين شابين ينبغي لهما أن يستمتعا بمرحلة البداية وأن يقبلا بصعوباتها ويتطلعا بقلب يخفق بالأمل دائما إلى الغد وإلى نصيبهما العادل من الحياة، ومن أجمل ما قرأت للكاتبة الأمريكية دوروثي كارينجي قولها لكل زوجة شابة: إن مساعدة رجل على بلوغ النجاح هو في حد ذاته عمل يمكن أن تختاره الزوجة لنفسها وتكتفي به وترضى عنه وتسعد بكل ما تحققه من إنجازات في سبيله.

ومن المهم كثيرا بالفعل أن تؤمن كل زوجة بزوجها.. وبقدرته على تحقيق نجاحه وأهدافه وأهداف أسرته الصغيرة حين يجيء الأوان وأن تشعره بالرضا عن حياتها، وبتقديرها لكفاحه في الحياة من أجل إسعادها وإسعاد أسرتها.. فهذا «الإيمان» نفسه هو خير معين له على الكفاح من أجل بلوغ الأهداف وليس كالحب والعطف والوئام والتراحم بين الزوجين..، من دواء ناجع لكل «نوبات» السخط العارضة على الأوضاع في حياة الإنسان.

وليس كالإيمان برب السماء.. ونبع الحكمة الإلهية من عاصم للإنسان مما قد توسوس له نفسه الأمارة بالسوء في بعض الأحيان.. فيهز الإنسان رأسه بعنف كأنما يطرد منها وساوس الشيطان.. ويتلفت حوله راضيا عما أجزلت له السماء العطاء فيه.. ويشكر ربه عليه.. ويدعوه أن يحفظه له.. ويردد قول الحق سبحانه وتعالى مؤمنا ومصدقا: «قل متاع الدنيا قليل» مهما بلغ شأنه.. ويردد أيضا مؤمنا ومصدقا «والعاقبة للمتقين»، والشاكرين والراضين.. جعلك الله وإيانا منهم.. مع تمنياتي لك ولأسرتك بالسعادة والأمان.

أما كاتبة رسالة «أدب الحياة» التي ذكرتني بها بعد كل هذه السنوات وأرسلت إلي صورة منها أعادتني إلى أجوائها الطيبة المعطرة، فلست أعرف للأسف الشيء الكثير عنها.. وأرجو الله أن تكون بخير هي وأسرتها وأن تكون جوائز السماء قد هبطت عليها جزاء وفاقا لقناعتها ورضاها وفهمها الصحيح لحقائق الحياة وشكرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كبرياء الألم!

أكتب رسالتي هذه إليك وكلي أمل في أن أجد لديك العون الذي أحتاج إليه بشدة الآن. فأنا رجل في الخمسينيات من عمري.. وزوجتي تصغرني بعام واحد.. وقد تزوجنا منذ ٢٠ عاما.. وكانت هي ابنة الجيران التي تتمتع بالجمال والجاذبية.. وكنت الشاب الذي يحاول بشتى الطرق جذب انتباهها.. ويتردد بين مواصلة هذه المحاولات.. وبين التوقف عنها رعاية العلاقة الصداقة بين شقيقي وشقيقها.. ولأنها أيضا قد خطبت خلال هذه الفترة ثلاث مرات، لكن حبي لها دفعني بالرغم من ذلك الانتظار الفرصة للتقدم إليها إلى أن جاءت الفرصة وتقدمت إليها وتزوجنا بالفعل وأنجبنا بعد العام الأول من الزواج أول أبنائنا، ومضت حياتنا في هدوء مشوب دائما بالتوتر وكان السبب في ذلك هو اختلاف الطباع بيننا فزوجتي متحررة أكثر من اللازم، وأنا متحفظ أيضا أكثر من اللازم، لذلك فقد تراوحت علاقتنا دائما بين الشد والجذب، وكثر ذهاب زوجتي إلى بيت أسرتها في كل وقت فكان هذا سببا آخر من أسباب الخلاف بيننا، إلى جانب عزوفها شبه المستمر عن التجاوب العاطفي معي، حيث لم يحدث طوال زواجنا أن وافقت على أن نخرج معا كأي زوجين للترويح عن النفس سوى مرات قليلة تعد على أصابع اليد، لكن رغبتي في الحفاظ على بيتي كانت تتغلب علي دائما فأتجاوز عن الخلافات وأرضخ في النهاية وأنا غير راض في أعماقي، إلى أن بدأت زوجتي تشكو منذ سنوات من بعض المتاعب في جهة عملها وتسعى بكل الطرق للانتقال منه إلى هيئة أخرى، فساعدتها في ذلك بقدر ما أستطيع، وساءت حالتها النفسية كثيرا خلال ذلك وفسرت ذلك بمتاعبها في العمل، ثم تم النقل أخيرا هذا العام وبدأت أعصابها تهدأ وتستريح، ثم سافرت منذ شهور إلى الخارج في مهمة عمل ورجعت منها فوجدت زوجتي قد تغيرت كثيرا وبدأت تختلق الأعذار للخروج كل يوم تقريبا بصحبة أحد الأبناء وتثور لأتفه الأسباب وتختلق المشاكل مع الأبناء في عز موسم الامتحانات وتسيء معاملتي إلى أقصى حد بغير سبب واضح، وخلال ذلك بدأت استقبل مكالمات غريبة من آنسة أو سيدة لا أعرفها تبثني فيها على غير سابق معرفة حبها وهيامها، فهداني تفكيري لأن أعطيها رقم تليفوني المحمول.. لكي أستطيع معرفة الرقم الذي تتحدث منه إذا اتصلت بي، حيث يظهر رقم الطالب على شاشته، وبالفعل اتصلت بي فيه وعرفت الرقم وسجلته عندي، ولاحظت أن هذه الفتاة تتعمد الاتصال بي في البيت خلال غيابي عنه فإذا رد عليها أحد أبنائي قالت له في بجاحه أنها سوف تتصل بي مرة أخرى غدا في نفس الموعد.. وتطلب أن أكون موجودا! وسألت زوجتي عما تشير على بأن أفعله إزاء هذا الموقف فكانت تجيبني ببرود وبلا أدنى اكتراث بأنني حر في أن أفعل ما أشاء!

ومنذ حوالي شهرين كنت مدعوا إلى حفل عام مساء أحد أيام الخميس، وطلبت من زوجتي أن تصحبني إليه كما تفعل كل الزوجات لكنها اعتذرت عن ذلك بطريقة جافة، ثم رجعت بعد نهاية الحفل فقابلتني بوجه شديد التجهم وكأنني قد ارتكبت جرما لا أعرفه.. وفي يوم كنت أقلب بالصدفة في أدراج المكتب بالبيت، فإذا بي

أعثر على مجموعة من الخطابات والرسائل بخط زوجتي وموجهة إلى شخص لا أعرفه أو لم أكن أعرفه حتى ذلك الوقت، تصف فيها حياتها السابقة على معرفتها به بأنها كانت حياة بائسة وخالية من كل معنى.. وكيف أنها تعمل بكل الطرق الممكنة للتخلص من زوجها، لكي ترتبط به لأنها تشعر معه بما لم تشعر به أبدا مع زوجها الذي هو أنا للأسف، وكيف أن حياتها مع هذا الشخص ستكون مختلفة تماما عن حياتها معي إذ ستكون معه في كل مكان في عمله الصباحي وعمله المسائي وفي الحل والترحال لأن لهيب الحب لن يسمح لها أن تدعه يبتعد عن عينيها لحظة واحدة!

وصدمت صدمة مروعة وأنا أقرأ هذه الرسائل المؤلمة.. وتصبب العرق من وجهي وشعرت بالبرودة تسري في جسدي.. وجلست ذاهلا أفكر في حياتي.. وفيما فعلت طوال ٢٠ عاما لاجتذاب مشاعرها تجاهي بلا فائدة، ولم أستطع كتمان همي الثقيل طويلا، وواجهتها بما عرفت وما قرأت في رسائلها.. وفوجئت بها بكل جرأة تقول لي إنني السبب فيما حدث لأنني كنت دائم الاختلاف معها حول كل شيء، في حين كان الطرف الآخر يسمعها حلو الكلام فضعفت معه واستجابت له، أما حديثها عن الحياة الجميلة معه فليس سوى حلم من أحلام اليقظة، لأنها لم تخني بالمعنى الشائع لهذه الكلمة البغيضة بدليل أنها لم تسلم هذه الرسائل إلى الطرف الآخر وإنما احتفظت بها لنفسها كنوع من الخواطر السرية التي لا يطلع عليها سوى صاحبها!

وصدقتها يا سيدي في ذلك رغم معاناتي الشديدة.. فلقد كنت أفكر في مصير أبنائي الذين مازال أصغرهم بالمرحلة الاعدادية.. وأعرف أيضا أن هذه الآثار لن تقتصر على الأبناء وحدهم وإنما ستمتد إليها هي نفسها، لأنها عنيدة للغاية وقادرة على الاستغناء عن أي شيء في الوجود في سبيل تحقيق ما تريده، وهكذا تغاضيت صاغرا عما حدث بشرط ألا تعاود الاتصال بذلك الشخص الذي أشارت إليه في رسائلها وألا تذهب إلى الجهة التي يعمل بها لأي سبب من الأسباب لكن الشك لم يفارقني بالرغم من ذلك.. وألمني أكثر أنها لم تحاول أن تتقرب مني وأنا في قمة انهياري وتأثري بما حدث.. ومع ذلك فقد حاولت حل المشكلة بعيدا عن الأبناء وخرجنا سويا وحدنا لكي نتحدث عن حياتنا ونحاول الاقتراب من بعضنا البعض، وحدث بعض التقارب بالفعل لكن إحساسي بالجرح الغائر حطمني، فازددت عصبية وازددت زهدا في الحياة، وفقدت معظم قدرتي على التركيز مع أن عملي يتطلب حضورا ذهنيا عاليا. ورغم ألمي وشرودي فقد لاحظت أن الاتصالات التليفونية من جانب الفتاة التي كانت تزعم أنها تهيم بي شوقا وولها قد توقفت نهائيا بغير مقدمات! وعرفت خلال ذلك أن الرقم الذي كانت تتحدث منه في مكتب ذلك الشخص موضوع الرسائل ولم ينته الموقف رغم مرارته عند هذا الحد فلقد فوجئت بزوجتي أثناء جلوسنا معا منذ أيام تطلب مني طلبا غريبا هو أن أسمح لها بالاتصال بهذا الشخص ولو لمرة واحدة كل أسبوع، فإذا لم أقبل بذلك فإنني استطيع أن أطلقها سرا، وأن تبقى في البيت كما كان الحال من قبل وأمام الأبناء بغير أن يعرفوا بطلاقنا، وتتولى هي خدمة الجميع وإدارة البيت كما كانت تفعل

ومع اختلاف بسيط هو ألا نتعامل معا كزوج وزوجة لأنها سوف تتزوج عرفيا من ذلك الشخص، ولا يحق لي بعد ذلك أن اعترض على سلوكها معه.. أو على خروجها أو اتصالها به، فهل تصدق هذا؟

لقد ذهلت مما قالته لي واشتدت وطأة الجرح الغائر علي. وأجبتها بأنها إذا كانت هذه هي رغبتها حقا فإنني لن أطلقها إلا في العلن وأمام الجميع لأنني لا أستطيع أن أفعل ما يغضب ربي، ولأن فيما تطلبه مني امتهانا لي ولها وللأبناء، وحدثتها طويلا في ذلك وراحت هي تدافع باستماتة عن تلك الفكرة المجنونة، وانتهى الحديث بيننا بأن أعطيتها مهلة لأسبوع واحد تختار خلاله بين الانفصال العلني.. وبين ترك هذه الهواجس الشيطانية محذرا إياها من أن الله يمهل ولا يهمل وأنها ينبغي لها أن تعود إلى ربها وتنسى هذه النزوة الشيطانية في أقرب وقت.

ولست أدري ماذا سينتهي إليه هذا الموقف الغريب الذي أواجهه الآن يا سيدي، وقد كتبت إليك لتشير علي بما أفعل إزاءه في حدود الشرع والدين، ولأطلب منك أيضا أن توجه كلمة إلى كل زوجة ساخطة على زوجها وأولادها، تعيدها بها إلى صوابها، وتذكرها بما سيشعر به أبناؤها من صدمة هائلة حين يكتشفون سلوكها أو في حالة انفصالها عن زوجها لمثل هذا السبب كما ذكرت مرارا في ردودك على رسائل بريد الجمعة، ولأطلب منك أيضا أن تدعو كل زوجة إلى ألا تغضب ربها بدون أسباب سوى العند والتكبر والتقليد.. فماذا تقول لي بعد كل ذلك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

حين تدير لنا لأيام ظهرها وتحرمنا من السعادة التي نرتجيها فإن الأكرم لنا إذا كان الاختيار الوحيد أمامنا بين أمرين أحلاهما مر، هو أن يكون ألمنا نبيلا شريفا، وليس ألما ذليلا خانعا، وللأسف فإن الاختيار الذي تواجهه الآن هو بين هذين النوعين من الألم وحدهما.. أي بين الألم النبيل الذي لا نفقد معه الاعتبار والكرامة الإنسانية وبين الألم الذليل الذي نتجرع مع مرارته علقم الهوان والإذلال البشري، والقبول بما لا يرضاه الحر لنفسه، ولا مجال في الحقيقة للاختيار أمامك سوى أن تعتصم بما أسميه أحيانا بكبرياء الألم، أي بالإحساس بأنك قد اخترت الكرامة الإنسانية وعدم التفريط في شرفك وحقوقك كإنسان وزوج، ولو تجرعت في سبيل ذلك أقسى آلام الهجر والتعاسة والفشل وانهيار الحياة المستقرة، وهو الاختيار الذي ينبغي لك أن تحسمه الآن بغير تردد فالحق أنك قد خطوت بالفعل بضع خطوات على ذلك الطريق المنحدر الذي لا يقود الإنسان في النهاية إلا إلى هاوية التفريط والتنازل، ولقد كانت خطوتك الأولى عليه حين ترددت، أمام اتخاذ القرار الوحيد الملائم بشأن حياتك مع زوجتك، عندما اكتشفت خيانتها لك مهما كانت تبعات ذلك القرار وآلامه الإنسانية والنفسية، ولأن السير في الطريق المنحدر لا يقود إلا إلى نقطة أدنى من النقطة التي تسبقها، فلقد وجدت نفسك الآن أمام هذا الاختيار العجيب الذي تريد زوجتك بجرأة تصل إلى حد الفحش والمجاهرة بالخطأ أن تفرضه عليك، وهو إما السماح لها بالاتصال بهذا الشخص الذي ملك عليها

قلبها ومشاعرها، وبغير اعتراض من جانبك على ذلك، وإما الانفصال عنها سرا مع استمرار حياتكما معا في العلن كزوجين وأبوين في حين ترتبط هي بعلاقة زوجية أو غير زوجية مع الشخص الآخر، ولست أدري كيف قبلت من الأصل أن تناقش معها هذا العرض الفاجر من جانبها، ولا كيف قدمت أنت لها بدلا منه اقتراحا مضادا، هو أن تنصرف عن هذه الفكرة المجنونة أو تطلقها طلاقا علنيا يتحمل الطرفان تبعاته أمام الأبناء والمجتمع.

فلقد كان التصرف الوحيد المقبول من جانبك عند سماع هذه الفكرة الفاجرة منها هو أن توقن بأن كل محاولات الإصلاح ومحاولات إعادتها إلى رشدها وتذكيرها بمسؤولياتها العائلية، غير مجدية ولا أمل فيها ولا رجاء وبالتالي فلا مجال لمواصلة الجهود على طريقها ولا موضوع للحديث إلا عن الطلاق وشروطه وكيفية تخفيف آثاره على الأبناء واحتوائها، أما مجرد المناقشة في أمر السماح لها بالاتصال بشخص آخر وهي زوجة وأم وعرضها على مائدة البحث ورفضها فليس سوى خطوة أخطر على طريق الانحدار والتفريط، وأما رجاؤها بأن تصرف نظرا عن هذه الفكرة الفاجرة أو تقبل بالانفصال العلني فليس أيضا سوى تهديد أجوف، لن يحدث أثره المرجو لديها لأن من هتكت ستر الحياء أمام زوجها على هذا النحو، لن يؤثر فيها تهديد ولا وعيد، كما أن من لم ترع حقوق أبنائها عليها ولم تتحرج مما سوف يشعرون به من ألم «وعار» لسلوكها هذا مع شخص آخر غير أبيهم لا يؤمل المرء فيها كثيرا أن ترد نفسها عن رغبة استولت عليها وفاتحت زوجها فيها محاولة إرغامه على القبول، بما لا يقبل به أحد لنفسه أو الانفصال عنه.

وفي بعض الأحيان فإن التسليم بالهزيمة والفشل قد يكون أكرم للمرء من أن يواصل امتهان نفسه في محاولة بلوغ ما لن يبلغه أبدا من أهداف، مهما قدم من تنازلات في سبيلها.

وأحسب أنك الآن يا سيدى قد بلغت هذه النقطة المؤلمة التي ينبغي لك أن تسلم فيها بالهزيمة والفشل في محاولة كسب مشاعر هذه السيدة، أو محاولة إعادتها إلى رشدها وتذكيرها بمسؤولياتها الإنسانية والأخلاقية تجاه أبنائها ولهذا فمن الأكرم لك ولها أن تقبل بالانفصال الكامل العلني عنها وتتحمل تبعاته، مرغما بعد أن بذلت الكثير من نفسك ومن حقوقك كرجل في سبيل الحفاظ عليها، وحماية الأسرة من الانهيار، وحماية الأبناء من تجرع مرارة الانفصال.

ولا عجب في أن أقول لك ذلك رغم كراهيتي العميقة لتعريض الأبناء لمثل هذه المحنة بسبب استجابة أحد الأبوين لنداء العاطفة في سن الاحترام والوقار، لكنه لابد مما ليس منه بد في بعض الأحيان ولابد أيضا من أن يكون الحرص على الأبناء متبادلا بين الطرفين ومتكافئا، وإلا تحول إلى سلاح مدمر في يد أحدهم لإرغام الآخر على القبول بما لا يقبل به الحر لنفسه. ومن عجب حقا أن زوجتك تريد أن تفوز بكل شيء وبغير أن تخسر شيئا، أو تتحمل أية تبعات لاختيارها الاستجابة لنداء العاطفة على حساب حقوق أبنائها وزوجها عليها، فهي تريد أن تحول حلم اليقظة الذي يراودها إلى حقيقة، لكنها لا تريد في الوقت نفسه أن تفقد

شكل الأسرة المحترم ولا مشاعر الأبناء تجاهها ولا احترام الأهل والأصدقاء لها، لهذا فقد عرضت عليك هذا الحل المبتكر الذي يحقق لها كل ما تريد ولا تدفع له أية ضريبة، ولا يتحمل أحد ضريبة الألم فيه والغدر ومرارة الغيرة والإحساس بالهوان سواك يا إلهي إلى هذا الحد قد تبلغ القسوة أحيانا ببعض البشر تجاه من حملوا لهم الحب وتجرعوا منهم كل ألوان الهوان على مر السنين؟

إنني أجد نفسي مضطرا لأن أقول لك إن هذه السيدة لم تحمل لك في يوم من الأيام أية ذرة من مشاعر الحب والاعتزاز، التي حملتها لها منذ كنت شابا صغيرا، وأنها لم تقبل بك إلا بعد تكرار فشلها في خطابتها المتوالية، لهذا فقد كانت علاقتك بها طوال رحلة زواجك منها علاقة حب من طرف واحد، وعلاقة تجبر وفرض للإرادة والرغبات من جانب الطرف الآخر.. فأما جرأتها عند مواجهتك لها بالخيانة وزعمها لك أنك «السبب» فيما تدهورت إليه فليست سوى محاولة مألوفة من جانب من لا يريد الاعتراف بخطئه، ويحاول دائما أن يلتمس لأخطائه التبرير النفسي بادعاء مسؤولية الغير عنها، مع أن الخطأ- حتى مع افتراض وجوده من الأصل - لا يبرر الخطأ ومع أن الإنسان لا يلتزم بالطريق القويم في الحياة امتنانا للآخرين الذين أحسنوا معاملته وإنما التزاما بمبادئه الأخلاقية، والدينية، واحتراما للنفس.. وحرصا على الأعزاء من أن يسببهم الآخرون بسلوكه المنحرف فيجلب لهم التعاسة، بدلا من أن يحرص على إسعادهم ويعلى مصالحهم على كل الاعتبارات.

إنها حيلة نفسية قديمة ومألوفة لتبرير الأخطاء والتماس الاعذار للنفس، مثلها في ذلك مثل تلك الحيلة الأخرى الرخيصة التي حاولت بها زوجتك شغلك عنها، لكي تتخفف بعض الشيء من وطأة مراقبتك لها، وهي حيلة تحريض سيدة أو فتاة على الزوج لكي تبثه غرامها المزيف، وتشغله بمغامرة نسائية وهمية عن التدقيق في سلوكيات زوجته.. ولإظهاره أمام الأبناء بمظهر الرجل العابث الذي لا يحترم رابطة الزوجية المقدسة ولا يرعى مشاعر الأبناء، فإذا وقعت الواقعة وانفجر الموقف بين الزوجين ظهر «الطرفان» وكأنهما متعادلان في الخيانة.. وضعف موقف الزوج أمام زوجته، وحق للزوجة أن «تشكو» من خيانة زوجها لها، مما دفعها إلى طريق الهاوية، أو حاولت أن تقنع الأبناء بأنها لم تكن الطرف المخطىء الوحيد في العلاقة، وأن الأب كذلك قد أخطا فأعطاها بخطئه المبرر النفسي للاقتراب من الدائرة المحرمة، وكل ذلك عبث من العبث، ومن ألاعيب الخيانة المألوفة، ومن حيل الإنسان الذي لا يجيد شيئا كما يجيد خداع نفسه ومحاولة تبرير أخطائها وانحرافاتها.

يا سيدى، إنني أنصحك بأن تعتصم بكبرياء الألم وألا تنتظر قرار زوجتك في حياتها معك، فبعض الكرامة الإنسانية يتمثل أحيانا في قدرتنا على أن نستغني عمن يتصور أنه لا غنى لنا وكبرياء إلى أن تشفي الجراح.. وتغسل الأيام أحزاننا.. عنه.. وأن نتحمل آلام هذا الاستغناء الاضطراري المؤلم في ويعوضنا الله عما خسرنا بعض الجزاء.. ولن أزيد كلمة أخرى. وشكرا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النظرات الصامتة!

أنا مهندس شاب تخرجت منذ ثلاث سنوات، وحين التحقت بكليتي وهي إحدى كليات الأقاليم لفتت نظري في السنة الإعدادية فتاة كالملاك شدتني إليها بجمالها وأخلاقياتها، فتقاربنا وعرفت منها أن لها أختا بنفس السنة الدراسية بالكلية لكنها لم تنتظم في الدراسة بها طويلا لإحساسها بأنها لن تنجح فيها وسوف تحول أوراقها إذا رسبت إلى كلية نظرية في العام الجديد، وظهرت نتيجة العام الدراسي الأول فكنت أول الدفعة وكانت فتاتي الثانية، واعتزمت الالتحاق بأحد أقسام الكلية التي أفضلها، لكن فتاتي كانت قد اختارت قسما آخر لا أحبه وحاولت معها طويلا أن تغيره كيلا نفترق في الدراسة فلم تقتنع ولم أجد مفرا من تغيير دراستي أنا والانتقال إلى قسمها، وبذلت جهدا خارقا للتواؤم مع نوع الدراسة التي لا أحبها والتفوق فيها وظهرت نتيجة الامتحان في نهاية السنة فجاءت فتاتي الأولى وجئت أنا في الترتيب الثاني، وظللنا نتبادل الترتيب الأول والثاني طوال سنوات الدراسة، وكانت فتاتي تقول لي دائما أنها لن تتزوج إلا معيدا في الكلية، فأعدها بأن أكون كذلك، إلى أن جاءت السنة النهائية وتوفي أبي يرحمه الله قبيل الامتحان بأسابيع وحزنت لرحيله حزنا شديدا أثر على تركيزي في دراستي، وأديت الامتحان النهائي وأنا مشوش الفكر، فإذا بترتيبي بنظام التقديرات التراكمية يبعدني عن المراكز الأولى.. وإذا بفتاتي تعين معيدة بالكلية دوني وبالرغم من سعي رئيس القسم لتعييننا معا.

وانهرت لذلك نفسيا وأمضيت بضعة أسابيع في البيت لا أغادره ولم تسأل عني فتاتي خلالها سوى بضع مرات، ثم اتصل بي أستاذي يدعوني للخروج من عزلتي والالتحاق بالدراسات العليا، فاستجبت له وعدت للكلية والتقيت بفتاتي وعاتبتها لعدم اتصالها بي لفترة طويلة فلامتني على انهياري بسبب عدم التعيين كمعيد وطلبت مني مواجهة الموقف كرجل وليس كطفل صغير، وبررت عدم اتصالها بي بانشغالها بعملها الجديد، وبعد هذه المقابلة قررت أن أؤجل موضوع الزواج إلى بعد الحصول على الماجستير والالتحاق بعمل مناسب، ولاحظت أن فتاتي بعد ذلك لم تعد تتحدث معي حين نلتقي، وإنما تكتفي بالنظرات الصامتة التي تنطق بالحب ومضت ثلاث سنوات اجتزت خلالها الدراسات التمهيدية وقطعت شوطا كبيرا في رسالة الماجستير، فإذا بي التقى بشقيقة فتاتي بالكلية وإذا بها تبلغني بأن أختها سوف تتزوج من شاب يعمل بإحدى الدول العربية بعد أسبوع واحد، وثرت عليها ثورة عارمة تحملتني خلالها بصبر وأدب، وسألتها كيف لا تبلغني أختها بذلك إلا قبل أسبوع واحد من الزفاف، واسودت الدنيا في وجهي، وتوجهت إلى بيت فتاتي والتقيت بوالدها وطلبت منه يد ابنته فأجابني بصرامة بأن الموضوع منته وان ابنته في حكم المتزوجة وانصرفت مخذولا وذهبت إلى الكلية لأبحث عن فتاتي وأسألها كيف ذلك، فإذا بها قد حصلت على اجازة لمدة شهر، وانهرت مرة أخرى كما أنهرت حين فقدت أبي وحين فقدت فرصتي في التعيين كمعيد وأهملت مظهري ودراستي وعجزت عن الاستمرار في أي عمل خارج مدينتي حيث لا أجد مجالا

لتخصصي سوى خارجها لأكثر من أسبوعين ثم أرجع تاركا العمل لأذهب للكلية لأرى فتاتي عن بعد، أو أطوف ببيتها لعلي أراها وأفصل من هذا العمل بعد حين، أما هي فقد أصبحت لا تطيق رؤيتي لأني أذكرها بما تريد أن تنساه! ولقد نصحتني أختها التي رأيتها في كليتها بأن أحاول نسيانها، وأن أفكر في غيرها مؤكدة لي أن هناك كثيرات يتمنين الارتباط بي، لكن هيهات يا سيدي أن أستطيع ذلك فلقد واصلت محاولة رؤيتها عن بعد أو عن قرب كما واصلت الطواف ببيتها كل حين لأكثر من سنة حتى الآن إلى أن جاءتني فرصة للعمل في إحدى الدول العربية وبدأت استعد للسفر وكنت قد لاحظت أن شقيقة فتاتي تتقرب إلي خلال هذه الفترة لكني لم أعرف هل تقترب مني بدافع الحب أم هو اقتراب جريح من جريح مثله وهي التي فقدت ارتباطها هي الأخرى بجار لها؟

لكني وجدت نفسي أفكر فيها رغم ذلك وأريد أن تشير علي بالرأي السديد في هذا الاختيار الصعب الذي أواجهه وهو: هل تنصحني بأن اقترح عليها أن تتزوجني قبل السفر، أم هل أسافر بغير مفاتحتها في ذلك.. وأخشى في هذه الحالة ألا أحتمل البعد طويلا وأن أرجع بعد فترة قصيرة بغير أن أحقق لنفسي شيئا، وتضيع علي فرصة جيدة للعمل.. وإنني أرجو أن تسرع بالرد على قبل فوات الأوان وشكرا لك مقدما!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

معظم من يعانون من محنة الحب من طرف واحد يعولون كثيرا على مسألة النظرات الصامتة هذه، ويحملونها ويحملون كل اللفتات العابرة التي قد تصدر عفوا عن الطرف الآخر أكثر مما تحتمل، ويتلمسون غالبا في أبسط الأشياء والتصرفات، ما يطمئن قلوبهم الحائرة إلى أن لهم نصيبا في قلوب من يحبون مع أن المرأة قد تخفى الكراهية 40 عاما كما قال أحد الأدباء لكنها لا تستطيع إخفاء الحب يوما واحدا مهما جاهدت نفسها لمداراته كما أن «الألسنة» لم تعد تتردد في التعبير الصريح عن المشاعر.. فما معنى التعويل إذن على هذه النظرات الخرساء وبناء قصور الأحلام والأوهام فوق رمالها الهشة؟

إن الواضح يا صديقي هو إنك واحد ممن يعانون هذه المحنة وهي ليست محنة هينة لأنها في بعض مضاعفاتها وإذا لم يتداركها الإنسان بالإرادة العاقلة قد تتخذ أطوارا شبه هيستيرية تؤثر أبلغ الأثر في حياة الإنسان وقد تفسد عليه أمره وحياته سنين طوالا، كما أنه من الواضح أيضا أنك قد حملت علاقة الزمالة والتنافس الدراسي بينك وبين فتاتك هذه أكثر مما كانت تمثل بالنسبة لها فحمل قلبك الغض لها طوفانا من المشاعر الغلابة، لم تجد ما يكافئها أو يقاربها في قلب هذه الفتاة، أو لعلك وهو الأرجح كنت بالنسبة لها زميلا واعدا بالتفوق والنبوغ، ويمكن أن ترتبط به في المستقبل، لكن تكرار انهياراتك أمام اختبارات الحياة المختلفة قد أثار لديها شكوكها في صلابة شخصيتك وقدرتك على أن تكون زوجا قادرا على حمايتها إذا ارتبطت بك في المستقبل، وكل فتاة في النهاية مهما كانت

قوة شخصيتها وتفوقها العلمي تتطلع لأن ترتبط بإنسان تجد لديه الحماية النفسية والسند الذي تستند إليه في رحلة الحياة، ولا يرضيها أن تكون هي السند والدعامة التي تقيم ظهر شريك حياتها، لهذا فقد انصرفت عنك بتفكيرها فيك كزوج للمستقبل بعد الانهيار الثاني أمام مشكلة عدم التعيين كمعيد، ولم تنصرف عنك بمشاعرها لأن هذه المشاعر لم تكن غالبا قائمة منذ البداية، أو ربما كانت قائمة لكنها لم تكن قوية أو حقيقية بحيث تصمد لتخوفها مما بدا لها من هشاشتك في مواجهة مواقف الحياة الصعبة. كما أنك من ناحية أخرى قد أمضيت ثلاث سنوات أخرى بعد التخرج دون أن تقدم على خطوة جدية واحدة على طريق الارتباط بها، فلا لوم عليها - إذن - إذا هي ارتبطت بغيرك، ولا معنى لمحاولتك اليائسة لخطبتها بعد فوات الأوان، أما ملاحقتك لها في الكلية لكي تراها عن قرب أو عن بعد، بعد ارتباطها وبعد أن أصبحت لا تطيق رؤيتك، وأما طوافك ببيتها طواف العاشق الولهان بأطلال بيتها هاتفا مع الشاعر الراحل إبراهيم ناجي:

أين ناديك وأين السمر أين أهلوك بساطا وندامى

كلما أرسلت عينى تنظر وثب الدمع إلى عيني وغاما!

أما كل ذلك يا صديقي فمما يؤسف له ومما يثير الإشفاق عليك حقا، خاصة وقد بدأت به «طورا» آخر من أطوار هذه الحالة وهو عدم الصبر على العمل في مدينة أخرى غير مدينتك لأكثر من أسبوعين تضحي بعدهما بعملك وترجع لكي تتنفس «الهواء» الذي تتنفسه فتاتك وتلاحقها بنظراتك وطوافك المحزن حول بيتها.

ولقد كان من الممكن أن تظل المأساة العاطفية الصغيرة في حدودها المألوفة إلى أن يؤدي الزمن دوره الخالد وتسلو هذه الفتاة وترتبط بغيرها، لولا أنك قد اقتربت من منطقة شائكة وخطيرة وتنذر بأوخم العواقب، وهي شقيقة فتاتك!

فأنت تسألني هل تفاتحها في الزواج قبل السفر أم تسافر بغير مفاتحتها، وفي هذه الحالة فإنك تخشى ألا تصبر على البعد طويلا وأن ترجع بغير أن تصنع لنفسك شيئا وتفقد فرصة العمل التي أتيحت لك! وسؤالي لك بدوري هو: ولمن سترجع إذا رجعت يا صديقى المعذب؟ إلى من تفكر في خطبتها أم إلى شقيقتها التي تتوسل بخطبتك لأختها لكي تدخل دنياها من طريق مشروع وتواصل حبك الغلاب لها في القرب والبعد..؟

إنك إن رجعت فسوف ترجع إلى فتاتك السابقة التي مازال حبك لها يغلبك على أمرك، وما تفكيرك في الارتباط بشقيقتها سوى حيلة نفسية أخرى كي تدخل عالمها من الباب العائلي الذي لا تستطيع له صدا بعد أن أغلقت هي في وجهك باب الزمالة والكلية، فإذا كانت لا تطيق رؤيتك الآن فلسوف تضطرها الالتزامات العائلية إلى التعامل معك في الحدود العائلية المألوفة ولسوف تواصل أنت «التعبد» في محرابها صامتا، ولسوف تتلمس في النظرة العابرة.. واللفتة الشاردة ما تفسره أنت بأنه «إشارة» على أنها لم تنس ما تتصور أنها تريد نسيانه، فأين شقيقة فتاتك من كل ذلك يا صديقي؟

وكيف يقبل ضميرك أن ترتبط بها لكي تجعل منها مدخلا مشروعا للاقتراب من شقيقتها التي تعاني من حبها القاهر لإرادتك إلى الحد الذي غير مسار دراستك من القسم الذي أردته أنت للقسم الذي التحقت هي به، وإلى الحد الذي يحرمك من الاستقرار في أي عمل بعيد عن مدينتها لأكثر من أسبوعين؟

إنك سوف تظلم هذه الفتاة التي لا ذنب لها معك حتى ولو تزوجتها وأنجبت منها كما سوف تظلم نفسك أشد الظلم وتحرمها من الاستقرار وراحة القلب إلى ما لا نهاية، لأن دخولك دنيا فتاتك ولو من الباب العائلي سوف يبقى شعلة حبك لها متأججة على الدوام.. ولسوف يتلظى اللهب دائما كلما تلقي نظرة طائشة أو كلمة عفوية غير مقصودة تشي ببعض الود لك فلا تعذب نفسك أكثر مما عذبتها حتى الآن بهذا الحب الذي يقترب بك من الحدود الهيستيرية الخطيرة، ولا تعذب شقيقة فتاتك هذه معك، وسافر إلى عملك راشدا ومصحوبا بالسلامة وبغير أن تفاتح هذه الفتاة أو غيرها الآن في الزواج وانشغل بحياتك الجديدة وطموحك لبناء مستقبلك وانغمس في العمل بكل طاقتك واهتمامك. إلى أن يأذن الله لك ببداية جديدة مع إنسانة أخرى والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كشف الأسرار!

أكتب لك هذه الرسالة وأنا في مرحلة النقاهة من أزمة صحية ألمت بي مؤخرا فأنا رجل متوسط العمر بدأت كفاحي في الحياة عقب تخرجي مباشرة في كليتي، فعملت بوظيفة حكومية في الصباح، وبعمل خاص بي في المساء، وأعطيت العملين كل جهدي وفكري وطاقتي فكانت ساعات عملي تحول إلى 15 ساعة يوميا ولا تقل أبدا عن ١٢ ساعة، وبعد عدة سنوات من الكفاح انتقلت من عملي الحكومي إلى عمل آخر أفضل ماديا بالقطاع الخاص مع استمرار عملي المسائي وواصلت الجهاد في معركة الحياة ففتح الله لي أبواب الرزق، وأصبحت خلال سنوات معدودة رجل أعمال ناجحا والحمد لله.. وكنت قد تزوجت وأنا موظف من زوجتي.. وهي سيدة فاضلة عظيمة ووفية فرعتني ورعت أبنائي منها وهيأت لي التفرغ لعملي، وككل زوجين كانت هناك بعض المشاكل العابرة في حياتنا من حين لآخر لكننا كنا نتجاوزها بالتسامح والصبر، كما كانت أسفاري للخارج تساهم من ناحية أخرى في تجاوز هذه الخلافات العابرة، إذ كنت أرجع منها في كل مرة مشتاقا إلى زوجتي وبيتي وأطفالي مهما كانت الخلافات البسيطة بيننا فلا أجد من زوجتي إلا الشوق والفرحة الصادقة باللقاء، وبعد سبع سنوات من زواجنا حدثت بيني وبينها مشكلة كبيرة بعض الشيء وكنت وقتها على وشك السفر للخارج في إحدى رحلات العمل.. فأملت أن يسهم افتراقنا المؤقت في تهدئة الأعصاب كالعادة وسافرت.. وأنجزت أعمالي سريعا ووجدتني لا أرغب في العودة لمصر سريعا قبل أن تمر فترة كافية لصفاء النفوس، فقررت أن أقضي أسبوعا آخر في البلد الأوروبي الذي أزوره وتساءلت عما أفعل خلاله وأنا الذي لم يعتد حياة الفراغ فهداني تفكيري لأن اتصل بشركة من الشركات السياحية التي تنظم رحلات داخلية في هذا البلد لاشترك في إحدى رحلاتها واتصلت بالشركة بالفعل وشاركت في رحلة جماعية إلى مدن الجنوب في هذه الدولة، وبدأت الرحلة وأنا أحاول الانشغال بما أراه وأشاهده عن كل شيء آخر.. فتعرفت على فتاة من أصل عربى عمرها ٢١ عاما تدرس بالجامعة وتعمل وتتحدث أربع لغات منها اللغة العربية، وبهرتني هذه الفتاة بنبوغها وثقافتها ومحافظتها على التقاليد الشرقية بالرغم من حياتها وحيدة في هذه الدولة الأوروبية التي جاءت إليها للدراسة وبدأت بيننا صداقة عميقة أساسها الاحترام والثقة، ورجعت من رحلتي إلى مصر وقد أصبحنا صديقين حميمين واستمرت الاتصالات بيننا بعد ذلك شبه يومية بالتليفون والفاكس كما تكررت اللقاءات بيننا عند سفري للخارج أو حضورها لمصر.. ووقفت إلى جوارها في أحداث وتطورات كثيرة، وساعدتني هي أيضا من ناحيتها في أعمالي وخلال عام واحد كانت علاقتنا قد تعمقت كثيرا، وأنهت هي دراستها الجامعية فاشتركنا في عمل مشروع صغير في بلدها، وكان المشروع الصغير بداية ناجحة لنا معا، ولها هي على وجه الخصوص.

وبعد عامين من تعرفنا وصداقتنا وجدنا نفسينا نرغب بشدة في الارتباط الكامل بيننا ولأنني أخشى الله كثيرا وأكره أن أغضبه.. ولأنها كذلك متدينة فلقد اقتنعنا

معا أنه لابد لنا من أن نتزوج عرفيا لكي يتحقق ارتباطنا المشروع، وبغير أن يؤدي ذلك إلى متاعب عائلية لي مع أسرتي وأبنائي، وتزوجنا عرفيا بالرغم مما واجهته زوجتي الثانية من معارضة شديدة من أسرتها لهذا الزواج، وازدادت علاقتنا بعد الزواج قوة وعمقا، وزاد منها أن أهلها قد انصرفوا عنها وقاطعوها فأصبحت أنا كل أهلها ودنياها كما ازدادت أيضا للدهشة علاقتي بزوجتي الأولى عمقا وقوة بعد زواجي السري هذا، ولا تسلني كيف أو لماذا لأنني أروي لك ما حدث بغير أن أعرف تفسيرا له، فلقد وجدت كل خلافاتنا السابقة البسيطة تذوب فجأة بعد زواجي ووجدتني أسعد بأوقاتي مع زوجتي الأولى، كأفضل ما يسعد زوج محب لزوجته المخلصة وأسعد بأوقاتي مع أبنائي منها، وحين أسافر للخارج والتقي بزوجتي الثانية أسعد بأوقاتي معها كأفضل ما يفعل عاشقان يستمتعان بالحب والمشاعر الجميلة.

وقمت مع زوجتي الثانية بتأسيس شركة تجارية باسمينا معا في بلدها، ونجحت الشركة خلال وقت قصير وحققت لنا خيرا وفيرا وكثرت أسفاري للخارج حتى أصبحت أسافر خارج مصر لمدة أسبوع كل شهر أو كل 45 يوما على الأكثر، كما كثر أيضا مجيء زوجتي الثانية لمصر، حتى وجدت نفسي منذ عدة سنوات أحيا حياة مزدوجة بين زوجتين.. وبيتين يتقاسمان وقتي واهتمامي.. ومشاعري.. حيث أعيش مع زوجتي الأولى لمدة ثلاثة أسابيع في سعادة ووفاق، وأعيش أسبوعا آخر مع زوجتي الثانية وكلتاهما سيدة فاضلة.. ووفية وحنون، وكنت قد اشترطت على زوجتي الثانية ألا تنجب لكيلا تتضاعف متاعبنا في المستقبل، والتزمت هي بذلك، لكن السنوات راحت تعمق الروابط بيننا، وبدأت استشعر حنين زوجتي الثانية لأن تنجب مني وبدأت تطلب حقها في الأمومة فأنجبت مني طفلا بعد ثماني سنوات من الزواج!

وتسألني بالطبع وأين زوجتي الأولى من كل ذلك، وأجيبك بأنني خلال وجودى بالقاهرة أكن لها كل الحب والتقدير وأقوم بإسعادها كأفضل ما يفعل زوج مثالي خصوصا وأنني الآن قد أصبحت قادرا على تنظيم أوقات عملي وقضاء وقت أطول مع زوجتي وأبنائي، وهي تحيا حياة سعيدة للغاية، ولا تعلم بزواجي الثاني حتى الآن وليست هناك وسيلة لأن تعرف به، أما زوجتي الثانية فهي تعرف منذ البداية بالطبع أنني زوج وأب، وهي معروفة كزوجتي في أوساط عملي معها ببلدها، ولقد ظللت أحيا هذه الحياة المزدوجة وأنهل من المتع المضاعفة فيها بلا حساب، فأحصل على الحب والتفاهم والعون العملي والنفسي والتفتح العقلي والذكاء من زوجتي الثانية واحصل على الحب والفهم والحنان والعطاء الأسري والمظهر العائلي المحترم في بلدي من زوجتي الأولى، وأعد نفسي أسعد السعداء، إلى أن كنت في عملي منذ بضعة أسابيع.. فشعرت فجأة بالعرق يتصبب من وجهي، وبصدري يضيق وتنفسي يصبح ثقيلا.. ففتحت باقة قميصي.. وخلعت ربطة العنق وشعرت باختناق شديد، واستنجدت بمن كانوا حولي، فانزعجوا بشدة وأسرعوا بنقلي إلى المستشفى حيث أدخلت إلى العناية المركزة وقضيت بها بضعة أيام عولجت خلالها من الإجهاد والإرهاق الجسدي الشديد وخرجت من العناية

المركزة لقضاء فترة النقاهة فشعرت كأنما قد كتب لي عمر جديد، ووجدتني أستعرض تاريخ حياتي وأفكر طويلا في أمري وأتساءل بيني وبين نفسي كيف سيكون الحال حين تتكشف الأسرار ولا بد لها من أن تتكشف ذات يوم، وماذا ستفعل زوجتي الأولى الطيبة الفاضلة التي تشعر بأنها أسعد زوجة في العالم وماذا سيفعل أبنائي وقد بلغ أكبرهم الآن سن الشباب وكيف ستكون نظرتهم لأبيهم الذي كان يبدو لهم دائما الأب المثالي في كل شيء ويغمرهم بالهدايا بعد كل سفر ويلبي كل مطالبهم ويعتزون به كثيرا ويعتز بهم أكثر؟ إن الزوجتين لم تلتقيا أبدا حتى الآن وإن كانت زوجتي الثانية هي التي تشتري الهدايا لزوجتي الأولى وأبنائي في كل سفر.

ولقد دفعتني الأزمة الصحية التي مررت بها أخيرا لأن أحقق العدل بين الأسرتين وبين أبناء الزوجتين، فخصصت عملي المشترك مع زوجتي الثانية في بلدها لابني منها، وخصصت عملي بالقاهرة لزوجتي الأولى وأبنائي منها، لكن زوجتي الثانية تطلب الآن شيئا أهم بالنسبة إليها من الأمور المادية وهو أن يعرف أبنائي من زوجتي الأولى أخاهم منها، وتقول لي إن هذا الابن الوحيد من حقه علينا أن يعرف أخوته ويعرفوه، فإذا كان لا يحتاج إليهم من الناحية المادية فإنه يحتاج إليهم بكل تأكيد من الناحية الإنسانية والعاطفية خاصة أنه الآن بلا عائلة بعد أن قاطع الأهل زوجتي الثانية منذ ارتباطها بي وأنا مقتنع بمنطق زوجتي الثانية، وانظر لابني الطفل هذا بإشفاق وأشعر بالأسى له.. وأخشى ما أخشاه الآن هو أن توافيني المنية فجأة ويعرف أبنائي وزوجتي الأولى هذا السر ويؤثر ذلك عليهم سلبيا، ويغير من مشاعرهم تجاهي وهم الذين يحملون لي أعظم الحب والتقدير. كما أخشى أن يكون كشف المستور هذا وبالا على أسرتي الأولى، أما زوجتي الثانية فإني أثق في قدرتها على الكتمان فقد حافظت على السر 15 عاما حتى الآن، وحفظته عن كل المحيطين بنا في مصر.

لكن هذا الابن الذي جاء على كبر سيأتي يوم يرغب فيه في أن يعرف أهله بمصر.. فتتكشف الأسرار وتبدأ المتاعب، وزوجتي الثانية من ناحية أخرى تلح علي بأن أعرف أبنائي به وأعرفه بهم ولقد أظهرت لي الأزمة الصحية الأخيرة أن الحياة لا تبدو ممتدة بلا نهاية كما كانت تظهر لي من قبل فالنهاية يمكن أن تحل في أي لحظة، ولقد وفقني الله في تربية أبنائي جميعا الكبار منهم والصغار على المبادئ الدينية والأخلاقية القويمة، لكن خوفي من انكشاف الأسرار وأثر ذلك على زوجتي الأولى وأبنائي منها ينكر على صفو حياتي الآن.. ويزيد من عنائي، فماذا أفعل يا سيدى وبماذا تشير علي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لا سر يبقى طي الكتمان إلى الأبد مهما أملنا في ذلك، أو تفننا في تكتمه أو محاولة منعه من الافتضاح، لهذا فقد قال أحد الحكماء إنه إذا أردت ألا تنكشف أسرارك التي تخجل من أن يعرفها عنك الآخرون، فإن أجدى وسيلة لذلك هو ألا يكون في

حياتك الشخصية من الأسرار ما تخشى أن يعرفه عنك الغير، وأن تحيا حياة فاضلة أمينة لا يجد الآخرون فيها ما يغريهم بالحديث عنه والتلذذ بكشف أسراره.. لكن الإنسان مولع للأسف منذ قديم الزمان بأن يكون له غالبا «سره الخاص» الذي يجهد نفسه لتكتمه.. ويترقب خائفا انكشافه، ويتحسب لذلك كثيرا مع أن كل سر جاوز الاثنين شاع كما يقول الشاعر العربي ولأنه لا حد لتطلعات الإنسان إلى السعادة والمتعة ولا لرغباته وطموحاته إلى كل ما يحقق له الإرضاء الذاتي مهما كان مصادما للأعراف وقوانين الحياة فكثيرا ما تقوده خطواته إلى دخول كهف الأسرار الشخصية التي لا يسعد بان يعرفها عنه الآخرون، ويجهد النفس لطيها طي الكتمان وإبعاد العيون عنها، ولقد طبعنا على حب الحياة وطلب الحد الأقصى من المتع والأشياء واعتبار النفس «ذاتا» مميزة جديرة بأن تنال الحد الأكبر من السعادة دائما حتى ولو تعارض ذلك مع سعادة من يهمنا أمرهم أو حقوقهم علينا، كما طبعنا أيضا على ألا نتفكر طويلا في العواقب ونحن نستمتع بجمال البدايات وننهل من ينابيعها، وقليلا ما نعمل بالحكمة التشيكية القديمة التي تقول لنا إنه «خير لك ألا تبدأ.. من أن تبدأ ولا تعرف كيف تنتهي».

وكثيرا أيضا ما نعمل بما قاله أحد الحكماء متفاخرا: إن لي عقلا يخرجني من أية مشكلة، فنقترب من نهر المغامرة المحفوفة بالمخاطر، ونتوهم قدرة عقولنا على أن تجنبنا أشواكها وتبعاتها.. ولا نعمل للأسف غالبا بما أجابه به الحكيم الآخر مفحما: وإن لي لعقلا لا يوقعني أصلا في أية مشكلة!

ولأن الأمر كذلك في معظم الأحيان، فنحن نسعد دائما بالبدايات البهيجة ونتغافل عامدين عما تحمله من بذور المشاكل المستقبلية الأكيدة، ولا نبدأ في تدبر العواقب، ومواجهة التبعات، إلا بعد أن تكون تلك العواقب قد تجسدت أمام ناظرينا بالفعل في «شخوص» أو تبعات تمثل أمرا واقعا لا يمكن إخفاؤه ولا مفر من الاعتراف به والتعامل معه.. والتسليم بحقوقه علينا. كما هو الحال الآن مثلا مع طفلك من زوجتك الثانية الذي تتطلع أمه إلى أن يعرف أخوته، ويعرفه هؤلاء الأخوة.

ولقد تابعت حديثك في رسالتك عن « الحياة المزدوجة»، التي عشتها طوال خمسة عشر عاما ونلت خلالها «الحد الأقصى» من الأشياء فنهلت من نبع العطف والحب والحنان مع زوجتك الأولى وحظيت بالجو الأسري المستقر، والأبناء المحبين الذين يعشقون أباهم ويرون فيه مثلهم الأعلى في الحياة، وارتويت كذلك من نبع المتعة الإضافية وجود الإثارة العاطفية والأسرار الخاصة والتفاهم العقلي والتعاون العملي في الحياة مع زوجتك الثانية، حتى كدت وأنا اقرأ رسالتك أن أتصور أن «الفردوس» التي يجني فيها القلب كل أنواع المتع العاطفية والحسية بلا حساب، يمكن أن يتحقق في بعض الأحيان على الأرض وليس في السماء، إلى أن جاءت اللحظة التي لا مفر منها، وتكشف «الفردوس الأرضي» عن حقيقته التي تخفت عنك طويلا وتبين لك إنه لا يخلو من التبعات الجسام، والمشاكل المؤجلة التي لا مفر من مواجهتها ذات يوم، وسقطت أنت يا سيدى مريضا بعد طول إسراف في الجهد البدني والمعنوي على مدى 15 عاما أو تزيد وتجسدت

أمامك الحقيقة واضحة، وهي أنه لا متعة بغير تبعات ولا سعادة مضاعفة بغير ثمن واجب السداد..

وإنه حتى الإسراف في السعادة قد يرهق القلوب والأبدان فتئن تحت وطأة مثل هذه الحياة المزدوجة ولو كانت خالية من كل المنغصات ذات يوم، وإنه قد جاء أوان تدبر العواقب بعد أن كنا مشغولين عنها من قبل «بالثقة» الزائدة في يومنا والغد.

ولأن الأوان قد فات الآن للحساب عما مضى وأدى إلى ظهور هذه المشكلة المصيرية التي تواجهها الآن، فلسوف أركز حديثي معك على كيفية التعامل معها ومحاولة تحجيم خسائرها النفسية والإنسانية بالنسبة لك ولأسرتك الأولى، وفي ذلك فإني أقول لك يا سيدي إن مواجهة الحقيقة وتحمل تبعات هذه المواجهة بشجاعة ورجولة أفضل كثيرا من مواصلة الهروب منها وتأجيل لحظة المواجهة الفاصلة معها إلى ما لا نهاية، فمن يحيا حياته خائفا متوجسا من افتضاح أمره بالنسبة لزوجته وأبنائه، يعاني من القلق النفسي والتوتر العصبي ما قد يهون إلى جواره في كثير من الأحيان تحمل تبعات مواجهة الحقيقة، وإزاحة عبء الأسرار التي يخشى افتضاحها عن صدره وقلبه.

والحقيقة خير من أي زيف على أية حال، واستمرار الهروب منها لا يعني سوى تأجيل انفجار المشاكل ومضاعفة تبعاتها.

ولأستاذنا الكبير الأستاذ نجيب محفوظ كلمة بليغة في روايته الفلسفية «رحلة ابن فطومة» يقول فيها: خلقنا لنكابد الحقيقة ونصمد لها! و «المكابدة» من الناحية اللغوية هي مقاساة المرء لشدة الشيء وعنائه، ولأننا قد نهلنا من نبع الحب والمغامرة والإثارة بغير حساب، فمن العدل أن نرضي كذلك «بمكابدة» العواقب والصمود لها إلى أن نجتاز المحنة.. ونصحح الأخطاء.

ولهذا فليس هناك من مفر أمامك إلا أن تصارح زوجتك الأولى بسر حياتك المزدوجة هذه، وبثمرتها التي تتجسد في هذا الطفل الحائر الآن وأن تتحمل كل ما سوف يترتب على هذه المصارحة القاسية من آلام وعناء، ذلك أنه من حق زوجتك عليك أن تعرف «حقيقة» من تعاشره ومن سكنت إليه طوال هذه السنوات الماضية، وأن تقرر بعد ذلك لنفسها ما تشاء من اختيارات وفي الاعتراف بالأخطاء بعض ما يحقق لنا «التطهر» من إحساسنا الداخلي بالإثم لتكتمها عمن كانت تفرض علينا الأمانة ألا نخفي شيئا من أسرارنا أو أخطائنا الشخصية عنهم.

وفي صدق هذا الاعتراف «وشجاعته»، أيضا بعض ما قد يشفع لنا لديهم من أخطأنا في حقهم، في أن «يتفهموا» ولا أقول إن يتقبلوا أسباب تخوفنا طوال السنوات الماضية من مواجهتهم بخداعنا المؤلم لهم.

وليس من حقنا بعد ذلك أن نطلب ممن خدعناهم كل هذه السنين أن يتقبلوا الحقيقة بلا احتجاج.. وإن يمنحونا تأييدهم ومباركتهم لما فعلنا، وإنما من واجبنا أن نتقبل صابرين ثورتهم علينا، وأن نقدر لهم عمق صدمتهم في إخلاصنا ووفائنا لهم،

وأن نتحمل راضين كل ما يفرضه علينا الموقف من تبعات وترضيات وتضحيات، إلى أن تهدأ ثورة انفعالهم، وتستشفي نفوسهم ويتفكروا معنا في العواقب ويدركوا أنه لم يعد يجدي الآن الحساب على ما كان من أمرنا معهم.. ويدفعهم إحساسهم بالواجب العائلي والإنساني تجاه الأبناء، إلى التفكر معنا في كيفية تخفيف خسائر ما فعلنا من الناحية النفسية والعاطفية على هؤلاء الأبناء.

أما تحسبك لصدمة الأبناء في مثلهم الأعلى واهتزاز صورتك في مخيلتهم فإنني أشاركك الإحساس بوطأة هذه المخاوف عليك وأقول لك إنه لا مفر أمامنا بالرغم من ذلك من أن نتقبل تبعات أفعالنا وأن نرضى بها، ثم نأمل بعد ذلك في أن يتفهم الأبناء ذات يوم حقائق الحياة ويدركوا أن آباءهم في النهاية بشر كالبشر لهم ضعفهم وقوتهم وإيجابياتهم وسلبياتهم، وأن الحب الصادق الذي يجمع بين الطرفين لا بد له أن يعلو فوق الأخطاء والتحفظات مهما كانت مصادمة للمشاعر ومخالفة لكل ما تصوروه من قبل في آبائهم، ولا مهرب لنا من أن نتقبل أيضا راضين وصابرين صدمة هؤلاء الأبناء واهتزاز مثلهم العليا فينا، مادمنا قد اخترنا لأنفسنا أن نكون بشرا كالبشر لا آباء مثاليين يترفعون من أجلهم عن كل ما يسيء إليهم أو يجرح مشاعرهم.. أو يسبون به، كما كانوا يعتقدون فينا من قبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأذن الصماء!

أنا موظفة بإحدى الجامعات وزوجي كذلك، ونحن الإثنان من هؤلاء الآباء والأمهات الذين ينزفون الدم لكي يوفروا لأبنائهم أفضل حياة ممكنة، برغم مرضي واحتياجي لإجراء جراحة كبيرة في القلب يؤجل الجراح إجراءها حتى تستقر حالة الكبد، أولا.

ولقد قرأت رسالة (التعليقات الجارحة)، للأم المنكوبة التي روت أنها قد تركت الحبل على الغارب لابنتها الصغرى، وتركتها تخرج كما تشاء وترتدي الملابس القصيرة، وتضع الماكياج بدعوى أنها صغيرة ومدللة، فكانت النتيجة وبالا عليها، وتعجبت حين قرأت هذه الرسالة لأنني لم أترك لابنتي الحبل على الغارب، وإنما أحكمت الرقابة عليها حتى كنت أجلس على الرصيف أمام بيت المدرسة حتى تنتهي من الدرس الخصوصي، لكيلا يشاغلها أحد ويصرفها عن اهتمامها بدروسها، ولاحقتها طوال العام الدراسي من مكان إلى مكان حتى حصلت على المجموع الكبير والتحقت بإحدى كليات القمة، ورغم ذلك كله فإنني لم أستطع السيطرة عليها، وتحولت علاقتها بي وبوالدها إلى جحيم إلى الحد الذي يخيل إلى معه في بعض الأحيان أنها تتمنى لنا الموت.. وإلى حد أنني أشعر بتعاطف كل من حولي مع مرضي ما عداها هي.. وكلما أجل الجراح الكبير إجراء العملية لي، شعرت وكان لسان حالها يقول لي: اجري هذه العملية وخلصينا!

ولماذا كل ذلك يا سيدي، لأنها تعرفت على جار لنا حاصل على مؤهل متوسط ولا يرتدي إلا الجلباب و «الشبشب» ومع ذلك فقد **تعلقت به تعلقا جنونيا، وراح هو من منطلق عقده يلاحقها، وهي في الثانوية العامة من مكان إلى مكان ليشغلها عن دراستها حتى لا تتفوق عليه وتلتحق بالجامعة، فقمت معه بلعبة القط والفار، ولاحقتها كذلك في كل مكان تذهب إليه، وتجاهلت كل حيله ومناوراته حتى نجحت ابنتي والتحقت بالجامعة، وبعد التحاقها بها صارحناها بأنه لا يليق بها أن تنشغل بشاب حاصل على مؤهل متوسط وأقل منها في المستوى المادي والاجتماعي، فضلا عن حكاية الجلباب و «الشبشب» اللذين لا يرتدي سواهما دائما، فإذا بابنتي تنقل إليه هذا الكلام بالحرف الواحد، فتتخذ علاقته بنا شكل العناد والعداء ويصرح في كل مكان بأننا سوف نرى ما يستطيع ذو الجلباب و «الشبشب» و أن يفعله! وتراهن مع أصدقائه من منطلق ضلالات الإحساس بالعظمة على أنه يعرف فتاة جامعية وأنها تحبه، وسوف يظفر بها رغم إرادة أبويها، بل وسوف يضيع عليها فرصة دخول امتحان آخر العام وهي في السنة الثانية بكليتها، انتقاما منا، وانتشر الخبر في المدينة التي نقيم بها وهي من المدن الجديدة، ويعرف معظم سكانها بعضهم بعضا.. فما كان مني إلا أن تفرغت لابنتي هذه تماما ورحت اصطحبها من يدها في الصباح إلى لجنة الامتحان ولا أدعها حتى تدخله، ثم أجلس أمام اللجنة ثلاث ساعات في الشمس الحارقة إلى أن تنتهي منه و أرجع بها إلى البيت، فكادت في إحدى المرات أن تترك امتحان مادة من موادها وتخرج لمقابلته لولا أن عرفت أنني أجلس أمام باب اللجنة!**

إنني أكاد أجن مما يحدث يا سيدى واحترت واحتار دليلي مع هذه الابنة، وأخيرا فلقد لجأنا إلى مواجهة هذا الشاب على أساس أن مواجهة المشكلة أفضل من تجاهلها ودعوناه لمقابلتنا، وسألناه امام شقيقه الأكبر عما يريد منها ومنا.. فإذا به يجيبنا بأنه هو الذي يريد أن يعرف ماذا نريد نحن. منه.. ويقول لنا إنه لم يات لطلب يدها – كما نظن - بل ليعرف ماذا نريد منه بهذه التصرفات؟ وأكد ذلك شقيقه أيضا الذي قال إنه لا يملك مليما للزواج وأنه سوف يؤدى الخدمة العسكرية بعد أيام وأن والده ليس مقتنعا بهذه العلاقة، ويراها لعبا من ألعاب الأطفال.

وصارحنا ابنتنا بما قال هذا الشاب وشقيقه، ولكن هيهات أن تصدقنا نحن وتكذبه، فلقد قال لها إنه قد جاءنا طالبا يدها وأننا رفضناه، فكيف تصدقنا نحن وتكذبه؟

لقد ثار والدها بعد أن فاض به الكيل في النهاية منها وخيرها بين شيئين، إما استمرار دراستها بالجامعة وإما هذا الشاب! فإذا بها تختاره يا سيدي وسط دهشتنا وذهولنا وغيظنا الشديد، وتضحي بدراستها الجامعية من أجله.

وفي لحظة يأس قاتل وغضب شديد، قمت بتقديم طلب إلى الجامعة لسحب ملفها منها وإلغاء قيدها بها، ورجعت إليها بالخبر وأنا أتوقع أن تهتز لذلك أو تحزن له، فإذا بها تستقبله ببرود شديد وكأن الأمر لا يعنيها في شيء! وأنا ووالدها وكل أفراد أسرتنا نحترق غضبا وغيظا وحزنا!

لقد تحدثنا إليها كلنا من جديد وأوضحنا لها خطورة ما تقدم عليه من اختيار.. وأكدنا لها أنها إذا اختارت هذا الشاب فلسوف تخرج من بيتنا بالفستان الذي ترتديه فقط، وسوف يقاطعها كل أفراد الأسرة، مع افتراض جدية هذا الشاب في الارتباط بها، في حين أنه لن يقدر على توفير حجرة واحدة لها قبل عشر سنوات.. فأعطتنا الأذن الصماء والعقل المقفول، وأصرت على رأيها حتى أعجزتني الحيلة ورقدت في فراشي مريضة من الحزن والهم والكمد.. ثم جاءنا شقيق هذا الشاب يعاتبنا على سحب ملف ابنتي من كليتها مما يضيع مستقبلها، ويتساءل: لماذا لا نفترض أن ما حدث كان لعبة من شقيقه للانتقام منا لما قلناه في حقه؟ ولم أحر جوابا ولم أعد أعرف ماذا استطيع أن أفعل أو اختار.. وحالتي الصحية لن تسمح لي بمواصلة مراقبتها ليل نهار والجري وراءها إلى المحاضرات والعودة بها منها لكيلا يتصل بها هذا الشاب، وأخشى أنني لو سمحت لها بمواصلة تعليمها أن تترك محاضراتها وتخرج لمقابلة هذا الشاب.. ومن يدري فقد يضحك عليها بمعسول الكلام ويغريها بأي تصرف خطير مما نسمعه هذه الأيام، وهي التي لو تكلمت أنت معها لقلت كما يقول كل من يتحدث إليها بشأن هذا الشاب إنها كالمسحورة أو كالخاضعة لسحر أسود لا نعرف سره!

إنني أرجوك الاهتمام برسالتي هذه لأنها من قارئاتك.. كما أرجو أن تشير علي بما أفعل معها: هل أدعها تواصل تعليمها بالكلية مع ما في ذلك من احتمالات مخيفة بالنسبة لعلاقتها بهذا الشاب؟.. أم هل أواصل حرمانها من الدراسة وأدعها تبكي على مستقبلها دما كما أبكتنا أنا ووالدها الليالي الطويلة بسبب عنادها وتمسكها بهذا الشاب!

∞∞∞∞∞∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

إذا عجزنا عن أن نقنع أبناءنا بما نراه نحن في صالحهم، واستنفدنا كل الحيل معهم، فليس من الرحمة أن نتمادى في الغضب منهم إلى حد أن نمسسهم بغير أن نريد في مضاعفة خسائرهم وتضييق فرص الحياة والسعادة عليهم. ذلك أننا لم نختلف معهم في الأصل إلا حرصا عليهم حين رأيناهم يسيرون كالمنومين إلى بحر هائج الموج، ورأينا نحن ببصيرتنا أنه يهددهم بخطر الغرق، ورأوا هم بغشية الحب وحده، أنه يعدهم بنزهة سعيدة طوال العمر..

فإذا فشلنا بعد ذلك في الحيلولة بينهم وبين السير قدما إلى المياه العميقة، فماذا نستطيع أن نفعل يا سيدتى سوى أن نلقي إليهم في اللحظة الأخيرة بطوق للنجاة ليعينهم على مغالبة الأمواج حتى ولو كنا مازلنا على غضبنا منهم؟

إننا لا نملك خيارا آخر سوى ذلك يا سيدتي.. ولا لوم علينا فيما فعلنا لتبصيرهم بالعواقب والأخطار التي يصرون على مواجهتها، ولا لوم علينا أيضا حين نزودهم في النهاية بما يعينهم على أمرهم ونحن نرقبهم بإشفاق وهم يخوضون تجربتهم ضد إرادتنا، ونتمنى لهم أن تتحقق ظنونهم في السعادة الموعودة.. وتخيب ظنوننا نحن فيما توقعناه لهم من تعاسة!

إن هذا هو خيار الآباء والأمهات الوحيد في مثل هذه الحالة يا سيدتي ولا خيار سواه، مادام الأبناء قد أصموا آذانهم عن النصيحة.. وأغلقوا عقولهم دون صوت الحكمة والحرص عليهم.

وعلى ضوء ذلك فلست أرى لك أن تحرمي ابنتك من طوق النجاة الوحيد الذي قد يخفف من معاناتها في المستقبل إذا تبدد الحب، وهو شهادتها الجامعية.. ولا مفر أمامك من أن تسمحي لها بمواصلة دراستها الجامعية حتى ولو لم تعنك صحتك على متابعتها خلال الدراسة، رغم تسليمي بأهمية هواجسك، ومخاوفك بشأنها حين ترجع للجامعة، ذلك إنك إنما تتحسبين في النهاية لضرر محتمل الوقوع وليس مؤكدا، في حين أن حرمانها من مواصلة تعليمها يمثل ضرر مؤكد الوقوع على مستقبلها وفرصها لمواجهة الحياة وليس محتملا، وإذا كان علينا أن نختار بين ضررين أحدهما محتمل والآخر مؤكد، فالأولى بنا أن نبدأ بدرء الضرر المؤكد، ثم نبذل بعد ذلك غاية جهدنا لحمايتهم من الضرر المحتمل.

بل إنه في مثل ظروف ابنتك هذه فإنك تستطيعين، تطويع هذا الضرر المحتمل نفسه لكي يكون في النهاية في صالحها، وليس ضدها ذلك بأن تتوصلي معها إلى أرضية مشتركة، وتسلمي لها بحقها في اختيار ما تراه سعادتها حتى ولو لم تكوني أنت ووالدها راضيين عنه، مقابل حصولها على شهادتها الجامعية بتفوق يرشحها للفوز بفرصة عمل في كليتها، ويفتح أمامها أبواب المستقبل، فإذا كان ما تتصوره من حبها لهذا الشاب حبا حقيقيا، وبانيا للشخصية وليس هادما لها ويستمد جذوته غالبا من ظروف المعارضة والمقاومة المحيطة به، فليدفعها إذن

هذا الحب إلى التفوق لكي تكون قادرة على إعانة نفسها على أمرها وخوض تجربتها مع فتاها بمقومات أكبر للنجاح في الحياة. وإن لم يكن كذلك فلسوف يتصدع بنيانه ببطء خلال سنوات الدراسة الباقية.

وتكتشف هي أنه ليست هناك لغة مشتركة بينها وبين فتاها، وأن شخصيتها قد ازدادت نضجا وفهما، وتبدت لها من الحقائق والظروف ما لم يسمح لها الحب الذي يصم الآذان ويعمي الأبصار في بعض الأحيان، بأن تتبصرها وتعى خطورتها في الوقت المناسب.

ومن الحكمة أن يعرف الإنسان متى يسلم بالفشل ويكف عن محاولة بلوغ ما يستحيل عليه بلوغه من أهداف، ليتحول عنها إلى أهداف أخرى أقرب منالا.

فإذا كنتم قد عجزتم عن إثناء ابنتكم عن التحول عن هذا الشاب الذي ترونه لا يليق بها ولا يقدر على الارتباط بها قبل سنوات طويلة، فلتتحولوا إذن عن هذا الهدف المستحيل حاليا إلى هدف مساعدة ابنتكم على مواجهة الحياة بشهادة جامعية تزيد من قدرتها على مغالبة أقدارها.. ولنفعل في بعض الأحيان ما فعله الاسكندر الأكبر وهو فتى صفير حين رأى قواد أبيه العظام يحاولون ركوب حصان بري جامح فيفشلون جميعا، فتقدم من أبيه معلنا قدرته على ركوبه ويضحك الأب الملك والقواد الكبار من طموح هذا الحدث الصغير لأن ينجح فيما فشل فيه فرسان كبار ثم يأذن له أبوه بالمحاولة، فيقترب من الحصان برفق ويربت على عنقه للحظات في عطف، ثم يديره ببطء إلى الاتجاه العكسي، ويعتليه في هدوء فيسلم له الجواد قياده بلا عناء ويتبختر به الاسكندر بعض الوقت أمام أبيه وقواده ثم يترجل عنه، وحين يسأله أبوه كيف صنع ذلك يقول له ببساطة: أدرت الحصان إلى الاتجاه الآخر لأن أشعة الشمس كانت في عينيه وتستثيره فيهيج كلما امتطاه أحد، فلما استدار حجبت عنه الشمس فهدأ واستسلم للركوب!

و «الشمس» الآن في عيني ابنتك يا سيدتي تهيجها وتزيدها إصرارا على التمسك بهذا الفتى الذي لا ترى من الدنيا حاليا سواه.. وكل محاولة للحيلولة بينها وبينه قد لا تزيدها إلا إصرارا وعنادا، فأديرى عنقها إلى ناحية الدراسة والحصول على الشهادة الجامعية مع وعد صادق منكم بعدم معارضة ارتباطها بهذا الشاب، إذا كان جادا وأمينا في علاقته بها.. وإذا نجح حقا في التغلب على التحديات التي تحول بينه وبين الارتباط بها..

وتجربة الأيام بينكم وبينها بل وبينها.. وبينه أيضا.. ولسنا نملك في هذه الظروف سوى أن نقول مع الشاعر العربي:

وستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فهوني عليك يا سيدتي ولا تستسلمي للتشاؤم بشأن المستقبل ولا تزيدي من حدة الخلاف بينك وبين ابنتك حول هذا الشاب لكيلا تنقطع بينكما الأوتار، وتمضي هي في طريق الجفاء والشقاق إلى أقصاه.

ودعيها لتجربة الأيام تعلمها ما لم تكن تعلم، واشترطي عليها لقبول هذا الارتباط، ألا يتم إلا بعد الحصول على شهادتها الجامعية، وبعد أن يكون هذا الشاب قد وضع أقدامه على بداية الطريق مع استمرار متابعتك لها.. وبشرط ألا تتعدي علاقتها به الحدود المرعية.. وباعتبارهما خطيبين تأجل أعلان خطبتهما إلى الوقت المناسب، وليثبت هو بعد ذلك جدارته بحبها والارتباط بها بالكفاح الجاد في الحياة للفوز بها، وبالارتقاء بمستوى تفكيره وحياته ومظهره، وليس بالعناد الأحمق.. أو «الرهان» السخيف مع الغير حول فتاته، ولا بالعداء السافر لأسرتها، فمن يحب حقا يحرص على من يحب وعلى ذويه حتى ولو كانوا لا يبادلونه هذا الحرص.

ويرفع من شأن نفسه اعتزازا بمن يحب وطلبا للأفضل له، وحين يفعل ذلك.. وينجح في إسعاد من ارتبط بها وتخلو نفسه من كل الشوائب وشبهات العناد، والعداء للأهل الذين رفضوه في البداية، فلسوف يكون هؤلاء الأهل أنفسهم هم أول من يعتزون به ويتنازلون عن كل تحفظاتهم السابقة عليه.. لأنهم لم يرفضوه في البداية إلا تشككا في قدرته على إسعاد ابنتهم.. فإذا أسعدها.. ورعاها.. وحماها.. وأحسن عشرتها.. فماذا يبقيهم على عدائهم له وهو الجدير في هذه الحالة بقبولهم وحبهم واحترامهم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذئاب الغابة!

أنا فتاة جامعية نشأت في أسرة صغيرة العدد ولمست منذ طفولتي قسوة أبي في التعامل مع أمي وإهاناته لها واعتداءاته المتكررة عليها بالضرب، فتهيبته منذ نعومة أظافري وتعمق الإحساس في نفسي بالخوف منه، وبالرغم من ذلك فلقد كنت أستشعر الأمان في وجوده بالبيت، وأشعر بالخوف الشديد حين تضطره ظروف عمله للسفر بضعة أيام بعيدا عنا، ثم تقدمت في العمر بعض الشيء وفهمت أشياء كثيرة لم أكن أفهمها من قبل وروت لي أمي أشياء غريبة وعجيبة عنه كمغامراته النسائية وعلاقاته المتعددة فتشكل وعيي بالحياة على أساس أنها غابة مخيفة يفرض فيها الأقوى جبروته على الأضعف، وأن كل رجل فيها هو ذئب بشري يسعى لأن يفتك ويدمر وينهش الأعراض وإن كل نظرة من الرجل إلى المرأة ليست سوى نظرة ذئب يتحين الفرصة المناسبة للانقضاض عليها، وأن الحياة الزوجية ليست كما في الروايات حياة سعيدة وإنما حياة الغدر والقسوة والمعاناة والإهانة وأن الرجل يأسر زوجته في سجنه ليذيقها العذاب والهوان ويحرمها من إنسانيتها ولا يعاملها بما أمر الله أن يعاملها به، وهذه هي صورة الحياة الزوجية التي شهدتها بين أمي وأبي، وكانت النتيجة أن أصبت بعقدة شديدة من الرجال بصفة عامة وأصبحت أخشى أن أتحدث إلى أي رجل في أي مكان ولو كان مدرسا من أساتذتي أو زميلا لي كما أصبحت أخشى أيضا أن أركب الأتوبيس أو سيارة أجرة إلا إذا اطمأننت لوجود سيدة أخرى أو فتاة بها.

ثم بدأت دراستي الجامعية واضطررت للتعامل مع زملاء الدراسة فتعاملت معهم في البداية بحذر شديد وارتياب أشد في كل حركاتهم ولفتاتهم وكلماتهم ثم تعرفت بأحد الزملاء واقترب مني واقتربت منه ببطء كبير فوجدته مختلفا عن الصورة القاتمة التي تخيلتها في ذهني للرجال، ووجدته إنسانا جادا في معاملاته ومحترما ومتدينا ويرعى حقوق ربه بالتزام تام فبدأت أنس إليه تدريجيا وأتخلص من بعض شكوكي في الجنس الذي ينتمي إليه ثم تطورت علاقتنا وتعمقت أكثر فتتقدم لخطبتي ورحب به أبواي وتمت الخطبة بسلام والحمد لله لكن المشكلة الآن يا سيدى هي أنني أحبه كثيرا وأحترمه أكثر كخطيب

لكنني من ناحية أخرى أهابه أيضا كثيرا كزوج ولا أتخيل أن أكرر معه مأساة أمي مع أبي ولقد أحببته لأنه استطاع أن يفهمني جيدا ويحتويني بحنانه وحبه، لكنني حين أفكر فيه كرجل أو كزوج بمعنى أصح أجدني أخشاه وأهابه وأشعر بجسمي كله يرتجف لمجرد التفكير فيه كرجل ولهذا فأنا أريد لنفسي وضعا قد تراه غريبا لكني أراه الوضع الأفضل بالنسبة لي رغم علمي باستحالته وهو أن أظل مخطوبة إليه للأبد، وألا أصبح زوجة له في أي يوم من الأيام، فماذا أفعل لكي أستطيع التخلص من هذه العقدة وما هو الحل السليم الذي تنصحني به وماذا تقول لي ولأبي ولأمي لكيلا تصاب فتاة أخرى في مثل سني بما أعاني منه الآن؟

∞∞∞∞∞∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

نشرت رسالتك لأنها تعكس حالة نفسية شائعة بين بعض أبناء الأسر التي تعاني من الخلافات الزوجية المتكررة، ويشهد أبناؤها عن قرب صدامات الأبوين العلنية أو يشاركون فيها، وهي حالة أتلقى رسائل كثيرة ممن يعانونها وخاصة من الفتيات ويكون الأثر السلبي لها عليهن دائما هو خوف الفتاة من جنس الرجال أو من الزواج بصفة عامة وتوهمها أنها سوف تلقى في زواجها المقبل مثلما لقيته أمها من شقاء وإذلال في زواجها من أبيها، واستقرار الخوف المرضي من رمز الرجل في العقل الباطن للفتاة وارتباط هذا الرمز لديها بالقسوة والعدوان على المرأة وهو إحدى هذه الثمار الفاسدة لشهود الأطفال خلافات الأبوين الحادة واستخدام العنف الجسدي خلالها.

أما انعكاس هذه الخلافات العنيفة على شخصية الابن ورؤيته للحياة فقد لا يتمثل في الخوف من الحياة الزوجية وتوقع الشقاء والمعاناة فيها، كما يحدث مع الفتاة، لكنه ينعكس عليه في اكتساب مفاهيم خاطئة للعلاقة بين الزوجين، وفي آثار أخرى نفسية وعضوية سيجيء أوان الحديث عنها بعد قليل، ولهذا فلقد قلنا مرارا أن أقدر الأبناء على التعامل التصحيح مع الحياة هم الذين ينشأون في بيئة عائلية صالحة لم تضطرب بالخلافات العنيفة المتكررة بين الأبوين، ولم يحاول أحد الأبوين أن يشركهم معه في همه بشريك حياته أو أن «يروي» له عنه ما يؤثر على ما يمثله له الأب أو الأم من رموز الفضيلة والقيم والأمان.

فإذا كان الأب الحريص على سلامة التكوين النفسي لأبنائه هو الأب الذي لا يشعرهم بقسوته على أمهم وهي رمز العطف والحنان في مخيلتهم ناهيك عن عدم عدوانه عليها بالضرب أمامهم أو من خلفهم!

فإن الأم الرؤوم حقا بالمقابل هي التي لا تشرك أبناءها معها في مأساتها مع زوجها ولا تسمح لهم بشهود خلافاتها الحادة معه، ولا تسمح لنفسها بان «تروي» لهم عن أبيهم ما ينقص من اعتباره لديهم أو يتعارض مع ما ينبغي لهم أن يحملوه له من حب واحترام كاملين حتى ولو كانت أشقى النساء به، ليس فقط حرصا على الصحة النفسية لهؤلاء الأبناء، وإنما أيضا لكيلا تذهب تضحيتها من أجل هؤلاء الأبناء أنفسهم هباء لامعنى له فلقد اختارت مثل هذه الزوجة التي تشقى بزوجها وخياناته وإهاناته لها وعدوانه عليه، ألا تحطم حياتها العائلية طلبا لمصلحة الأبناء، ولكي تجنبهم أضرار انفصال الأبوين النفسية والاجتماعية فكيف يستقيم إذن أن تختار التضحية بسعادتها الشخصية من أجل أبنائها ثم تفسد على نفسها هذه التضحية بإشراك هؤلاء الأبناء أنفسهم معها في همها بزوجها وشكواها الدائمة منه وتقوم بتشويه صورته في مخيلتهم فتشوه معها من حيث لا تدري الكثير والكثير من قيمهم ومثلهم العليا. والمحصلة في كلا الحالين واحدة وهي تقديم أبناء إلى الحياة برؤية خاطئة لها واستعداد نفسي أقل للتواصل معها وعجز أكبر عن تحقيق السعادة لأنفسهم بعد أن فقدوا الكثير من سلامهم النفسي

في البداية وتشكلت لديهم بعض المفاهيم الخاطئة واكتسبوا بعض السمات النفسية السلبية التي تعوق تعاملهم الصحيح مع الحياة.

ولقد ظللنا لسنوات طويلة نحذر من الآثار النفسية الضارة لنشأة الأطفال في بيئة عائلية ممزقة بالخلافات الصاخبة العلنية، والاصطدامات العنيفة بين الأبوين، وكان حديثنا يقتصر دائما على هذه الآثار النفسية وبعض انعكاساتها العضوية كانتشار حالة التبول اللاإرادي لدى بعض أبناء الأسر الممزقة بالخلافات، لكن العلماء قد خرجوا علينا مؤخرا بدراسة طبية خطيرة تؤكد أن تعرض الأطفال للضغط العصبي الشديد بسبب النزاعات العائلية المتكررة لا يقتصر أثره فقط على الجوانب النفسية وإنما يمتد أيضا إلى التأثير الضار على نمو أجسامهم وذاكرتهم وقدرتهم على التعلم.

ذلك أن ما يتعرضون له من توترات نفسية شديدة بسبب المنازعات المتكررة بين الأبوين يؤدي أيضا لانخفاض ملحوظ في إفراز هرمون النمو في الجسم لأن هذا الهرمون يتم إفرازه خلال النوم العميق، والأطفال المتوترون في مثل هذه الحالة يضطرب نومهم كثيرا فيقل إفرازه لديهم، كما أن هذا التوتر أيضا يؤدي لزيادة إفراز هرمون الضغط العصبي الذي يضر ببعض أجزاء المخ ذات الدور الرئيسي في نمو ذاكرة الطفل وقدرته على التعلم، وليس ذلك فقط وإنما يؤدي تعرض هؤلاء الأطفال للتوتر الشديد أيضا إلى ضعف جهاز المناعة بالجسم ويزيد من مراحل احتمال إصابتهم بالأمراض التي تنتقل إليهم عن طريق العدوى، فماذا يمكن أن نقول للآباء والأمهات الذين لا يتخفون بمنازعاتهم عن أطفالهم - إذا كان ثمة ضرورة لهذه المنازعات - أكثر من ذلك؟

وماذا نستطيع أن نقول لهم سوى أنهم بأنانيتهم الشديدة حين لا يتخفون بهذه المنازعات عن أبنائهم أو يشركونهم معهم فيها بما يرويه كل طرف لأبنائه عن الآخر لا يقدمون للحياة سوى أبناء أقل قدرة من غيرهم على التواصل مع الحياة وتحقيق السعادة لأنفسهم فيها، بل وأيضا أبناء أقل نموا من الناحية الجسمانية من غيرهم وأضعف ذاكرة وأقل استعدادا للتفوق الدراسي وأكثر عرضة للإصابة بعدوى المرض؟

وأي شيء في الحياة يستحق من الإنسان الرشيد أن يضحي بصحة أبنائه وسلامهم النفسي وفرصهم المشروعة في السعادة والنجاح في الحياة من أجله؟

لقد دفعت ثمنا غاليا – يا آنستي - لقسوة أبيك على أمك ولخطأ أمك بإشراك لها في همها بزوجها وروايتها لك عن خياناته وعلاقاته النسائية.

لكن كثيرين أيضا من أبناء هذه الأسر الممزقة بالخلافات العائلية قد حمتهم فطرتهم السليمة وعقولهم الرشيدة وقدرتهم على التفكير النقدي الذي يعين الإنسان على التمييز بين الخطأ والصواب، على النجاة بأنفسهم من كثير من الآثار النفسية الضارة لجناية» مثل هذين الأبوين على أبنائهم والتجربة برهان العقل كما يقولون يا صديقتي فلا تعممي تجربة أبويك الخاطئة على كل العلاقات الزوجية أو الإنسانية، ولا تقعي دائما في خطأ التعميم الذي يضل العقل لأنه ليس

كل الرجال أشباها لأبيك وليست كل النساء ضحايا مغلوبات على أمرهن كأمك، فتخلصي من المفاهيم الخاطئة التي اكتسبتها من حياتك العائلية وتوسمي الخير في الآخرين إلى أن يثبت لك العكس، وشاركي في مباراة الحياة» بخيرها وعنائها ولا تكتفي بموقف المتفرج السلبي على أحداثها فنحن ومهما تخوفنا من أخطار الطريق لا مفر لنا من أن نعبره كما يفعل الآخرون، وأن نأمل في الوصول سالمين إلى الجانب الآخر.

وليس هناك من ضمان للسعادة في الحياة الزوجية أبلغ من أن نعتصم بهدى ديننا وبالقيم الأخلاقية والعدل الإنساني في التعامل مع شركاء الحياة ومع الجميع، فاظفري بذي الدين والقيم الأخلاقية والصحيحة ولا تخشى شيئا فهو كما قال لنا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه إذا أحب زوجته أكرمها وإذا كرهها لم يظلمها وهي نفس القاعدة الذهبية التي ينبغي أن تكون دستورا أخلاقيا ودينيا أكل زوجية في تعاملها مع زوجها والتي لو التزم بها الجميع لخلت الحياة من الكثير من مآسيها وعنائها مع تمنياتي لك بالسعادة والأمان في حياتك الزوجية المقبلة بإذن الله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهرم المقلوب!

مؤكد أن مشكلتي لم يعرض عليك مثلها من قبل لأنها نظرية جديدة من نوعها لوضع مقلوب حتى أنني وأنا صاحبة المشكلة لا أستسيغها حتى الآن ولو سمعت بها من أحد لما صدقتها.. فأنا سيدة شابة اقتربت من الثلاثين من عمري جميلة كما يقولون وعلى درجة عالية من التعليم والثقافة وحاصلة على الماجستير في أحد التخصصات النظرية المهمة ومتزوجة من شاب وسيم عمره 35 عاما يعمل عملا مرموقا بهيئة استثمارية مصرية - أجنبية وممتاز خلقا وعلما، ولدينا طفلان صغيران ودخلي من وظيفتي كبير ودخله من عمله أكبر ونحن نعيش حياة ميسورة لا نحتاج فيها لشيء.. وفي منتهى السعادة منذ تزوجنا قبل سبع سنوات، ومنذ حوالي السنة بدأت ألاحظ على زوجي تغيرا غريبا يبدو معه دائما شاردا وواجما وذاهلا عنا وسألته عن أسباب تغيره مرارا وتكرارا دون أن أظفر منه بإجابة شافية، وشعرت بإحساس الزوجة بأن في الأمر شيئا كبيرا يتناقض مع شخصيته كزوج مثالي منذ أن عرفته، فضغطت عليه ذات ليلة ورحت استجوبه طوال الليل لأعرف ما يخفيه عني فإذا به يحكى لي أنه «يحب»، امرأة أخرى ويريد أن يتزوجها وبلغ تأثره قمته فانسابت دموعه بغزارة ودفن وجهه في صدري وراح ينهنه بالبكاء كالطفل الصغير! ونزل علي الخبر كالصاعقة واحترت بين صدمتي فيه كزوجة وامرأة وبين إشفاقي عليه مما أراه منه من ارتجاف وبكاء ودموع كالمطر!

وقررت في تلك اللحظة أن أنحي القلب جانبا لفترة مؤقتة وأن استخدم العقل معه لكي أعرف أبعاد هذه الكارثة غير المتوقعة وسألته عن هذه المرأة الأخرى وهل هي آنسة أم مطلقة، فإذا به يضاعف من دهشتي وذهولي بقوله لي إنها أرملة توفى عنها زوجها منذ خمس سنوات، وأن المشكلة التي يواجهها هي أنها ترفض الزواج منه!

ووجدتني أرفع رأسه بعيدا عني بعنف وأصرخ فيه كيف يجرؤ على أن يقول لي ذلك، وماذا يجد في هذه المرأة ولا يجده لدي وهل هي جميلة إلى هذا الحد الذي يفقد معه عقله ويبكى ويولول من أجلها كالصغار، فإذا به يجيبني بأنه يحبها «بجنون» ولا يستطيع الاستغناء عنها.. ويحبني أيضا «بجنون» ولا يستطيع الابتعاد عني، وأن بعده عن أدانا لن يمثل له سوى الموت.

ثم ينتحب ويولول ويضرب رأسه بالحائط حتى أشفقت عليه من أن يؤذي نفسه وأمسكت برأسه لأمنعه مما يفعل وأنا في أعماقي أتمنى أن أكسرها.

وربت على كتفه وحاولت أن أتماسك بقدر المستطاع وسألته عن عمرها فإذا به يجيبني بأنها في الخمسين من العمر!

ولم أستطع الاحتمال أكثر من ذلك امرأة في الخمسين من العمر؟ وتحب رجلا في الخامسة والثلاثين ويحبها حتى يبكي من حبها كالأطفال ويعرض عليها الزواج

فترفضه رغم أنه متزوج وله طفلان؟!

ماذا جرى في الدنيا وماذا جرى لعقول بعض الرجال والنساء يا سيدى؟

لقد قررت أن أرى غريمتي لأعرف ماذا بها مما لا يتوافر في حتى سلبت زوجي عقله ورشده إلى هذا الحد، وذهبت إلى تلك الهيئة الاستثمارية التي تعمل بها هذه السيدة مديرة لإحدى إداراتها ورأيتها بدون أن أكلمها أو أتحدث معها فرأيت أمامي امرأة ناضجة بها مسحة من جمال قديم أنيقة للغاية وشخصيتها قوية وصارمة ولا تفارق الابتسامة شفتيها.. وسمعت صوتها فوجدتها تصطنع الأنوثة الحارة الجذابة. وخرجت من الهيئة والدموع هذه المرة في عيني أنا وأشعر شعورا قويا بأن هذه المرأة سوف تدمر بيتي وتستولي على زوجي.

هذه هي مشكلتي يا سيدي.. ولقد جرت العادة وحكم الطبيعة أن يكون الرجل أكبر من المرأة، أما أن تكون المرأة أكبر من الرجل بخمسة عشر عاما وتتأبى عليه وتتدلل فمبلغ علمي في ذلك أنه ليس سوى أسلوب جديد «للسحب» والجرجرة النسائية، ولقد وقع زوجي في الفخ وأطبقت عليه شباكه، وليس أمامي الآن سوى طريقين لا ثالث لهما، الأول هو أن الفظ هذا الزوج الضعيف التافه وأعيش لأربي الطفلين وحدي معتمدة في ذلك على نفسي، مع ملاحظة أن زوجي هذا لا يعاني من أي مشاكل أو أسباب تدعوه أو تبرر له الوقوع في هذه الكارثة لا من ناحية أسرته الصغيرة وهي زوجته وطفلاه، ولا من ناحية تنشئته الأسرية حيث نشأ في بيئة صالحة وتربى تربية دينية مثالية وأبواه يعرفان ربهما جيدا ولم يكونا يفرقان بين الأبناء في تعاملهما معهم، وقد دمعت عينا والدته حين شكوت لها مما أعانيه ورجتني ألا أتخلى عنه وأن أساعده حتى يجتاز هذه المحنة بسلام، ولقد حرصت على أن أذكر لك ذلك لكيلا تعتقد أن زوجي هذا يعاني من «عقدة أوديب»، وأنه لهذا السبب قد اتجه بمشاعره إلى سيدة تكبره كثيرا في السن.

والطريق الثاني هو أن أقبل بما يفعله زوجي وأسلم بالواقع المرير وهو أنه يحب تلك المرأة بجنون كما يدعي ثم إمعانا في الحفاظ على بيتي فقد يصبح من «واجبي» أنا أن أذهب إلى تلك المرأة وانحني على يديها وقدميها باكية ومتوسلة إليها أن تتزوج زوجي، لكي يهدأ ويستريح ويستعيد نفسه، فبماذا تنصحني أن أفعل يا سيدي وهل ترى أن هناك حلا آخر؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لا يتمثل «الوضع المقلوب» فقط في أن يقع شاب في الخامسة والثلاثين من عمره في هوى امرأة في الخمسين من عمرها فيبكي وينتحب ويضرب رأسه في الحائط من وطأة حبها ورفضها للاقتران به، ولا فقط في أن يقدم على ذلك وهو زوج لشابة جميلة لا ينكر عليها شيئا وأب لطفلين بريئين ورب الأسرة صغيرة سعيدة، وإنما أيضا وهو الأغرب من كل ذلك في أن يفجر هذا الزوج الشاب المشكلة

ويعترف بها لزوجته وهو يبكي وينتحب ثم يكتفي بذلك وكأنما قد أزاح عن صدره حجرا ثقيلا ثم لا يفعل بعد ذلك شيئا إيجابيا لحل هذه المشكلة وإنقاذ نفسه وزوجته وأسرته من تداعياتها، وكأنما قد اكتفى «بتصدير» المشكلة إلى زوجته أو باقتسامها معها ثم واصل حيرته وتمزقه وتخبطه بغير أن يبذل أي جهد لمغالبة نفسه أو ردها عن غيها إلى أن يبرأ من هذا الغزو العاطفي الذي دهمه فأفقده رشده وثباته، وبدون حتى أن يحسم تردده وتمزقه وحيرته بين المرأتين اللتين تتنازعان قلبه ويزعم أنه يحب كلتيهما « بجنون! »

إن هذا هو الوضع المقلوب وحقا وصدقا، ولأنك تستطيع أن تقلب هرما لكنك لا تستطيع أن تجلس عليه وإلا انهار بك إلى أحد الجوانب كما يقول لنا الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون، فإن زوجك يا سيدتي لا يستطيع أن يجلس على هذا الهرم المقلوب طويلا كما يريد الآن أن يفعل حتى ولو كان يخدع نفسه ويتصور أنه يستطيع الجلوس فوقه بزعمه لك أنه يحب هذه المرأة الأخرى بجنون ولا يستطيع البعد عنها ويحبك أنت كذلك بجنون ولا يستطيع البعد عنك وإلا كان الموت!

إننا إذا كنا نعترف بالضعف البشري ونسلم به ونرجو لصاحبه ألا يطول استسلامه له حتى لا تكون الخسائر فادحة فإننا لا نستطيع في نفس الوقت أن نعترف لمن يعانيه بحقه في لي الحقائق وتلبيس الحق بالباطل بهدف أن يفوز بكل شيء، وحكاية حبه الجنوني لكل من زوجته وهذه المرأة نوع آخر من قلب الحقائق والجمع بين الأضداد لكي تتماشي في النهاية مع هوى النفس الضعيفة ورغائبها.

وليس من الغريب أن يضعف الإنسان ذات مرة فلقد خلق الإنسان ضعيفا أمام أهوائه ورغائبه. لكن الغريب حقا هو أن يستسلم لهذا الضعف بلا أية مقاومة من جانبه ولا أية محاولة لرد النفس عن أهوائها:

والنفس راغبة إذا رغبتها ‏ ‏ ‏ ‏ وإذا ترد إلى قليل تقنع

وهذا صحيح ومعروف للجميع فلو ترك كل إنسان لنفسه لما أفلتت من يده متعة واحدة من متع القلب والنفس بغير أن يطلبها ويرى نفسه جديرا بنيلها مهما كان أثر ذلك على غيره، ولقد جبل الإنسان على أن يطلب لنفسه دائما الحد الأقصى من الأشياء ولولا روادع الدين والضمير والمحسوبية والواجب الإنساني العام والاستعداد الأخلاقي لوضع سعادة الآخرين في الاعتبار حين يطلب الإنسان سعادته لما عال بين النفس وبين ما ترغبه حائل ولتحولت الدنيا إلى غابة ترتع فيها الوحوش الآدمية وتتصارع حول شهواتها ورغباتها وأهوائها، ولو ترك زوجك نفسه لأهوائها لما أرضاه شيء سوى أن تسلمي له بحقه في أن يحب هذه المرأة الأخرى «بجنون» وسوى أن «تتنازل» هي فتقبل الارتباط به وهو زوج وأب رغم وضعه العائلي. ورغم فارق السن بينهما وأن «تسعدي» أنت بهذا الارتباط السعيد وتظلي بالنسبة له نفس الزوجة وشريكة الحياة ونفس الأم لأطفاله، ولم لا؟ وهذا هو الوضع «الأمثل» والأفضل بالنسبة له؟ لكن لأن الإنسان لا يستطيع الجلوس على الهرم المقلوب دائما فإن زوجك مطالب بأن يعين نفسه

على الشفاء من هذه اللفحة التي زلزلت كيانه واستسلم لها بضعفه وعجزه عن المقاومة ونكوصه عن بذل الجهد الضروري لمغالبة هوى النفس وتحمل العناء المستحق في سبيل ذلك، فإن لم يرغب في تحمل هذا العناء فليعترف بالحقائق التي لا سبيل لإنكارها.. وليحسم أمره واختياره بين زوجته وبين من تتأبى عليه وترفض القبول به ربما احتراما لوضعها العائلي والاجتماعي. وربما تعففا عن اغتصاب زوج لأخرى وأب لأطفال.

وربما أيضا استشعارا لفارق السن الكبير بينهما وخجلا منه، فإذا كان عاجزا عن الحسم والاختيار فليطلب منك إعانته على اجتياز محنته واعدا إياك بتعويضك عما عرضك له من آلام في قادم الأيام، أما أن يطلب منك فقط القبول بالأمر الواقع مع استمراره فيه ودون أن يخطو أية خطوة لمقاومته والنجاة منه فليس ذلك من العدل أو الحق في شيء.

لقد قال الكاتب المسرحي الأمريكي تنيسي وليامز في رواية «خريف امرأة أمريكية» أن أسوأ ما في الحب بين شاب صغير وامرأة تكبره في السن أنه لا مكان للكرامة فيه.

ولقد فهم الجميع عن حق من هذه الكلمة الحكيمة أن المرأة حين تحب شابا أصغر منها في السن فإنها قد تبذل غالبا كرامتها للاحتفاظ به، لكن قصة زوجك مع هذه السيدة تضيف إلى معاني هذه العبارة معنى جديدا ربما لم يخطر بذهن كاتبها وهو أن الشاب أيضا قد يبذل كرامته في حب امرأة تكبره في السن إذا ابتلي بحبها وكان ضعيفا لا يقاوم ضعفه معها وكان إحساسها هي بفارق العمر والوضع الاجتماعي عاليا، أما الطريقان اللذان تقولين إنه ليس أمامك طريق ثالث سواهما، فالحق أن هناك دائما إلى جوارهما ذلك الطريق الثالث الذي ينتهجه راغبا أو مضطرا من لا يريد أن يهدم عشه ويبدد أمان أطفاله وهو طريق «الجهاد» لاسترداد شريك الحياة التائه في بحر الظلمات والعودة به سالما بعد العناء إلى شاطىء الأمان، ويتطلب اختيار هذا الطريق ألا يسلم الطرف المتضرر لشريك الحياة بالأمر الواقع الذي يريد فرضه عليه وأن يظل على رفضه النفسي له مع استمرار جهوده ومحاولاته لإنقاذ شريك الحياة من نفسه ومن أهوائه والتعامل معه خلال ذلك برفق الأمهات وحكمتهن إلى أن يستعيد رشده ويكتشف خطر الهاوية التي يمضي إليها مع إشعاره دائما بان لكل اختيار ثمنه في النهاية وتبعاته، وإنه إذا اختار هوى النفس وحده فليوطن هذه النفس أيضا على أنها سوف تفقد الأمان والاستقرار اللذين كانت تتمتع بها في ظلان زوجة محبة وأطفال أبرياء ذلك أنه إذا كان لا أحد يستطيع إرغامه على اختيار شريكة الحياة وسعادة أطفاله دون هوى نفسه فإن أحدا في نفس الوقت لا يستطيع إرغام هذه الشريكة على أن تعترف له بحقه في الجمع بين «الحسنيين» والتمتع بكل متع القلب والعقل والاستقرار، إذا هو اختار الطريق الآخر وأمعن في السير فيه إلى ما لا نهاية، ومهما تبذل شريكة الحياة من جهد أو عناء في سبيل ذلك فإن نبل الغاية التي تسعى إليها يبرر لها هذا العناء ويهونه عليها.. ومع أن النجاح ليس مضمون النتائج في كل الأحوال فإن احتمال النجاح يسبغ على الكفاح نبلا خاصا ويجعله جديرا بما نبذله من جهد

لتحقيقه حتى لو لم يكلل كفاحنا في النهاية ببلوغ الغاية كما يقول لنا عالم النفس وليم جيمس.

وأية غاية يا سيدتي تستحق الكفاح من أجلها أنبل من إنقاذ طفلين من التمزق بين أبوين منفصلين ومن التعاسة وافتقاد الأمان؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صمت الجدران!

ترى هل تتذكرني الآن؟ لقد جئت إليك منذ أربع سنوات لمقابلتك في مكتبك مساء أحد أيام الاثنين وسافرت إليك من مدينتي الساحلية من أجل هذا اللقاء.. ورويت لك قصتي مع زواج لم يدم عمليا سوى 11 شهرا فقط وكنت حين جئت إليك أحاول استعادة زوجي الذي هجرني وانتقل للعمل بمنطقة البحر الأحمر حتى مضت ١٨ شهرا في هذه المحاولات دون أن يرجع أو يقبل بانتقالي إليه، ونصحتني بعد أن سمعت قصتي بان أكف عن محاولة الاتصال به او ملاحقته بالمكالمات التليفونية لأن قصتي معه قد انتهت عند هذا الحد، ولن يجديني شيئا امتهاني لنفسي معه، فهو لا يرغب في استئناف العلاقة الزوجية بيني وبينه، ولا يرغب في العودة للمدينة التي أعمل وأقيم بها ولا يرغب في استقدامي إلى المدينة التي يعيش فيها وقد فشلت معه كل الحيل لاستعادته وليس بيننا أبناء قد يبررون لي هذا الامتهان بدعوى التضحية من أجلهم، وفي مثل هذه الظروف فالأفضل لي هو أن أسلم بالأمر الواقع وأن أعترف بانتهاء القصة وأقبل بالانفصال عنه وأتفاهم معه وديا حوله، ثم أضمد جراحي النفسية وأحاول بعد حين أن أبدا حياتي من جديد مع إنسان آخر.

ولقد حدث يا سيدى ما نصحتني به، ويئست بالفعل من محاولاتي الذليلة لاسترجاع زوجي وكففت عن الاتصال به، وأبلغت أخته بقبولي للطلاق بشرط واحد هو ألا يعلنه لأحد. وطلقني غيابيا وأرسل إلي ورقة الطلاق، وتكتمت أنا طلاقي في محيط عملي كتربوية، وفي دائرة الجيران والأصدقاء.. وظللت في أوراق الرسمية متزوجة، وفي نظر الجيران والزملاء تلك السيدة الفاضلة التي تعيش وحدها في مسكنها بهذه المدينة الساحلية لأن زوجها يعمل بالبحر الأحمر..

وتسافر إليه في العطلات والإجازات! وحافظت على هذا «المظهر الاجتماعي» لعدة سنوات وتحملت من أجل الحفاظ عليه عناء كبيرا ففي العطلات القصيرة التي تصل لثلاثة أو أربعة أيام كما في بداية شهر مايو مثلا أو في الأعياد الدينية التي تتوقف فيها الدراسة بالمدارس، كنت أرى المدرسات من حولي يستعددن لقضاء الإجازة مع أزواجهن وأولادهن.. وأرى المدرسين المغتربين عن المدينة يبتهجون بقرب سفرهم لزوجاتهم وأولادهم فأتظاهر مثلهم بالابتهاج والمرح وأعلن لهم استعدادي للسفر لقضاء الإجازة مع زوجي الحبيب ثم أخرج من المدرسة فأودع سيارتي في جراج بعيد بأطراف المدينة لأبعدها عن العمارة التي أقيم بها ثم أرجع إلى البيت وأتوارى فيه عن الأنظار، وأغلق النوافذ والأبواب لكي يظن الجيران أنني قد سافرت إلى زوجي وأمضي هذه الأيام حبيسة بين جدران شقتي كأنني في معسكر للخدمة العسكرية لا أستطيع مغادرته، إلى أن تنتهي الإجازة و «أرجع» من السفر «سعيدة»، ومحملة بالذكريات الجميلة عن زوجي الحنون الذي ابتهج كثيرا بزيارتي له، أما في الإجازات الطويلة

فإنني أسافر إلى محافظة أخرى وأقضي فترة من الاجازة لدى بعض الأقارب زاعمة أنني قد قضيتها مع زوجي في البحر الأحمر.

وهكذا مضت أربع سنوات وأنا أعيش وحيدة بين جدران الحجرات حتى أوشكت على الجنون، وكثيرا ما أجهشت بالبكاء في مسكني الخالي من شدة الحزن والكآبة ولست أستطيع رغم ذلك أن أحدث أحدا بحقيقة وضعي خوفا من نظرة المجتمع للسيدة المطلقة، وراقبت العمر وهو يجري بأسي بعد أن بدأت منذ أيام عامي السابع والأربعين وترسبت الكآبة في نفسي فبدأت أستعين عليها وعلى حياتي الخالية بالأقراص المهدئة، وسيطر علي الخوف مما أقرأه في الصحف عن حوادث القتل بهدف السرقة التي تتعرض لها سيدة وحيدة في مسكنها أو رجل مسن يعيش وحده، والحياة الاجتماعية في مدينتي التي أعيش فيها محدودة ولا توجد بها أنشطة يمكن لسيدة مثلي أن تشغل بها فراغها، كما أن وضعي كمربية يفرض علي قيودا لابد لي من الالتزام بها، ولقد مللت القراءة من كثرة ما مارستها، وحياتي كلها موزعة بين العمل والنوم والنظر إلى جدران مسكني الصامتة التي أراها وكأنها قد اتشحت بلون السواد الذي يخيفني، والعمر يتسرب هباء من بين يدي فلا أبناء ولا شريك للحياة يؤنس وحدتي ويجاذبني أطراف الحديث وقد فقدت الرغبة في الحياة حتى اشتريت «كفني» منذ فترة واحتفظت به في دولاب ملابسي.. كأنما يذكرني بقرب الرحيل.. وأنا الآن على أتم الاستعداد لأن أتنازل عن شقتي وعن سيارتي وعن عمري كله مقابل أن أعيش هانئة البال مطمئنة في كنف أسرة أو مع إنسان يحبني ويعوضني عما فاتني من العمر ولا أستطيع أن أحدث أحدا بذلك سواك.. فهل تمد يدك لإنقاذي.. كما فعلت من قبل منذ أربع سنوات؟..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

نصحتك يا سيدتي منذ أربع سنوات بالقبول بالأمر الواقع والتسليم به فأخذت ببعض نصيحتي وسلمت عمليا باليأس من أي محاولة لاستعادة زوجك الذي طوى هذه الصفحة العابرة من حياته وانصرف عنك نهائيا وقبلت بالطلاق منه وديا، لكنك لم تأخذي ببقية نصيحتي لك ولم تقبلي بالأمر الواقع نفسيا ولم تسلمي بأخطر جوانبه وهو أنك قد أصبحت بعد الانفصال عن زوجك سيدة لا تربطها بأحد رابطة الزوجية فتكتمت نبأ الطلاق وكأنه «عار» لا ينبغي لأحد أن يطلع عليه وتظاهرت أمام الجميع بأنك مازلت زوجة لزوج غائب وسجنت نفسك بين جدران مسكنك وكابدت عذاب الحبس الانفرادي الاختياري في العطلات القصيرة لتؤكدي لمن حولك صحة هذا الوهم، فكلفت بذلك نفسك رهقا وساهمت من حيث لا تدرين في تعقيد مشكلتك وفي مضاعفة آثار الوحدة القاتلة عليك حتى استعنت عليها بالمهدئات واستسلمت لبراثن غول الاكتئاب.

وما كنت في حاجة إلى شيء من كل ذلك وما كان هذا هو التصرف الأمثل في مثل ظروفك هذه، فلقد غاب عنك أنك لا تساعدين نفسك على الخروج من قوقعة الوحدة بمثل هذا التظاهر بغير الحقيقة، وأن نظرة المجتمع للسيدة المطلقة التي

تحسبت لها كل هذا التحسب، لا تخلو رغم تحفظي على المغالاة في التحسب لها من جانب إيجابي مهم إلى جوار جوانبها السلبية الأخرى وهو «إعلام» المجتمع المحيط بالسيدة المطلقة بأنها لم تعد مرتبطة برباط الزوجية مع أحد، وأنها يمكن أن تكون موضع التفكير فيها كزوجة لراغب في رفقة الحياة مع سيدة متوسطة العمر مثلها!

فإذا كانت بعض السيدات يتحفظن في إعلان نبأ طلاقهن ليبعدن بذلك عنهن أطماع العابثين، فإن المغالاة في تكتم هذا النبأ الذي لا يشين أحدا إنما تبعد عنهن كذلك تفكير الجادين في البحث عن شريكة مناسبة لرحلة الحياة، ولهذا فلقد قلت مرارا أن الحقيقة مهما كانت مؤلمة لنا هي خير من أي زيف، وأن تقبلها والتسليم بها بشجاعة نفسية هما الخطوة الأولى دائما لمواجهة الصعاب والتغلب عليها فواجهي الحقيقية يا سيدتي بلا إدعاء ولا إنكار فإن الخطوة الأولى لحل مشكلتك هي أن «يعرف» من حولك أنك سيدة «قابلة» للتفكير فيها كزوجة أو شريكة حياة.. وليس في طلاقك من زوجك ما يشينك أو يخجلك وليس في فشل الإنسان في الحياة الزوجية ما يصمه بما ليس فيه كما أن الإنسان لا يستطيع أبدا أن يبدأ صفحة جديدة من حياته إلا إذا طوى الصفحة القديمة وتخلص من كل آثارها عليه، وليس سر السعادة كما يقول لنا الكاتب الاسكتلندي جيمس باري هو أن يفعل الإنسان ما يحب أو يحيا ما يتمناه من حياة وإنما أن يحب ما يفعله وما يحياه من حياة حتى ولو لم تكن ما يرجوه لنفسه من حياة، فإذا عجز عن أن يحب ما يفعل أو يعيش من حياة فإنه على الأقل يستطيع أن يحاول دائما إقناع نفسه بتقبلها والتواؤم معها.. وأن يسعد بما تتيحه له من أسباب قليلة للرضا والقبول بها.

فواجهي حياتك بلا خجل منها أو تحسب مغالى فيه لنظرة الآخرين إليها بدلا من مخاطبة الجدران الصامتة في مسكنك الخالي، والاستسلام لأعراض الاكتئاب و «رموزه» كذلك القماش الكئيب الذي تحتفظين به في دولاب ملابسك، وأخرجي إلى الحياة الاجتماعية في مدينتك.. وشاركي في نشاطاتها إذ أنها مهما كانت محدودة فلا يمكن أن تخلو من دار للأيتام تستطيعين زيارتها والاهتمام بأمرها أو من جمعية النشاط النسائي تستطيعين المشاركة في أعمالها التطوعية، أو من جمعية ثقافية تستطيعين المساهمة في ندواتها واهتماماتها.

ولسوف يكون خروجك من قوقعة الأحزان.. والكف عن التظاهر بغير الحقيقة هما الخطوة الأولى للمسح على جراحك.. وترشيحك للسعادة في قادم الأيام بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفكرة الخاطئة!

أنا شاب أبلغ من العمر 36 عاما ولم أتزوج بعد، ويبدو أنني لن أتزوج لأنني أحمل في صدري قلب شيخ وليس قلب شاب في مثل عمري، فمنذ عام وفقني الله إلى المساهمة في مشروع تجاري مع أحد الأصدقاء، وشاركته في محل تجاري في أحد الأحياء، وكلفت أنا بإدارته لأن صديقي مشغول بعمل آخر، فأتاح لي العمل في هذا المحل الاقتراب من سيدة عمرها ثلاثون عاما من سيدات الحي، متزوجة ولها أطفال، وجميلة، لكنها بلا أخلاق، وعلى علاقة بشخص من سكان الحي ويعرف الجميع ما عدا زوجها بعلاقتها به، ورغم علمي بذلك وبحقيقة أخلاقياتها إلا أنني وجدت نفسي أقع في حبها في صمت لمدة شهرين بغير أن أصرح لها بحبي، وقد كان كل ما رجوتها فيه هو أن تواظب على الحضور إلى المحل لأراها واستمتع بالحديث معها، وعلم أحد شباب الحي بلهفتي عليها ففوجئت به يجيئني برقم تليفونها ويشجعني على الاتصال بها، لكني رفضت أن أفعل ذلك ما لم تعطني هي رقم تليفونها وتسمح لي بالاتصال بها، وبالفعل طلبت منها رقم تليفونها فأعطته لي ببساطة، وفي نفس اليوم الذي أعطتني فيه رقمها علمت للأسف بأن لها علاقة أخرى مع شخص آخر من الجيران بدأت قبل شهر، فتألمت لذلك كثيرا ومنعت نفسي من الاتصال بها، ويكفي لكي تعلم مبلغ ألمي وحزني لذلك أن تعرف أن هذا الشخص متزوج أيضا وله ثلاثة أطفال وذئب آدمى معروف بعلاقاته النسائية المتعددة، وغالبت نفسي بضعة أيام ثم قررت أن أتصل بها وطلبت منها حين جاءت إلى المحل أن تترقب اتصالي هذا وما إن انصرفت عائدة إلى شقتها حتى رأيت هذا الشخص يدخل العمارة التي تقيم فيها وفي غياب زوجها، فبكيت من القهر والعجز والألم.. ولم أتصل بها وجاءت في المساء تسألني عن سبب عدم اتصالي بها فأجبتها بالدموع رغما عني، ولكي لا أطيل عليك في تفاصيل سخيفة أعرف أنك سوف تضيق بها، فإني أقول لك إنها قد اعترفت لي بعلاقتها بهذا الشخص الآخر وبكت و «أقسمت» لي أن علاقتها به لم تتعد المكالمات التليفونية، وأنه حتى حين صعد إليها في العمارة فإنها قد التقت به على السلم وتحدثت معه بعض الوقت فقط!!

وسوف تسألني كيف صدقت ذلك. ولماذا لم تقطع علاقتك بها من البداية ولماذا تماديت في حبها وأنت تعرف عنها كل هذا؟ وأقول لك إنني لم أستطع التوقف للأسف عن حبها الذي كان قد تمكن مني وأنها طلبت مني أن «أقف إلى جوارها»، وأن أساعدها على تغيير الفكرة الخاطئة عنها في أذهان سكان الحي من أنها أمرأة غير محترمة وسيئة السمعة! وأن هذا لن يحدث إلا إذا داومت الاتصال بها، وأقسمت لي «بأولادها»، أنها سوف تنفذ كل ما أطلبه منها «بالحرف الواحد» و وحرصت هي بعد ذلك على الاتصال بي تليفونيا وكلما اتصلت بي سمعت بكاءها وندمها فصممت على أن أقف بجوارها، ومحوت قدر استطاعتي من نفوس الناس حولنا «سيرتها النجسة»، على حد التعبير الذي سمعته عنها من بعض السيدات من زبائن المحل، وكان هدفي من ذلك هو ألا

تصل «سيرتها»، هذه إلى زوجها وشجعني على ذلك أنها أكدت لي قطعها لعلاقتها بهذا الشخص.

ووجدت نفسي مشدودا إليها بخيوط من صلب. وأصبحت أتصل بها تليفونيا من المحل ثلاث مرات كل يوم، وكل مكالمة تستغرق ساعة على الأقل وتتكلف في فاتورة التليفون عشرة جنيهات، وكانت تقول لي في مكالماتها أن كل سيدة لها رجل واحد يحميها هو زوجها، أما هي فلها رجلان يحميانها هما أنا وزوجها!! وتوطدت العلاقة «الطاهرة الشريفة»، بيني وبينها وعرفتني بأختها، واغدقت عليها بالهدايا وبكل ما تحتاج ولا تحتاج إليه من المحل مع أنها ليست محتاجة ماديا وزوجها رجل قادر، وأصبحت بالنسبة لى إدمانا يسري في دمي كإدمان المدمن للمخدرات البيضاء، وأهملت بيت أسرتي الذي أعيش فيه وأسهم بجزء في نفقاته الشهرية، واستمر هذا الحال عشرة شهور كاملة، اختل خلالها بالطبع ميزان المحل وتدهورت أوضاعه وأصبحت مثقلا بآلاف الجنيهات من الديون، وعلم صديقي بما آل إليه حال المحل فنشب خلاف شديد بيني وبينه وهو صديق العمر، وانتهى الخلاف بإخراجي من شركة المحل، وتسلمه وادارته له من دوني، واكتشفت في نفس اليوم الذي تركت فيه المحل مرضي بالسكر، وأصابني بجلطة في القدم، ورقدت مريضا في بيتي لمدة أسبوع فلم تتصل بي هذه السيدة لكي تطمئن علي أو للسؤال على صحتي وغادرت البيت بعد فترة الراحة الإجبارية فكان أول ما فعلته هو الاتصال بها لكي أعاتبها على عدم سؤالها عني خلال مرضي، فإذا بي أتلقي الصدمة الكبرى وهي أنها قد تحولت تحولا غريبا ولم تعد تطيق سماع صوتي!

ورجعت مكلوما محسورا وأنا أفكر ماذا غيرها تجاهي وقذ كنت كما قالت «رجلها الثاني» و الذي يحميها، ولم أجد بعد التفكير الطويل من سبب سوى أنني قد خسرت المحل وتركت الحي كله ولم أعد ذا نفع لها، ولم أعد أستطيع الإغداق عليها، أما السبب الآخر فهو إنني قد علمت أنها قد استعادت علاقتها بذلك الذئب الآدمي السابق، والآن يا سيدي أرجو أن ترشدني كيف أنسى هذه السيدة وأنا - بالرغم من كل ما رويت لك - مازلت أحبها، وهل انتقم منها كما أفكر الآن كثيرا بإبلاغ زوجها وتقديم أدلة عديدة إليه على خيانتها له معي ومع غيري، فانتقم بذلك لنفسي منها ولغيري أيضا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

ليس من عادتي الاهتمام بمثل هذه القصص والمشاكل اللا أخلاقية، لكني رأيت رغم ذلك نشر رسالتك هذه الأن فيها بالفعل ما قد يستفيد به آخرون قد يواجهون مثل هذه المحنة.

أما دروس هذه التجربة اللا أخلاقية فكثيرة.. وأهمها في تقديري هو ما كان يجول في خاطري من تأملات وأنا أقرأ سطورها من أنه ليس كالإنسان كائن حي في

قدرته على خداع نفسه وعلى التعامي عما لا يسره أن يعترف به لكي يمضي سائرا بقدميه إلى ما تقوده إليه أهواؤه العمياء ورغباته الملحة!

فالحيوان ينقاد وراء غرائزه دون مواربة ولا تفلسف ولا محاولة للتجمل واقناع النفس بغير ما تصرخ الحقيقة بغيره، أما الإنسان وعلى خلاف كل الكائنات الحية فإنه يفضل غالبا ألا يعترف بهذه الأهواء التي تقوده، ويميل دائما لأن يغلفها بغلاف سميك من الإدعاء والتفلسف وقلب الحقائق إلى أضدادها، لكى يسوغ لنفسه ما يريد وما تلح عليه به أهواؤه. فأنت مثلا يا صديقي تقر بأنك قد أحببت هذه السيدة رغم علمك بعلاقتها بشخص آخر وهي زوجة وأم، ورغم إدراكك لسوء سمعتها إلى الحد الذي وصفته به تلك السيدة من عميلات المحل، ولقد علمت أكثر من ذلك وأنت بصدد بدء علاقتك بها بعلاقة جديدة لها مع شخص آخر رأيته بعينيك يصعد إلى العمارة التي تقيم بها في غيبة زوجها، ومع ذلك فلقد قبلت بأن تعرفها وتبدأ علاقتك العاطفية بها، وليس هذا هو ما أقصده بخداع النفس، لأن الحب في بعض أحواله قد يتوجه رغما عن العقل إلى من لا يستحق الحب ولا تؤهله أخلاقياته لأن يكون جديرا به وهذا هو ما يسميه البعض بالعشق الذي ينكره العقل، ويضعف له القلب.

وليس بيت القصيد كذلك أنك قد اقتنعت بصدق رغبتها في تحسين سمعتها، وقطع علاقتها بالشخص الأول أو الثاني ولا أنك قد صدقت أن علاقتها به لم تتجاوز حد المكالمات التليفونية، وأنها حتى حين تسلل إلى عمارتها في غيبة زوجها فإنها - شكرا لقيمها الأخلاقية - لم تلتق به سوى على السلم! ليس هذا كله - رغم تعارضه مع العقل والمنطق والقيم - هو بيت القصيد، وإنما ذروة خداع الإنسان لنفسه عن الحقيقة التي لا ترضيه حقا هي إنك قد قبلت أن تبدأ علاقتك بها، لكي «تمحو» فكرة الآخرين الخاطئة عنها وتعينها على تحسين سمعتها واسترداد كرامتها كامرأة محترمة وسط الحي الذي يسيء الظن بها! ولأنه لا سبيل لمحو هذه السمعة السيئة عنها سوى مداومة اتصالك بها كل يوم!! فهذه هي قمة الكوميديا الإنسانية حقا أن تقتنع أو توهم نفسك بالاقتناع بهذا المبرر لبدء علاقتك بها، مع أن هذه العلاقة في حد ذاتها هي أول تأكيد لفكرة الآخرين غير الخاطئة عن هذه السيدة العابثة ولأنها «إضافة» جديدة لرصيدها غير المشرف من سوء السمعة وعدم الاحترام واعتراف صريح منها بأنها سيدة مدمنة للعبث بشرف زوجها بدليل علاقاتها السابقة، وعلاقتها الجديدة معك والتي صورت لك أنها «السبيل الوحيد» لمحو فكرة الآخرين السيئة عنها؟ فهل هناك من خداع للنفس أكثر من ذلك يا صديقي؟

وهل هناك من «تباه» بالخيانة والعبث والانحراف أكثر من مباهاتها أمامك بأن كل سيدة لها رجل واحد يحميها أما هي - ربة الصون والشرف والعفاف - فلها رجلان يتناوبان حماية ذاتها، كما يتناوب الجنود حماية الثغور و «الجواهر الثمينة»! وهل كنت تنتظر منها إخلاصا لزوجها وأطفالها وبيتها أو لعشيقها الأول ولا الثاني ولا الثالث؟

يا صديقي إن الفيلسوف الألماني شوبنهاور يقول لنا: إن السمعة الحسنة شيء ينبغي علينا أن نعمل بجد لاكتسابه، أما الشرف فليس علينا سوى المحافظة عليه!

ولم يكن إقدامها على علاقة غير مشروعة جديدة مع شاب مثلك، سبيلا للعمل على اكتساب حسن السمعة، ولا للمحافظة على الشرف، الذي افترض الفيلسوف وجوده من الأصل، وبالتالي فليس المطلوب منا سوى المحافظة عليه، وبذل الجهد والعرق في الالتزام بالطريق القويم في الحياة والحرص على الفضائل لكي نكتسب بالعناء والحرمان - وليس بالعبث واتباع الأهواء - ذلك الشيء الثمين وهو حسن السمعة!

إن من يعرف قواعد اللعبة قبل أن يدخل حلبة اللعب لا يحق له أن يشكو من قسوتها وآلامها!

وأنت قد عرفت من البداية أنك سوف ترتبط بسيدة ليست أهلا للثقة ولا الإخلاص ولا الوفاء.

فما وجه العجب في أن تنصرف عنك بعد أن فقدت كل شيء ولم تعد قادرا على الإغداق عليها، ولا على «حمايتها» بالتناوب مع زوجها!

إنها نفس القصة القديمة الجديدة، لكننا لا نتعلم درس التجربة أبدا إلا مصهورا بنار الألم، فتجرع ألمك راضيا إلى أن تبرأ من عشقك لهذه السيدة العابثة بعد حين. وانس أية أفكار تدور برأسك حول الانتقام منها أو إبلاغ زوجها بأمرها لكي لا تضاعف من متاعب حياتك وحتى لا تظل شعلة حبها متوقدة داخلك رغما عنك. فالانتقام نوع من الاهتمام بأمر من نريد الانتقام منه، والحل الأفضل هو تجاهله والبعد عنه، وتجنب كل ما يجدد ذكراه إلى أن تذوى هذه الشعلة تدريجيا في النفوس وتموت موتا طبيعيا وليس مفتعلا.

كما أن «شرف» زوجها ليس مسؤوليتك لكي تكلف نفسك عناء إبلاغه بما لا يحب هو أن يعرفه ولن يصدقه. ولن يقدر لك إبلاغه به وإنما سوف يتحول غضبه إليك وينحصر انتقامه فيك أنت وليس فيها، ومن تنجح في الاحتفاظ بهذه الشبكة»، الفريدة من العلاقات في ظل زوجها لن تعجز عند الضرورة عن قلب المائدة عليك أنت ولن تعجز عن إقناع زوجها بأنك تطاردها وتحاول إقامة علاقة غير مشروعة معها لكنها وهي «الزوجة الشريفة» المخلصة قد سدت عليك كل الأبواب فلم تجد سوى باب الادعاء الرخيص عليها بما ليس فيها!! فابتعد عن المتاعب وحاول أن تبدأ حياتك من جديد في مجال آخر. ومكان آخر ملتزما بالطريق القويم.. وكفى الله «العاشقين» شر العناء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظرة الاستخفاف!

أنا يا سيدي طبيب سابق بالمستشفى الجامعي بأكبر مدن الصعيد وأبلغ من العمر 65 سنة، وقد ترددت طويلا في أن أكتب إليك، ثم استجمعت إرادتي لكي أزيح عن كاهلي مالا يطيق، فلقد نشأت في أسرة فقيرة بل ومعدمة وكنت أستذكر دروسي في طفولتي وصباي على لمبة الجاز، وتحت عمود الكهرباء في الشارع، وأعمل في الإجازة الصيفية لتدبير نفقات الدراسة حتى حصلت على بكالوريوس الطب وعملت ودرست للماجستير وحصلت عليه وتزوجت وأصبحت لي أسرة صغيرة وبيت ملائم واشتهرت كطبيب في مدينتي وانهال الرزق علي وبدلا من أن أشعر بأحاسيس الفقراء الذين كنت منهم وخبرت معاناتهم واحتياجاتهم، فقد وجدتني أتحول في عملي تدريجيا إلى جزار أو منشار ينشر هؤلاء البسطاء ويمتص دمهم بلا رحمة ويحنو في نفس الوقت على الأغنياء ويتملقهم! وحين أكتب إليك رسالتي هذه الآن يتراءى لى وجه مريض بائس كان يحتاج لإجراء جراحة خطيرة وطلبت منه قبل أن يدخل المستشفى الخاص بي دفع مبلغ معين، ولم يكن معه سوى نصف هذا المبلغ فقط وراح يبكي ويستعطفني ويرجوني أن أرأف بحاله وأقبل منه ما معه لكني أصررت على موقفي بصرامة وطلبت منه تدبير المبلغ كاملا خلال ١٢ ساعة فقط وإلا فلن أجري له الجراحة، فهرولت زوجته تبيع ذهبها القليل وما عندها من ماشية، ورجعت إلي بالمبلغ، وبدأت في تحضير المريض للجراحة، فإذا به يموت قبل إجرائها بنصف ساعة فقط، فلا أفكر لحظة في أن أرد المبلغ لأهله المفجوعين والمعدمين وإنما أزعم لهم أنه قد مات أثناء الجراحة، واستوليت على المبلغ باعتباره أجر الجراحة حتى ولو كانت لم تتم من الأصل! كما تتراءى لي أيضا صورة مريض آخر لم أسمح له أبدا بدخول المستشفى الخاص بي وتركته يلفظ أنفاسه الأخيرة على أبوابه وهو يدعو الله علي ويرجو لي سوء المآل!

أما وجه هذا الطبيب الشاب أو الذي كان شابا وقتها فإنه لا يتراءى لي وإنما يطاردني بملامحه وبآخر ما نطق به من كلمات في آخر لقاء بيني وبينه منذ سنوات طويلة، فلقد كان يستحق التعيين في المستشفى الجامعي لتفوقه لكني حرمته وحرمت زملاءه الذين يستحقون التعيين بعد حصونهم على الماجستير بلعبة حقيرة، وعينت بدلا منهم ابني، وابن شقيقي، وابنة شقيقتي، وجاءني هذا الطبيب الشاب ليقول لي إنه سوف يرحل عن المدينة كلها ليعمل بإحدى الدول العربية لكنه يعلم علم اليقين أن الله لن يضيع حقه هدرا وأنه لن يتركني بلا عقاب ولسوف يجيء اليوم الذي أعض فيه بنان الندم على ما فعلت به وبزملائه وما ظلمتهم فيه.. ثم انصرف الطبيب الشاب وأنا ابتسم وأنظر إليه باستخفاف مترفعا عن الرد عليه في الظاهر.. ومتعمدا ذلك في الباطن لكيلا أضاعف من ثورته وحنقه علي برد قد يطلق براكينه فيوجه إلي ما هو أشد جرحا أو إهانة، أمام المساعدين والممرضات، ومضى هذا الشاب إلى حال سبيله، ونسيته ونسيت زملاءه الذين أضعت عليهم فرصة التعيين بالمستشفى سنوات طويلة لا أعرف

ماذا جرى لهم خلالها. ولعلك الآن تتساءل لماذا أروي لك هذه الواقعة وغيرها من الوقائع التي تسيء إلي وإلى أبنائي وأقربائي إذا تعرفوا على شخصيتي من خلال هذه الرسالة، وأجيبك على التساؤل إنني لم أعد أهتم بأحد من هؤلاء جميعا، بعد أن تركوني وتخلوا عني!

أما لماذا تخلوا عني وانشغلوا بأنفسهم عني، فلأنني قد مرضت ويا للعجب منذ ثلاث سنوات بالمرض اللعين الذي تخصصت في علاج المرضى منه، ومنذ ثلاث سنوات وأنا أسافر للعلاج في الخارج كل سنة مما استهلك معظم ما جمعت من مال خلال سنوات عملي الطويلة، ولو واصلت السفر للعلاج على هذا النحو فلن يمضي أكثر من عام وأصبح بعده «على الحديدة»، بلا مدخرات.. ولا مال.. ولا شيء سوى معاشي كطبيب، وذلك بعد أن تخلى عني أولادي وأبناء إخوتي الذين وضعتهم في مراكزهم وثبتهم فيها.

إنني أكتب إليك هذه الرسالة لأقول لكل من تسول له نفسه أن يظلم غيره إن الله يمهل ولا يهمل.. وإن عقابه شديد، كما أكتبها لك أملا ورجاء ودعاء إلى الله أن يعفو عني ويشفيني ويغفر لي وأملا ورجاء أيضا لكل من ظلمتهم خلال رحلة الحياة أن يسامحوني فيما فعلت بهم لكي يسامحني الله فيه.

كما أرجو أن تصل رسالتي هذه عبر بابك إلى أبنائي لكي يساعدوني ويرعوني في مرضي، وعذرا لأني لم أكتب لك اسمي لأنني لم أستطع ذلك، مع أني لا أعرف كيف استطعت أن أكتب لك هذه الرسالة، لكن ظني أن الله سيكتب لي بعد اعترافي بكل ما فعلت الشفاء، وسيجعل لي مخرجا من ضيق ذات اليد، وبارك الله فيك وفي أمثالك والسلام

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

قد يبدو تعليقي على رسالتك هذه بعيدا ظاهريا عن مضمونها لكنك لو تفكرت قليلا فيه لعرفت أنه في صلب قصتك وتجربتك فلقد قال الشيخ الحكيم ابن عطاء الله السكندري في حكمه المعروفة: من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها!

وقال ابن عباد الرندي الأندلسي في تفسير هذه الحكمة العطائية إن الشكر على ثلاثة أوجه: شكر بالقلب، وشكر باللسان، وشكر بالجوارح!

فأما شكر القلب واللسان فهما لا يحتاجان إلى تفسير وأما شكر الجوارح فهو ما أريد أن أحدثك عنه لتفهم بعض سر ما تعانيه الآن، فلقد قال ابن عباد في تفسير شكر الجوارح، إن رجلا قد سأل أبا حازم، ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيرا أعلنته وإذا رأيت بهما شرا سترته! قال: وما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما خيرا وعيته وإذا سمعت بهما شرا دفنته؟ قال: فما شكر اليدين؟ قال ألا تأخذ بهما ما ليس لك وألا تمنع حقا لله فيهما. قال: فما شكر الرجلين؟ قال: إن رأيت

شيئا غبطته استعملتهما فيه، وإن رأيت شيئا مقته كففتهما عن عمله وأنت شاكر الله تعالى. فأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه فلم ينفعه ذلك ولم يهمه من الحر والبرد.

هذا ما قاله الرندي في تفسير الحكمة العطائية وفضيلة الشكر، أما القطب الصوفي الإمام الجنيد رضى الله عنه فقد سئل وهو صبي صغير: ما الشكر؟ فقال: ألا يعصي المرء الله بنعمته عليه!

وقال أحد الصالحين في معنى الشكر إن شكر النعمة بأنواعه الثلاثة معا يضمن حفظها من الزوال ومن تغير الحال بالانتقال، وزيادتها في الحال، وبركتها في المال، واتصال العبد بمولاه على وجه العافية بلا إخلال!

وأنت يا سيدي كما تروي عن نفسك قد غير الله من حالك إلى حال وعوضك خيرا عميما عما كابدت من حرمان في طفولتك وصباك، وأغدق عليك بالرزق والأسرة والأبناء والمكانة الاجتماعية، ففيم استعملت كل هذه النعم وكيف شكرت ربك عليها؟ إن الواضح هو أنك لم تعرف للأسف شكر الجوارح هذا، ولم يكن له في حياتك العملية والمهنية أثر كبير أو صغير وإنك قد عصيت ربك للأسف بنعمته عليك، فأخذت مالا حق لك فيه من مال البسطاء الذين كنت أحرى بأن تترفق بهم، وسلبت حقوق من كانوا يستحقونها، وأعطيتها لمن لا يستحق من ذوي رحمك وواصلت رحلتك في الحياة غير عابئ بدعاء الداعين ولا وعيد المتوعدين فكأنما لم يترك الحرمان في الطفولة أثرا إيجابيا عليك في رقة القلب.. واستشعار حرمان الأخرين والرفق بهم، وإنما ترك لديك فقط بصمته السلبية على من لا يعتصمون بقيمهم الدينية والأخلاقية فيدمر معنوياتهم ويطلقهم في الحياة كالوحوش الكاسرة تريد أن تعوض حرمانها السابق من كل طريق.. فلا يكون ضحاياها غالبا ويا العجب إلا من رفاق الحرمان السابق.. ومن كانوا مثلهم حتى وقت قريب، وهذه مفارقة أخرى من مفارقات الحياة المليئة بالغرائب وما يستحق تأملات المرء وعجبه.

لقد قلت من قبل إننا قد ننسى بعض ما اقترفنا من أفعال لا أخلاقية في غمار انهماكنا فيما أسماه الكاتب المسرحي الأمريكى أرثر ميللر بسباق الفئران المذعورة للوصول إلى أهداف الحياة المادية من أقصر طريق، لكن هذه الأفعال، لا تنسانا ولا تتركنا وإنما تطل علينا في الوقت المناسب كالأشباح لتتذكرنا بما فعلنا وتطالبنا بالتكفير عنه، وآفة بعض البشر أنهم لا يتذكرون ولا يندمون إلا حين تقلب لهم الأيام تظهر مجن بعد طول استدراج لهم بالنعم مصداقا لقوله تعالى: {سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ}.. وقوله تعالى: {حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ} أي من حظوظ الدنيا التي لم يشكروا الله عليها ولم يرعوا حقوقه وحدوده فيها: {أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ}، أي يائسون قانطون من رحمة الله، صدق الله العظيم.

أما ترى أن هذا هو الحصاد الطبيعي لغرس ثمرة مغتصبة في أرض لم تكن أهلا لها من الأصل.

إنني أرجو لك الشفاء من مرضك بإذن الله.. وأرجو من أبنائك وذوي قرباك ألا يتخلوا عنك وألا يحرموك حقوقك المادية والإنسانية وأنت في ضعفك ومرضك ومحنتك، مهما كانت شواغلهم وانشغالهم عنك بأمور الحياة.

أما من ظلمتهم خلال انغماسك في سباق الفئران اللعين هذا فلعل الله قد عوضهم عما حرمتهم منه خيرا كثيرا، ولعلهم إذا قرأوا رسالتك هذه الآن لم يجدوا في أنفسهم تجاهك وبعد كل هذه السنين سوى الإشفاق والرثاء.. وتعميق إيمانهم بعدل من لا يغفل ولا ينام، لكن الندم يا صديقي كالشكر سواء بسواء.. لا يكون باللسان وبالقلب وحدهما.. وإنما بالجوارح أيضا وبالأفعال التي تقوم بها هذه الجوارح فلعلك تبحث عمن اغتصبت مالهم من التعساء والمحرومين.. وترده عليهم وهو هين ولن يؤثر على ما بقي من مدخراتك في كثير أو قليل، لكنه إن فعلت وأكثرت أيضا من العطاء لمن يحتاجون إليه.. سيكون عظيم الأثر على حياة هؤلاء البؤساء.. وعظيم القدر عند ربك.. ودليلا عمليا صحيحا على صدق ندمك.. و عمق رجائك إلى الله أن ينعم عليك بالشفاء ويغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضياع العمر!

أنا سيدة متوسطة الجمال في العقد الرابع من عمري نشأت في أسرة متوسطة الحال وعملت خلال دراستي بالمدرسة التجارية التي اخترتها لاختصار طريق التعليم، وبعد إنهاء دراستي بها عملت في مكتب للمقاولات وعمري عشرون عاما، فتعرفت في هذا المكتب برجل أعمال في الأربعين من عمره بهرني بشخصيته الفذة وأسلوبه المنمق ومظهره القوي الخشن وشعرت بأنه حلمي القديم وأثار إعجابي بكل ما فيه من خشونة وحدة، وتعلقت به وأحسست بأنني لا أستطيع الحياة بدونه، وكانت المشكلة المتوقعة بالطبع هي أنه زوج وأب، لكنني لم أسمح لهذه المشكلة بأن تحول بيني وبينه، فلقد وجدت نفسي مجنونة بحبه ولا أريد منه إلا أن يحبني، وقد كان لي ما أردت وراح يطوقني بحبه وحنانه واهتمامه بأمري وكأنني محور حياته بالرغم من أنه لم يحدثني في الزواج، وكنت في ذلك الوقت كالزهرة المتفتحة وكثيرون يلتفون حولي ويطلبون رضائي ويتقدم لي كثيرون للزواج مني لكني أحكمت إغلاق الدائرة حولي واكتفيت بحبي لهذا الرجل وحبه لي. ومضت الأيام، وأنا لا أرى من الدنيا سواه.. وانتظر أن يتوج حبنا بالزواج، لكنه كان دائم الحديث عن وضعه الاجتماعي وظروف حياته وأبنائه والتزاماته العائلية إلخ، ومع أن الإشارة كانت واضحة إلى أنه لا ينوي أن يتوج حبنا بالزواج، فلقد واصلت التعلق بالأمل فيه حتى النهاية، وكلما تقدم لي خاطب ورفضته شعر هو بالسعادة الشديدة لارتباطي به وتفضيلي له على كل شيء.

إلى أن تسربت الأعوام من بين يدي بغير أن أشعر بها ووقفت ذات يوم أمام المرآة أنظر إلى بصمات الزمن على وجهي وأشعر بالحزن العميق على شبابي الذي ضاع مع رجل أناني مات ضميره وقلبه ولم يحب سوى نفسه وأحسست فجأة بضياع العمر، فلقد عشت أسيرة لهذا الحب البائس ثلاثة عشر عاما كاملة، وكنت في بدايته زهرة نضرة في شرخ الشباب، وها أنا الآن في الثالثة والثلاثين من العمر ولم أحقق ما حلمت به لنفسي مع هذا الرجل فتوقفت مع نفسي وقررت أن أضع قلبي الذي كبدني ضياع الشباب تحت قدمي، وأن أقبل أول رجل يتقدم إلي، وبالفعل قبلت الزواج ممن تقدم لي بعد هذه الوقفة وتنازلت عن كل أحلامي و تطلعاتي، وتزوجت من رجل شعرت للوهلة الأولى أنه يختلف عني كل الاختلاف في طباعي وعواطفي وشخصيتي، فلقد كان رجلا جامد المشاعر بليد الإحساس مغلقا على نفسه ومنفصلا عن الدنيا، في حين كان أملي أن أجد رجلا يعوضني سنوات عمري الضائعة، ويحتويني بحبه لأسعد بزواجي منه، لكن هيهات أن يحدث ذلك، فلقد كتبت علي الأقدار أن أكون ضحية لرجل أحببته، وزوجة لرجل كرهته، واسودت الحياة أمامي، وفي خلال ذلك شعرت بدبيب الحياة يتحرك في أحشائي، وأملت أن تعوضني الأمومة عما حرمت منه وأن يتغير زوجي بعد أن يعرف أنه سوف يصبح أبا فلم تهتز فيه شعرة لخبر الأبوة القريبة، وشعرت باستحالة الحياة معه، ووقعت بيني وبينه مشادة حادة تركت البيت على أثرها إلى بيت أهلي، وتكرر بعد ذلك هجري للبيت ورجوعي إليه وزادت الخلافات بيننا،

وبعد مشادة ساخنة بيني وبينه حول بخله وشحه وقحطه، فضلا عن كل عيوبه الأخرى، تركت البيت من جديد وأقسمت ألا أعود إليه أبدا ودعوت الله أن يفرق بيني وبين هذا الرجل البخيل البليد، كما دعوت الله أيضا على من تسبب في وقوعي بين يدي هذا الزوج وفي ضياع عمري من قبل، ورفضت كل محاولات الوساطة والصلح بيننا ووضعت مولودتي الجميلة وأنا في بيت أهلي، فلم يكلف الرجل نفسه حتى عناء السؤال عن نوع المولود، ومضت ثلاثة شهور بغير أن يراه، فتمسكت برغبتي في الانفصال عنه للنهاية، وطالت المفاوضات والمداولات بيننا ثلاث سنوات حصلت بعدها على الطلاق بعد تنازلي له عن جميع حقوقي، وأصبحت مطلقة وأنا التي لم تتزوج لأكثر من بضعة شهور، وأخفيت انضمامي إلى سجل المطلقات عن كثير من المعارف والأصدقاء، وأغلقت الدائرة حوالي وتفرغت لتربية طفلتي، فإذا بالرجل الذي أضاع عمري بعد أن عرف بطلاقي يعرض علي الزواج منه، ولكن بعقد عرفي وشعرت بالصفعة الثانية منه.. إذا هل بعد كل ما تعرضت له بسببه وبعد ضياع العمر معه يكون كل ما يقدمه لي هو هذا العرض الرخيم، وازددت كرها له هو الآخر وشعرت بالاستياء والمرارة تجاه كل شيء بل وبالهزيمة أيضا والهوان واختل توازني لفترة طويلة بعدها ثم بدأت أتماسك وأستعيد توازني وأركز اهتمامي في ابنتي، ودرجت الطفلة في مدارج الطفولة حتى بلغت الخامسة من عمرها، فبدأت أعاني من مشكلة جديدة وغريبة معها هي مشكلة انسياق طفلتي هذه في مشاعرها تجاه أي رجل يقابلها أو يطرق علينا بابنا حتى ولو كان محصل الكهرباء أو عامل النظافة، فكل رجل عندها هو بديل للأب الذي حرمت منه، والذي ذهبت لرؤيته مرة واحدة ولم تطلب بعدها أن تراه مرة أخرى بسبب جموده وبلادة حسه، والآن يا سيدي فإن قلبي ينزف دما من أجل ابنتي التي تعيش يتيمة الأب رغم وجوده على قيد الحياة، ولقد تألمت كثيرا منذ أيام حين وجدتها تقول لى إنها تريدني أن أتزوج لكي تستطيع أن تقول لزوجى يا بابا، مع أنها لا تعرف معنى الزواج وإنما تشعر فقط بمعنى الأبوة التي تفتقدها، وأنا الآن يا سيدى مهلهلة بين شقائى بنفسي، وبين عذابي بابنتي، ولا أقوى على خوض تجربة بعد أن أصبحت حطاما ثم أين أجد الرجل الذي يضمد جراحي ويكون لابنتي الأب الحنون الذي تحلم به وأنا لا آمن على ابنتي مع أي رجل ولو كان زوجا لي؟ وماذا أفعل مع نفسي ومع ابنتي ونحن نحتاج للحياة في ظل الأمان والطمأنينة، لكن الشروخ تملأ نفسي وتشعرني بكل الخوف على ابنتي قبل الخوف على نفسي ولست أعرف أي طريق أسلكه في الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

نشرت رسالتك يا سيدتي رغم تحفظي على منطقك فيها لأنها تروي فصول قصة تقليدية قد تتكرر كثيرا في الحياة، ولا يتعلم أحد دروسها للأسف إلا بعد ضياع زهرة العمر، أما عناصرها فواحدة في كل الأحوال، فتاة صغيرة السن بريئة المشاعر تخرج إلى الحياة العملية لأول مرة فتلقى برجل متزوج وله أبناء يكبرها

في السن فيبهرها بنضج شخصيته الطبيعي، والمفترض فيمن بلغ منتصف العمر وبقوته وقدراته وإمكاناته، فتنجذب إليه متأثرة بقلة خبرتها بالحياة وتوفر السن وانعدام التجربة، وتبدأ دراما الحب المحرم المحكوم بأوضاع طرفيه الاجتماعية وتجد الفتاة نفسها مدفوعة بعواطفها وحدها عاجزة عن التخلي عن حبها رغم إدراكها لصعوبة تتويجه بالزواج، ويجد الرجل نفسه عاجزا أو غير راغب في أن يتحمل تبعات هذا الحب وآثاره الوخيمة على حياته العائلية والاجتماعية، فيواصلان الطريق معا وكل منهما ينطوي في أعماقه على أمل يائس يختلف عن أمل الآخر ممارسا في ذلك نوعين دائمين من الخداع أحدهما للنفس، والثاني للآخر.

أما خداع كل منهما لنفسه فيتمثل في محاولة الفتاة لأن تقنع نفسها بعد أن سلمت بصعوبة تحقق الأمل في الزواج ممن تحب، بأنها لا تريد سوى «الحب»، وليست على استعداد لأن تفقده حتى ولو ضحت في سبيل ذلك بحقها المشروع في الزواج والاستقرار، وهو خداع للنفس وحيلة نفسية دفاعية يسميها علماء النفس بحيلة «الإنكار»، وفيها يقنع الإنسان نفسه بعد أن تحقق من عجزه عن نيل ما يرغبه في أعماقه بأنه لا يريده في الحقيقة، وإنما يريد شيئا آخر يراه أفضل وأبقى.

وأما خداعها للطرف الآخر، فلأنها ومهما أعلنت لشريكها في مثل هذه العلاقة من أنها لا ترغب في الزواج منه تقديرا منها لظروفه العائلية والاجتماعية، فإنها تنطوي في أعماقها على التمسك بالأمل اليائس في أن يتغلب ذات يوم على هذه الظروف ويتوج حبهما بالزواج مهما كانت خسائره على جبهة الأسرة والأبناء.

وأما خداع الرجل لنفسه، فيتمثل في محاولته الدائمة لأن يقنع نفسه بأنه لم يكن «المسؤول» عن تعاسة شريكته في العلاقة ولا عما تخسره من حياتها وفرصها المشروعة في الزواج والاستقرار باستمرارها فيها لأنها هي التي أرادت ذلك من البداية وارتضته وسلمت به بعد أن أخلى أمامها مسؤوليته عن ذلك وأكد لها مرارا أنه لن يستطيع زواجها وتحدث إليها كثيرا عن ظروفه العائلية والاجتماعية، وهي حيلة نفسية دفاعية أيضا تستهدف إعفاء النفس من الإحساس بالذنب، ويلجأ إليها الإنسان لا إراديا حين يستشعر مسؤوليته عن مصير شريكته في العلاقة، لأنه يدرك تماما أنه شريك كامل المسؤولية فيما تصنع بحياتها معه، وأنه لو لم يكن راغبا في استمرارها فيما تفعل بحياتها، لما عجز عن إنهاء قصته معها قبل أن تستفحل الخسائر، أو قبل أن تبدأ من البداية.. أما خداعه للطرف الآخر في العلاقة، فيتمثل أيضا في أنه ومهما صرح بغير ذلك فإنه ينطوي في أعماقه على الأمل المكتوم في أن تستمر هذه العلاقة وتتواصل لأطول فترة ممكنة على ما هي عليه الآن وبغير أن يضطر لتحمل تبعاتها وآثارها السلبية على حياته العائلية واستقراره الأسري وحياة أبنائه.

والمؤسف حقا هو أن كلا من الطرفين قد يواصل الهروب من مواجهة الحقيقة المرة ويواصل النكوص عن تحمل تبعاتها مؤجلا التفكير في العواقب إلى مرحلة قادمة يتمنى في أعماقه ألا تجيء أبدا.

ولهذا فليس من السهل. في مثل هذه العلاقة المرفوضة أن يفرق الإنسان بين الجاني والضحية، أو أن يحكم على أحدهما بأنه ضحية الآخر مائة بالمائة، وإن كانت الخسائر دائما أفدح وأبلغ على جانب الفتاة للأسف. وقصتك يا سيدتي.. أصدق مثال على ذلك، إذ لم يكن ضياع العمر وفوات فرص الاستقرار والسعادة هما فقط كل خسائرك في هذه العلاقة اليائسة، بل إن ما تخلفه مثل هذه التجربة الخاطئة الطويلة من بصمات وآثار غائرة في شخصية الفتاة ونفسها ومشاعرها وأفكارها وقيمها ورؤيتها للحياة، يقضي على كل ما تبقى لديها من براءة المشاعر ويفسد نظرتها للحياة ويعمق من شكوكها في الآخرين ويقلل إلى حد كبير من فرص تواؤمها مع فكرة الزواج بعد هذه التجربة، ومن استعدادها للتجاوب النفساني مع من قد يحل في حياتها محل بطل تجربتها المريرة.

بل إنها تجعل منها في النهاية شخصية مركبة يصعب إرضاؤها، ويصعب قبولها للآخرين وقبولها منهم. ويكفي من مظاهر هذا التركيب النفسي المعقد، أن أشير فقط إلى ما يتفاعل في أعماقها من مشاعر متناقضة تجاه شريكها في هذه العلاقة، حين يطول بها العهد.. وهي عاجزة عن الكف عن حبه، وعاجزة في نفس الوقت عن إعفائه من اللوم والمسؤولية عن ضياع عمرها معه، فتتخذ علاقتها به وربما لعدة سنوات شكل علاقة الحب - الكره، التي يقول بعض علماء النفس إنها تجتمع فيها مشاعر الحب والكراهية معا في قلب الإنسان تجاه آخر يحبه، لكنه ينقم عليه في أعماقه بعض الأمور الأساسية، ولا يستطيع بالرغم من ذلك الابتعاد عنه ونزع حبه من قلبه، ولا يستطيع في نفس الوقت أن يتخلص من مشاعر الكراهية له بسبب ما ينقمه عليه وليس هناك مجال أرحب لمثل هذه المشاعر المتناقضة المركبة من مثل هذه العلاقة الطويلة اليائسة بين رجل متزوج وفتاة تتعلق بالأمل العاجز فيه 13 عاما كاملة، وتسفر في النهاية عن خروجها منها وهي حطام نفسي ومعنوي، كحطام السفينة الغارقة التي تحملها الأمواج إلى الشاطىء.

ولأن المثل الهولندي القديم يقول إنه حين ينقلب الحب إلى كراهية فإنه لا يعرف حدودا، فلقد كرهت أنت في النهاية شريكك في هذه التجربة الطويلة واعتبرته المسؤول الأوحد عن تدمير حياتك، ورفضت عرضه الرخيص عليك بالزواج العرفي منك ليس فقط لأنه بالفعل عرض رخيص لا يتكافأ مع ضياع العمر بلا طائل معه، وإنما أيضا لأنك قد كرهته ق ولم يعد له في قلبك أي نصيب من الحب القديم، ولو كان تله بقية من الحب في قلبك بعدما واجهت من تعاسة لربما كنت قد رضيت بالعرض الرخيص حتى ولو لامك على قبوله اللائمون، لكن كنت صادقة مع نفسك ،على أية حال حين رفضت هذا العرض الرخيص وحين ذكرت أنك قد كرهته هو الآخر بعد من كرهته من الآخرين! كما أنك قد عبرت عن نفسك وعما خلفته في شخصيتك هذه التجربة المريرة، تعبيرا تلقائيا نادرا حين قلت إنك قد شعرت باستحالة الحياة مع زوجك لكثرة الخلافات بينكما حول بخله وشحه.. و«قحطه» إذ أنه في هذه العبارة تتمثل بعض أسباب أزمتك النفسية التي حالت بينك وبين التواؤم مع زوجك بعد أن ألقت بك أمواج الحياة بين يديه، وفيها أيضا بعض أسباب فشلك في بذل الجهد الكافي لإنجاح زواجك به، فلقد أفسدت تجربتك

المريرة الطويلة رؤيتك للحياة وغيرت الكثير من مفاهيمك وأفكارك ومعاييرك، فنقمت على زوجك جمود مشاعره وتبلد أحاسيسه، لأن لديك «مرجعية» في هذا الشأن أتاحت لك فرصة المقارنة الظالمة وإصدار الأحكام القاسية! ولو كنت قد ارتبطت بهذا الرجل قبل أن تفسد هذه التجربة حياتك ومعاييرك لربما كان حكمك عليه مختلفا في هذا الشأن، خاصة إنك تعترفين بكراهيتك له من البداية.. وبعدم بذلك لأي جهد عاطفي معه يدفعه لأن يحبك ويحرك مشاعره، وفارق كبير بين «مشاعر» رجل ارتبط بفتاة 13 عاما، وبين مشاعر راغب في الزواج دخل البيوت من أبوابها ولم تنسج الأيام بينه وبين زوجته بعد خيوط الحب والعاطفة، كما أنك أيضا قد نقمت عليه بخله وشحه و «قحطه».. ولقد حكمت عليه أيضا في هذا الشأن بالقياس إلى «كرم» بطل التجربة السابقة «وسخائه» فإذا كنت لا أستطيع أن أقدر مدى صدق حكمك عليه بالبخل، فإني أستطيع على الأقل أن أقول لك إنك قد «حاسبته» على قحطه أي على قلة دخله وموارده بالمقارنة برجل الأعمال بطل التجربة المريرة، والبخل نقيصة أخلاقية لا شك في ذلك أما «القحط» فكيف يكون نقيصة أخلاقية بها مستحبة عنها من يكابده، وهو لا حيلة له فيه ولم يرده لنفسه؟ إنها المقارنة الظالمة يا سيدتي بين إنفاق «العاشق» المتحرر من التزام الزواج بمن يحبها، ولا يرى بأسا في تعويضها عما يحرمها منه ببعض المال الذي لا قيمة له وبين إنفاق الزوج محدود الموارد الذي يحسب حساب المستقبل ويكافح لتلبية مطالب الحياة. ولأن معاييرك قد فسدت من جراء هذه التجربة الخاطئة، فلقد أخطأت أيضا الحكم عليه في هذا الشأن، وحاكمته محاكمة ظالمة عن تبلد أحاسيسه وقلة موارده، وألقيت باللوم كله عليه، وأعفيت نفسك من كل لوم، ولو شئت الحق والعدل لقلت لك إنك تتحملين النصيب الأكبر من المسؤولية عن إتمام هذا الزواج من البداية، وعن فشله السريع في النهاية، لأنك لم تكوني صالحة من الناحية النفسية والعاطفية للارتباط برجل آخر في أعقاب تجربتك التي أهدرت فيها زهرة عمرك، ولأنه كان زواج هروب من حب فاشل، أكثر منه زواج أمل في السعادة، واستعداد كاف للحرص عليه والدفاع عنه.

ومن عجب إنك لا تشعرين بأي استعداد لإنصاف هذا الرجل البائس الذي سعى إليك راغبا في السعادة والأمان معك، فقبلت به و أنت تنكرين عليه كل شيء فيه وتعاملت معه بنفسية الحطام المخربة من أثر تجربتك السابقة، فلم تر فيه شيئا قابلا للتواؤم معه، ولم تبذلي أي جهد لتجاوز أزمتك التي لا ذنب له فيها لكي ينجح زواجك به، وأسرعت تلقين باللوم عليه وتحملينه مسؤولية كل شيء، وكأنك الطرف الوحيد الضحية لزواجك منه، مع أن طفلتك هي الضحية الأولى.. وهو ضحيتك الثانية.

ولا غرابة في ذلك لأنك كرهته منذ البداية، حتى قبل أن يفعل ما يستحق من أجله هذه الكراهية.. ولأن كراهيتك له كانت جزءا من كراهيتك لمن حطم حياتك قبله وربما أيضا لكل الرجال!

أما عذابك بتطلع طفلتك لأن يكون لها أب، تستظل به، فإنه لا ينبغي له أن يحول أنظارك بعيدا عن جنايتك أنت عليها بقبولك أولا للزواج من أبيها بغير استعداد

نفسي كاف للقبول به، ونكوصك المعيب عن الدفاع عن حق طفلتك المشروع في أن تنشأ بين أبوين طبيعيين لها.

ولقد تأخرت وقفتك الأولى مع نفسك ١٣ عاما طويلة قبل أن تجدي الشجاعة للإقدام عليها.. لكن وقفتك الثانية معها لا ينبغي لها أن تتأخر عن الآن لحظة واحدة.. فأعيدي النظر يا سيدتي في حياتك وقيمك وأفكارك كلها ورؤيتك للحياة، واعترفي بمسؤوليتك عن إهدار زهرة عمرك في هذه التجربة الخاطئة منذ البداية ولا تكتفي بإلقاء اللوم على شريكك فيها وحده، واعترفي كذلك بمسؤوليتك الكبرى عن فشل زواجك وحرمان طفلتك من حقها في الحياة الآمنة.

فهذه هي البداية الصحيحة لمن يريد ألا يكرر أخطاءه.. وأن يظفر بالسلام والاستقرار والأمان.

والحق إننا نحتاج لأن نتعلم كيف ندير حياتنا إدارة عاقلة لا توقعنا في الأخطاء التي كنا نستطيع تفاديها بقليل من التحكم في جماح نفوسنا وأهوائنا ولا نهدر فيها العمر الثمين في الجري وراء السراب والأوهام. ولقد أن الأوان لأن تعترفي بإدارتك الفاشلة والخاطئة لحياتك طوال الأعوام الماضية، وأن تراجعي كل قيمك السابقة وأفكارك وتعدلي ما سوف يحتاج منها إلى تعديل وتصحيح، وتعفي «الأقدار» من أية مسؤولية عن ارتباطك لمدة 13 عاما برجل متزوج وله أبناء، وكذلك عن فشل زواج لم تمنحيه أنت من البداية فرصته في الاختبار والنجاح، وحين تسلمين بكل ذلك سوف تتغير رؤيتك كثيرا للأشياء وسوف تجدين نفسك قادرة بعد حين على استقبال مؤثرات الحياة الجديدة، والتواؤم معها، وربما قادك ذلك إلى محاولة استئناف حياتك مع زوجك السابق طلبا لسعادة ابنتك إن لم تكن الفرصة قسم ضاعت إلى الأبد.. وقد يقودك ذلك أيضا إلى التواؤم بلا عناء مع شريك حياة آخر تنعم معه طفلتك بالأمان.. وتعرفين أنه فهمه لأول مرة معنى الحياة الطبيعية الهادئة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عصير الألم!

كثيرا ما فكرت في الكتابة إليك من قبل إلى أن قرأت مؤخرا رسالة «كبرياء الألم »، التي يحكي لك فيها زوج معذب عن تمرد زوجته عليه وتخييرها له بين أن «يقبل» ، باتصالها مرة كل أسبوع بمن ملك عليها قلبها.. أو يقبل بطلاقها منه سرا على أن تستمر مقيمة في بيته ومع أبنائها وتتزوج من الآخر، فلا يكون لكاتب الرسالة بعد ذلك أي حق في مراقبتها أو منعها من الاتصال به، وقد توقفت طويلا أمام ما قلته له في ردك على رسالته من أنه إذا لم يكن أمامنا خيار مع الألم الذي يفرضه علينا الآخرون، فإن الأفضل لنا هو أن يكون ألمنا نبيلا مترفعا وليس ألما ذليلا خانعا، ناصحا بذلك إياه بأن يكف عن محاولات استجداء مشاعر هذه الزوجة التي تعدت الحدود والأعراف، وأن يطلقها طلاقا علنيا ليضعها بذلك أمام مسؤولياتها عن أبنائها.. وأن ينتصر، لنفسه بالاستغناء عمن أهانت رجولته وجرحت كرامته.. ولم تحفظ عهد الوفاء له.. ولا تريد عشرته. ولقد أثارت هذه الكلمات الدامية أشجاني وذكرياتي الأليمة، وأشعرتني بمرارة العلقم في حلقي.

فقبل سنوات كنت أعيش حياة سعيدة مع زوجتي وابني وابنتي في إحدى الدول العربية، وكنت أكد وأكدح لكي أوفر لهذه الأسرة الصغيرة الحياة الهانئة المستقرة، ونعيش معا حياة يغبطنا عليها الكثيرون، كما كنت أحب زوجتي حبا عظيما هائلا دفعني لأن أتوجها «ملكة» ، تأمر فتطاع.. وتومىء برغباتها فأسرع بتلبية إشارتها، كما دفعني أيضا لأن أعطيها من الحرية ما تحسدها عليها صديقاتها في الدخول والخروج والسفر وكل شيء.. اعتمادا على ثقتي المطلقة فيها وفي سعادتنا وحياتنا الجميلة التي لا ينقصنا فيها شيء ولا تشهد أية منغصات أو مشاكل، وظلت حياتنا على هذا النحو إلى أن فوجئت بزوجتي تطلب مني الطلاق فجأة وصعقت للطلب الذي لم تسبقه أية مقدمات وحاولت معها المستحيل لكي ترجع عنه.. وبذلت الكثير من كرامتي معها لكي تعود إلى رشدها وتقدر مسؤوليتها عن الطفلين ووسطت الأهل والأصدقاء لديها.. وقدمت لها العروض وأبديت استعدادي لأي شيء تطلبه أو تراه.. وأكدت رغبتي في تغيير كل ما قد يكون سببا للطلاق، لكنها تمسكت بمطلبها حتى النهاية، وبلا إبداء أسباب مقنعة.. وأخيرا تكشفت القصة وشعرت أنها تريد الطلاق لكي تتزوج من صديق الأسرة، الذي هدم هو الأخر أسرته وأعاد زوجته وأولاده لمصر لكي يتزوجها ولم تجد كل محاولاتي معها لكي ترجع عن غيها وتجرعت من عصير الألم الذليل الذي تتحدث عنه أنت ما يملأ النفس الآن غصة ومرارة، وما أندم عليه كل الندم وأتمنى لو كنت قد تعففت عنه وأثرت الألم النبيل المترفع الذي لا يذل كرامة الإنسان، فلقد بالغت في تدليلها والتذلل لها دون جدوى، ولم أجد في النهاية بدا من التسليم برغبتها وطلاقها.. لكي تتزوج الآخر في البلد نفسه الذي نعمل به وهو بلد صغير لا تخفى فيه الأسرار طويلا، وقضت زوجتي السابقة شهور العدة في بيت إحدى صديقاتها، ثم تزوجت صديق الأسرة وانتقلت للإقامة معه في مسكنه، وحلت محل

زوجته التي رحلت عن البلد مع أولادها باكية رافعة رأسها للسماء تدعو على من خرب بيتها ومزق أطفالها.

ووجدت نفسي أعيش في المسكن نفسه الذي شهد قصة سعادتي وعذابي معا أرعى أطفال الصغار وحدي. وأتجرع المهانة والإحساس بالذل وجرح الكرامة.. وأتفادى المرور في الشارع الذي يقيم فيه العروسان، اللذان ضحي كل منهما بأولاده وشريك حياته ليعيشا معا حياتهما الأنانية على أشلاء الوفاء، والواجب العائلي، والإخلاص، وأتفادى الظهور في أي مجتمع يحتمل أن يجمع بيننا بالصدفة.

ولم أحرم الغادرة من أي شيء طلبته بالرغم من أنها الساعية إلى الطلاق والتي لم تصن عهد الوفاء لزوجها وأولادها لكني لم أحتمل البقاء طويلا بالبلد نفسه الذي تعيش فيه زوجتي السابقة مع زوجها وتركت عملي فيه ورجعت إلى مصر، واحتويت أطفالي وكرست حياتي لهم.. وأتحت لأمهم فرصة رؤيتهم حين تشاء بلا متاعب ولا قيود، وهى تراهم بالفعل من حين لآخر ولكنها غير متلهفة عليهم، ولا تكلف نفسها عناء شراء هدية بسيطة لهم أو اصطحابهم إلى فسحة صغيرة خلال إجازتها بمصر وهي ترجع في الإجازة وحدها، وكذلك يرجع زوجها وحده أيضا لرؤية أولاده، ولست أعرف حتى الآن ماذا وجد كل منهما في الآخر لكي يجتذبه إليه.. وأي ميزات خطيرة لمسها كل منهما في شريكه.. ورآها كافية وحدهما أن يحطم من أجلها أسرته ويشرد أبناءه لكن هذا ما حدث.. ولم يكن أشد حيلة فيه.. ولقد مضت الآن على هذه القصة بضع سنوات فقدت خلالها عملي المهني

في البلد الذي كنت أعمل به لأنني تركته ورجعت إلى بلدي وفقدت عملي السابق بمصر خلال الاغتراب، لأنني تجاوزت سنوات الاجازة بدون مرتب بكثير والتهم الريان - سامحه الله هو الآخر - نصيب الأسد من مدخرات الغربة وثمرة الشقاء والعذاب، لكني أعيش بالرغم من ذلك حياة كريمة بما تبقى لي من مال والحمد لله، ولدى شقة كبيرة بحي راق من أحياء القاهرة مجهزة بكل الكماليات، وامتلك سيارة حديثة وأولادي يتعلمون في أرقى المدارس، وأحاول الآن القيام بمشروع تجاري ناجح بإذن الله.

ولقد ظللت طوال السنوات الماضية أدعو الله أن يعوضني عما تكبدت من عناء وآلام خيرا عميما وأن أجد أما بديلة لأبنائي وزوجة صالحة تمسح عني ما شعرت به من تعاسة خلال السنوات الماضية، فلم أوفق إلى ذلك حتى الآن لشدة خوفي من أن أسيء اختيار الزوجة التي اطمئن معها على أولادي حين تنقضي صفحة عمري.

ولقد قرأت رسالة «الحل الفريد» للسيدة التي تريد أبا لطفلها وتشترط أن يكون عقيما لكي تطمئن على صدق أبوته لطفلها الوحيد.. وردك عليها بأن الأرمل والمطلق الذي يحتاج لأم بديلة لأطفاله، لن يكون أيضا أقل أبوة لابنها ممن حرم من الإنجاب لأن له مصلحة مشتركة في الزواج وفي استمرار البيت الذي يستظل به أطفاله وأطفال زوجته، وأنا أؤيدك تماما في هذا الرأي لأن من يحتاج إلى أم

بديلة أمينة لأطفاله، يجد من العدل أن يكون هو أيضا أبا بديلا أمينا لأطفال زوجته لكي تتعمق حاجة الطرفين كل منهما للآخر.. وإني لأرجو أن ترشحني لهذه السيدة، حيث إنني أعرف ربي جيدا وأعرف واجباتي نحو زوجتي وأطفالي ولن أقصر في أداء مسؤولياتي كما أن حاجتي الآن للزواج أكبر بعد أن شارفت طفلتي على سن النضوج وازدادت حاجتها إلى أم تطمئن إليها وتستشيرها فيما تتحرج أن تستشيرني فيه من شؤون الفتيات في هذه المرحلة من العمر.

وسامح الله من حرمها من حقها الطبيعي في أن تجد أمها إلى جوارها في هذه السن وحرم شقيقها من الحق نفسه ولا غفر الله لكل خوان كفور.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

قدر الله وما شاء فعل يا صديقي. فلئن كانت الأقدار قد قضت علينا بأن نتجرع مرارة الإحساس بالغدر وفقدان الأمان والسعادة في بعض مراحل العمر، فلابد أن نؤمن دائما بحقنا العادل في أن ننال كل ما حرمنا منه ذات يوم قريب.

والعظمة الحقيقية في احتمال المكار والصمود في شموخ أمام أمواج الأكدار التي تعترض طريقنا في بعض الأحيان كما تقول لنا الحكمة البوذية القديمة، وبقدر ما نحتمل من اختبارات الحياة المؤلمة، بقدر ما ترشحنا الأقدار لما تدخره لنا من سعادة مؤجلة تمسح عنا الأحزان.. وليس علينا أن نأسى طويلا على ما حرمنا منه وإنما علينا فقط أن نراجع تجاربنا الفاشلة في الحياة، ونتعلم دروسها ونتسلح بخبرتها الثمينة في تجنب الأخطاء ومواطن الزلل السابقة، ولا شك أن من أهم دروس تجربتك الأليمة السعادة الزوجية، هي أن المغالاة في التذلل لمن انصرف عنا نهائيا بمشاعره إلى غيرنا، لا تكسبنا حبه المفقود.. مهما ابتذلنا أنفسنا معه وإنما تضاعف من خسائرنا بخسارة الكرامة والاعتبار بعد أن خسرنا الحب والسعادة من قبل. ومن يمضون إلى سعادتهم الشخصية، على حساب تعاسة الآخرين.. لا يتوقفون للأسف قليلا أو كثيرا أمام ضحايا هذه السعادة الأنانية من شركاء الحياة والأبناء، ولا يزيدهم تذلل شركاء الحياة لهم، للعدول عن أختيارهم إلا ازدراء لهؤلاء الشركاء «واقتناعا» بأنهم لم يكونوا ليستحقوا عشرتهم الملائكية، وإحساسا بالسيادة والتفوق عليهم.. فإذا كنت تتساءل متعجبا عما وجد طرفا - تلك القصة كل منهما لدى الآخر - لكي يهدم أسرته ويمزق أبناءه ويتحمل تبعات كل ذلك من أجله فلعل الجواب علي هذا التساؤل المرير هو أن كلا منهما قد وجد لدى الآخر هذه القدرة النفسية الجامحة على نبذ شريك الحياة، والتضحية بسعادة الأبناء واستقرارهم طلبا لسعادته الخاصة وهي قدرة أو جرأة نفسية لا تتوافر للكثيرين ممن لا تصفو لهم السعادة إذا شقي بها أعزاؤهم، أو حتى إذا وضعتهم موضع اللوم والإدانة من الأهل والأصدقاء والمجتمع العائلي المحيط بهم.. ولهذا فليس غريبا أن يتوافق أصحاب هذه الرؤية الذاتية للسعادة مع بعضهم البعض وأن يجد كل منهم لدى الآخر طلبته ومبتغاه لأن الطيور على

أشكالها تقع.. فلا تأس طويلا على من توجتها «ملكة» على قلبك وحياتك، فلم تعرف لك قدرك.. ولم تتوان عن الغدر بعهد الوفاء معك، وتضحي بأبنائها لترتبط بصديق الأسرة الذي لم يتردد هو أيضا في التضحية بأسرته وبأبنائه من أجلها.. فكل منهما جدير بصاحبه حقا وصدقا.. وأندم إذا شئت لا على أنك قد أحببتها وأسرفت في حبها وتدليلها، لأن تجربة الحب الصادق في حد ذاتها تجربة إنسانية لا يجوز الندم عليها حتى ولو توجهت مشاعر القلب خلال إلى من لم يكن أهلا لها - و إنما أندم فقط على أنك قد تذللت إلى هذه السيدة طويلا لتعدل عن رغبتها في الطلاق والارتباط بغيرك، وعلى أنك قد منحتها من «الحرية» ما كانت تحسدها عليها صديقاتها، وأسرفت في الثقة فيها وفي «صديق الأسرة»، فلم تنتبه في الوقت الملائم للأسف إلى تلك « الروح الغجرية» الجامحة المتطلعة إلى السعادة الشخصية بغير توقف أمام الاعتبارات العائلية.. والإنسانية والأخلاقية العديدة التي تكبح جماح غيرهم وتردهم عما قد يهفون إليه.

لكن التجربة قد مضت بخيرها وشرها على أية حال.. ولقد علمتنا تجارب الألم إن كل ما تحمله أمواج الحياة لنا من أكدار قد يصبح مألوفا لنا وفي حدود أحتمالنا البشري بعد حين. ومن حقك الآن بالفعل أن تتطلع لنيل السعادة التي تستحقها مع من تقدر لك إخلاصك وقيمك الأخلاقية وحدبك على طفليك، وتعاملك المهذب مع طليقتك بعد انفصالك عنها، ولسوف أعرض رسالتك هذه على كاتبة رسالة «الحل الفريد»، فإن لم تكن على استعداد للتنازل عن شرطها الذي اشترطته فيمن ترتبط به وهو أن يكون بلا أبناء وغير قادر على الإنجاب ليظفر طفلها الوحيد بكل أبوة من يرتبط بها كما تتصور، ففي الحياة أخريات يرحبن بك وبطفلتك التي تحتاج لمن تستشيرها فيما تتحرج أن تستشير فيه أباها وبابنك أيضا.. وإن غدا لناظره قريب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخيوط المقطوعة!

أنا سيدة في الثلاثينات من عمري، نشأت في أسرة متراحمة ومترابطة، وكان أبي مهندسا معماريا كبيرا، ترقى في المنصب حتى أصبح رئيسا لشركة كبرى، وكانت أمي ومازالت أطال الله عمرها الأم الرؤوم لأبنائها، وقد تلقيت تعليمي منذ الطفولة في مدارس غير مختلطة، وانتقلت منها إلى كلية البنات، وتخرجت وعملت كمعيدة بها، ولأن أبي كان محافظا بطبعه، كما أنني أمضيت مرحلة الدراسة الجامعية في كلية للبنات، فلقد كان أختلاطي بالشبان في أضيق الحدود، وكانت دائرة علاقات الاجتماعية محدودة للغاية، ولهذا لم يتقدم للارتباط بي سوى بعض الأقارب من أفراد هذه الدائرة الضيقة، لكني كنت أحلم بالخروج من أسوارها فتطلعت للارتباط بشخص من خارجها، والتقيت بالفعل عند إحدى صديقاتي بصديقة لها ومعها أخوها، وتبادلنا حديث الغرباء الذين يلتقون لأول مرة، وبعد أيام أبلغتني صديقتي بإعجاب هذا الشاب بي، ورغبته في التقدم لخطبتي وكان هو قد استلفت نظري بالفعل، ربما بجرأته في الحديث وأنا التي تميل بطبعها للخجل، وربما بخفة ظله وظروفه العائلية والاجتماعية المناسبة، وبعد أيام جاء لزيارتنا مع أخته وتمت الخطبة وتزوجنا بعد ذلك بثلاثة شهور فقط، وكان زوجي يملك شقة كبيرة في الحي نفسه الذي نقيم فيه، كما كان أبي الذي رحل عن الحياة فجأة قبلها بشهور يرحمه الله قد ترك لكل منا مبلغا معقولا من المال فاستطعت أن أجهز به هذه الشقة خلال فترة قصيرة، وبعد شهور من زواجنا حملت وأنجبت طفلتي الوحيدة فأصبحت منذ اليوم الأول لمولدها هي كل حياتي، وخففت عني بعض معاناتي من تغير شخصية زوجي بعد الزواج وفتوره تجاهي وعصبيته الشديدة التي أثارت العديد من الخلافات بيننا، فضلا عن افتقادي للانسجام العاطفي معه بعد الزواج، وبسبب هذه الظروف كلها قررت ألا أنجب منه مرة أخرى، وتعللت في ذلك بانشغالي بالإعداد لرسالة الماجستير وتشاغلت عن أشجاني برعاية ابنتي والاهتمام بها، وجعلت منها محورا لحياتي، اخرج معها وأشتري لها ما تحب، واهتم بتربيتها ونظافتها وملابسها وتعليمها حتى أصبحت موضع فخر واعتزازي، ثم شاءت الأقدار الحزينة أن تمتحن هذه الزهرة البريئة بالمرض اللعين وهي في السادسة من عمرها فإذا بها تذبل ويشحب لونها وتعاني من العذاب ما لا يطيقه الرجال، ودمرني مرضها تدميرا، وسافرنا إلى بلد أجنبي لعلاجها ورجعنا بعد أن تحسنت حالتها كثيرا، فأدت امتحانها ونجحت بتفوق في كل المواد رغم غيابها الطويل عن المدرسة، وكنت خلال هذه الفترة قد حصلت على الماجستير ورشحت للسفر إلى دولة أوربية للحصول على الدكتوراه من إحدى جامعاتها، فوجدتها فرصة للهروب من كل شيء، ولمواصلة علاج ابنتي فاصطحبتها معي وسافرت إلى هذه الدولة، وعملت بجانب دراستي لأوفر لها متطلبات الحياة والعلاج في أصعب الظروف، لكن زهرتي البريئة راحت تذبل للأسف يوما بعد يوم، وجاء أبوها لزيارتنا وقضاء بعض الوقت معنا، فلم يمض أكثر من شهر ونصف الشهر على وصوله حتى كان الله قد استرد وديعته الغالية، ورجعنا بها إلى مصر، وأنا لا أشعر بنفسي ولا بمن حولي، وكلما اشتد علي

الحزن القاتل التمست بعض العزاء في أنها قد استراحت من الألم والعذاب، بل وأيضا من نظرات الناس التي لا ترحم، والتي كانت تتوقف رغما عنها عند هزالها الشديد وشحوبها المؤلم في المرحلة الأخيرة، ومكثت في مصر فترة قصيرة كنت أزور خلالها مثوى ابنتي الحبيبة كثيرا، وأتعجب لنفسي كيف مازلت على قيد الحياة رغم رحيلها، لكني على أي حال إنسانة مؤمنة وأسلم بقضاء الله وقدره.. وقد رجعت إلى الدولة الأجنبية لاستأنف الإعداد لرسالة الدكتوراة وانشغل بها عن همومي وكلما سمحت لي الظروف رجعت إلى مصر لزيارة قبر ابنتي ولمحاولة الاقتراب من زوجي الذي أشفقت عليه من صدمة فقد ابنته التي كانت تحبه وكان يحبها من أعماقه، ولكن محاولاتي للاقتراب منه، وتجاوز الفجوة العميقة التي حدثت بيننا ذهبت أدراج الرياح وحدث ذلك أيضا حين جاء هو إلى البلد الأجنبي الذي أعيش فيه لزيارتي وقضاء شهر معي.

وفي إحدى زياراتي لمصر وقع بيننا خلاف كبير كالعادة، فصارحت شقيقة زوجي لأول مرة بأن كل الخيوط التي كانت تربطني بأخيها قد انقطعت الآن بعد رحيل ابنتي، وإننا عاجزان تماما عن التفاهم والاستمرار ولا تهدأ المشاكل بيننا، وأنه مادام الأمر كذلك فلا داعي لاستمرار هذه العلاقة الغريبة، وخاصة أنه ليس بيننا ما بين الأزواج والزوجات من علاقات طبيعية، فإذا بشقيقته تجيبني بأن معظم الأزواج والزوجات يعيشون حياتهم على هذا النحو، وأنه لا داعي للانفصال لمثل هذا السبب.

أما زوجي فلقد كان رأيه هو أنني قد فقدت عقلي نهائيا بعد وفاة ابنتي وأنه سوف يصبر على حتى استرد رشدي.

ولست أنكر أنني حزينة على رحيل ابنتي، وأظن أنني سأظل كذلك إلى نهاية العمر لكني على الناحية الأخرى إنسانة متزنة وراشدة ومدرسة جامعية ولا أتخذ قراراتي لأسباب انفعالية، ولهذا فقد تمسكت بطلب الطلاق، وكنت أتوقع أن يستجيب زوجي في هدوء لطلب إكراما لما كان بيننا من صلة، وأحزان مشتركة، لكن عاملا جديدا تدخل في الموقف وحال بيني وبين تحقيق هذا المطلب فلقد رشح زوجي من جهة عمله لمهمة خارجية في نفس البلد الأجنبي الذي ادرس به لمدة عامين، ومن شروط من يخرج في هذه المهمة أن يكون متزوجا وله حياة عائلية مستقرة تسمح له بتبادل الزيارات العائلية مع الدبلوماسيين واستقبال الضيوف في بيت الزوجية.. الخ، وكان معنى طلاقه لي في هذه الفترة هو أن يفتقد هذا الشرط وتضيع عليه هذه البعثة، فهاج زوجي وماج واتهمني بالرغبة في تحطيم مستقبله وتدخل الوسطاء بيننا وأقنعوني بتأجيل الانفصال إلى ما بعد انتهاء مهمته الخارجية، ومع وعد أكيد منه بأنه لن يقف ضد رغبتي بعد انتهائها وعودته إلى مصر.. وطلبت منه وعدا صريحا بذلك فأقسم لي على ذلك وطلب مني أن أثق في وفائه لوعده، كرجل يحترم كلمته ورجعت معه إلى البلد الأوربي، ومضى العامان بحلوهما ومرهما ورجع زوجي إلى مصر وأنا لم أنته بعد من رسالة الدكتوراة.

وانتظرت أن يفي زوجى بعهده لي بالطلاق الودي بلا مشاكل ولا قضايا فلم يف للأسف بوعده ومضى عامان طويلان آخران وهو يرفض ويتعلل بالأسباب. مع أني أقيم في البلد الأوربي وهو يقيم في مصر ولا أعرف عنه شيئا، ولا يبلغني من أخباره إلا القليل وعن طريق الأصدقاء، كما أنه ممتنع تماما عن الإنفاق علي طوال هذه الفترة، واضطر للعمل المرهق المضني، إلى جانب الدراسة لأدبر بعض تكاليف الحياة القاسية هنا والتي لا يفي بها مرتب البعثة الضئيل، وكلما طلبت منه الطلاق لكيلا أظل على هذا الوضع الحائر طالبوني بالعودة لمصر للتفاهم أو وعد هو بأنه سوف يجيء إلى التفاهم معي حول الطلاق، ولست أريد في النهاية اللجوء إلى القضاء للحصول على الطلاق، كما أرفض ما عرضه علي بعض الزملاء الأجانب هنا من أن أتحدث إلى وسائل الاعلام في البلد الذي أقيم فيه عن مشكلتي لكيلا أسيء إلى زوجي وبلدي ومجتمعي، ولكني من ناحية أخرى قد سمعت أن زوجي قد أقسم أنه لن يطلقني إلا بعد أن أصبح سيدة عجوزا لا تصلح لأحد من بعده، ولا يرغب فيها أحد، فهل هذا من العدل والشرع والدين والأخلاق والرحمة؟

إن زوجي يصر على تعذيبي بلا مبرر، ويتسبب بموقفه هذا في تشتيت ذهنى وجهدي بين العمل والدراسة، فماذا يجنيه هو من تعليقي، على هذا النحو، بلا طلاق وماذا يفيد من إفشال دراستي وعودتي لبلدي خائبة بغير الدكتوراة؟

إنه من قرائك المداومين يا سيدي ومن المعجبين بآرائك وأرجو أن تكتب إليه كلمة وتحاول إقناعه بإطلاق سراحي بالمعروف، كما ارتبطنا في البداية بالمعروف وكما أمرنا ديننا الحنيف، فهل تفعل ذلك من أجلي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

أفعل يا سيدتي ليس من أجلك وحدك، وإنما من أجله هو أيضا، فالحق أن استمرار هذا الوضع المعلق بينكما لا يسيء إليك وحدك وإنما يسيء إليه هو أيضا، وإلى رجولته ونخوته وقيمه، ولست أحسبه يرضى لنفسه مهما كان تاريخ كل منكما مع الآخر.. وأيا كان الظالم والمظلوم منكما، بأن «يحبس» سيدة مثلك على ذمته منذ عامين وهي تعيش في مجتمع غربي بعيدة عنه، وهو يعيش بعيدا عنها في بلد آخر، وقد تقطعت كل الخيوط التي كانت تجمعهما ولم يعد هناك أمل في رأب الصدع بينهما، ورغم ذلك فمازال يرفض طلاقها بغير سبب سوى أن يعضلها ويكيد لها ويحرمها من حقها المشروع في أن تسترد حريتها ممن لا ترغب في مواصلة الحياة معه، وكل ذلك ليس من الدين ولا من القيم الأخلاقية ولا من الكرامة الشخصية في شيء، فالدين الحنيف الذي لم يكره شيئا مباحا كما كره الطلاق قد شرع للزوجة، إذا أمسكها زوجها وهي كارهة للحياة معه، ودون إيذاء منه لها أو إضرار بها أن تقدم لزوجها ما تفتدي به نفسها منه، فيما يعرف في لسان الفقه بالخلع، وهذا الافتداء ليس بالضرورة مالا تقدمه الزوجة لزوجها

لتحصل به على حريتها، وإنما يكفي أيضا أن يكون تنازلا عما لها عليه من حقوق مادية قد تعدل ما تكلفه في زواجها أو أكثر، ومصداقا لذلك جاء في التنزيل الحكيم: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا}[البقرة: ٢٢٩]

أما إذا ضيق عليها زوجها ودفعها بظلمه لها وإضراره بها إلى طلب الطلاق وافتداء نفسها منه بمال تؤديه إليه كارهة، فإنه يكون بذلك برأي الإمام الأكبر الراحل الشيخ محمود شلتوت معتديا على مالها، والرأي عنده في مثل هذه الحالة هو إنفاذ الطلاق انقاذا لها من الضرر ووجوب رد الزوج للمال الذي أكرهها على دفعه ثمنا للطلاق.

هذا من ناحية الدين، أما من ناحية القيم الأخلاقية والكرامة الشخصية فليس مما يشرف أحد أن يمسك عليه زوجة كارهة لا ترغب في استمرار الحياة معه وتتوسل إليه بكل الوسائل لكى يطلق سراحها ويسرحها بإحسان أو بغير إحسان، فإذا ظن الرجل إنه إنما يعضلها بذلك ليثأر لكرامته الشخصية منها، فلقد طاشت سهامه في ذلك أيضا، لأنه بتعنته معها في هذا الشأن، وتعليقه لها بلا طلاق لسنوات عدة إنما يكاد يحرضها بطريق غير مباشر على الوقوع في الخطيئة فإن أصابت إثما في هذه الفترة فعليه بعض إثمها وعلى كرامته ونخوته كل اللوم ومعظم العار، فأي كرامة شخصية ينتقم لها إذن مثل هذا الزوج في هذه الحالة وقد أعان هو زوجته بتعنته معها على أن تطعنه في صميمها؟

يا سيدي إنني أقدر ظروفك الإنسانية المؤلمة بعد أن ثكلت طفلتك الوحيدة.. وأدرك جيدا أن ما أصاب زوجتك من شرخ نفسي غائر في محنة فقدها، قد أصابك شرخ مثله أو اعمق غورا، لكني لا أرى لك رغم كل ذلك أن تتمسك بزوجة كارهة لا ترغب في أن تحمل اسمك مهما كانت أسبابك لذلك أو دوافعك، بل إنه حتى لو كانت نيتك في ذلك طيبة ودوافعك للتمسك بها غير انتقامية، وكنت تأمل حتى الآن في أن تسترد نفسها بعد أن تتجاوز محنة فقد طفلتها وتواصل الحياة معك، فليس التمسك بعدم طلاقها هو الطريق السليم إلى ذلك، فلقد قال أحد السياسيين الدهاة ذات يوم، ليس من الحكمة أن نضيع الوقت في محاولة إثبات حسن نيتنا تجاه من يضمر لنا سوء النية، لأنه لن يقتنع بذلك ولأننا لن نجني من وراء ذلك تغييره أو إقناعه بما نريد له أن يقتنع به، وإنما الأجدر بنا هو أن نتحرك من هذه النقطة التي قد نتجمد عندها إلى نقطة أخرى نقول له فيها: ماذا تريد.. وماذا ستقدم مقابل ما تريد.. وهذا هو ما أنصحك به أيضا يا سيدي، والطلاق في النهاية وقف مؤقت للحياة الزوجية وليس وقفا أبديا لها، ومن الممكن دائما استئنافها في أي مرحلة من العمر بعد أن تزول سحب الخلاف وتذوب المرارات القديمة من النفوس، وحتى لو لم يكن هناك أي أمل في استئنافها في المستقبل فماذا يعيب الإنسان في أن تفترق السبل بينه وبين إنسانة عاشرها بضع سنوات ثم استحالت العشرة بينه وبينها؟

إن من لا نصلح له نحن قد نصلح لغيره، وفي الحياة دائما من قد يسعد بنا ويشعرنا بما حرمنا منه من حب وعطف وتقدير لدى الآخرين، والانفصال على أية

حال بين زوجين لا تربط بينهما روابط الأبناء الأبدية والحرص المشترك علي سعادتهم لا ينتقص من كرامة الرجل إذا طلبته زوجته، ولا ينقص من جدارة المرأة إذا أقدم عليه الرجل من جانبه، ولا يعني في النهاية شيئا سوى أن كلا منهما لم يجد سعادته مع الآخر، ومن حقه أن يطوي هذه الصفحة المريرة من حياته ويبدأ صفحة أخرى يرجو أن تكون سعيدة، وما تفعله أنت الآن يا سيدى لن يثمر شيئا سوى تأخير طي هذه الصفحة المريرة لسنوات ثمينة لا تخسرها زوجتك وحدها، وإنما تخسرها أنت أيضا معها.

فحين تأتي النهاية يحسن بنا رفقا بأنفسنا ألا نطيل آلام النزاع لنخفف من عذابنا بها، وإذا كنت تتوهم أنك تكيد لزوجتك بألا تطلقها إلا بعد سنوات طويلة يذوي خلالها شبابها فلا يرغب فيها من بعدك أحد، فالحق أنك تكيد لنفسك مثل ذلك وأكثر، إذ كيف سوف تتفتح مشاعرك لامرأة أخرى وصدرك مشغول بالرغبة في الانتقام من أخرى، وأين هي السيدة الكريمة التي تقبل الارتباط برجل يحبس زوجة أخرى على ذمته سنين عددا كيدا لها وانتقاما منها؟

وأية صورة بشعة يقدم بها نفسه لمثل هذه السيدة وما يفعله سوف يثير شكوكها في عدله ورحمته ونخوته وقيمه الأخلاقية؟

إنني على ثقة من أنك في أعماقك أفضل كثيرا مما تقدم به الآن نفسك للآخرين بهذا الموقف المتعنت من زوجتك، لكنه العناد قرين الجنون الذي يخرج من الإنسان أسوا ما فيه ويطمس فضائله وأخلاقياته، فسو أمورك المادية مع زوجتك بالعدل والإحسان يا سيدي، وأطلق سراحها، وثق من أنك حين تفعل ذلك فإنك لا تخسر شيئا سوى تعاستك بهذه الزيجة غير الموفقة وما يرتبط بها من ذكريات أليمة.

ويكفيك.. ويكفي زوجتك معك ما تجرعتماه من آلام الثكل المريرة، وإذا كنت تبحث عن سبب يقبله عقلك لطلب زوجتك للطلاق وتمسكها به طوال الأعوام الماضية، فيكفي أن أقول لك إن محنة الثكل في حد ذاتها قد تكفي وحدها لشرخ العلاقة الزوجية بين زوجين متحابين شرخا يتطلب في بعض الأحيان بضع سنوات لإعادة رأبه، وذلك إذا لام أحدهما في عقله الباطن الآخر عن بعض المسؤولية عما شهدته حياتهما من آلام، فما بالك بزوجين لم تنبت بذور الحب ثمارها بينهما، ثم فقدا معا الشيء الوحيد المشترك بينهما؟

إن التمسك بالطلاق هنا قد يكون في بعض أسبابه رغبة نفسية قاهرة من جانب زوجتك في طي هذه الصفحة الحزينة من حياتها بكل رموزها، وقد تكون له أسباب أخرى تتعلق بالعشرة بين الزوجين، لكن هذا الدافع النفسي الباطني يفجرها كلها دفعة واحدة ويضخم منها إلى حد تستحيل معه العشرة بالفعل في بعض الأحيان، فلا تظلم نفسك وزوجتك بالإصرار على استمرار هذا الوضع المعلق بينكما والمعذب لكليكما معا، وابدأ حياتك من جديد مع أخرى تعوضك عما عانيت، ولا تبدد هبة العمر الثمينة في النزاع والشقاق والمكايدة بلا طائل في النهاية سوى الخسائر النفسية والصحية للكائد والمكيد له، وليغفر الله لك ولها ما

كان من أمركما معا، وليعوضكما خيرة عن طفلتكما الراحلة وعما ضاع من العمر في التعاسة والعناء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله)

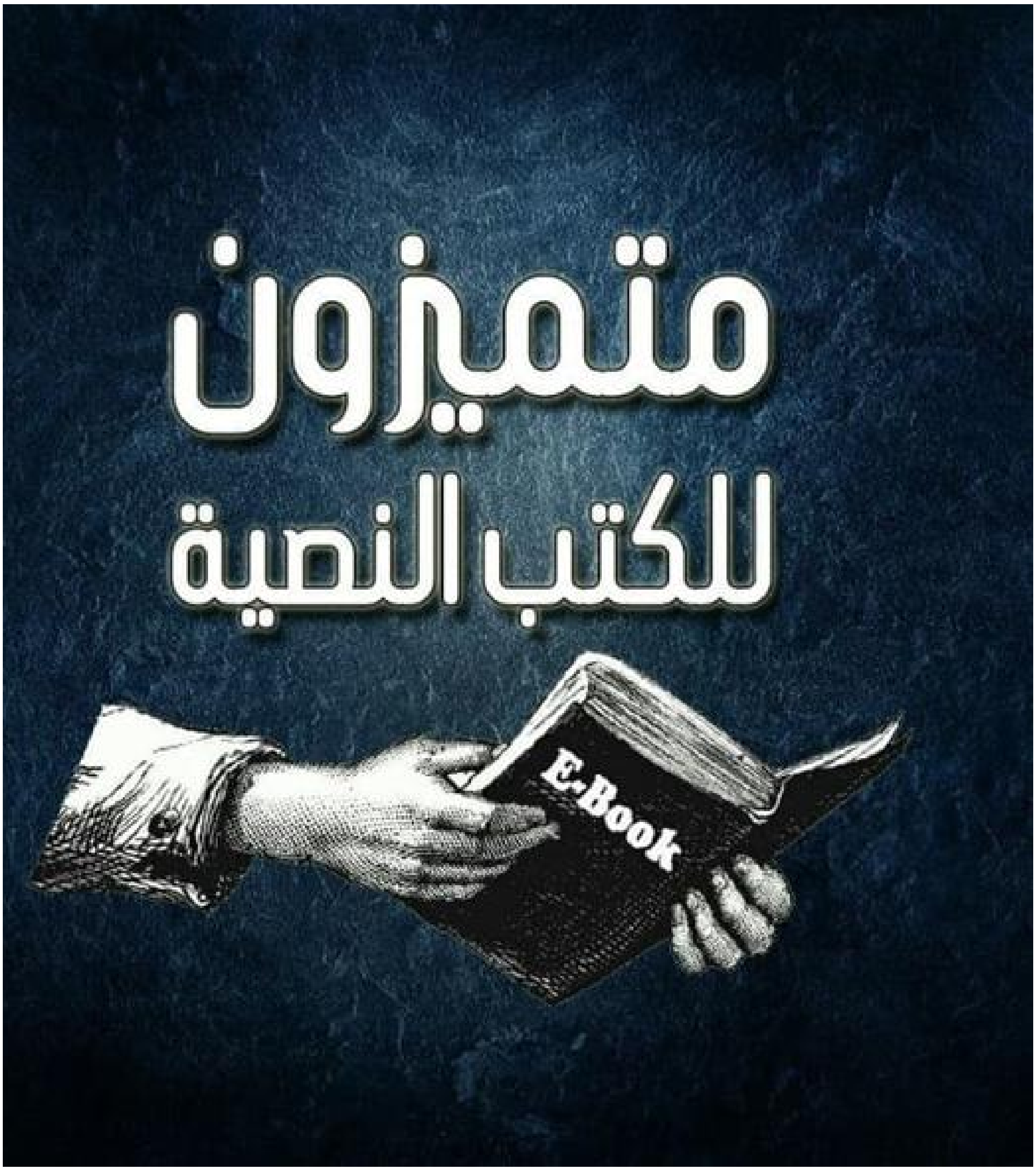
متميزون
للكتب النصية
E-Book

الفهرس:

الشيء المجهول!
الحل السحري
الحقيقة العارية!
التساؤلات المريبة!
القلب الخالي
شجاعة الحياة!
النظرات اللائمة!
ألعاب الخريف
ثورة البركان!
صوت الموسيقى!
نقطة الانفجار!
شاطىء الأمان
الورقة الصفراء!
كبرياء الألم!
النظرات الصامتة!
كشف الأسرار!
الأذن الصماء!
ذئاب الغابة!

الهرم المقلوب!

صمت الجدران!

الفكرة الخاطئة!

نظرة الاستخفاف!

ضياع العمر!

عصير الألم!

الخيوط المقطوعة!

الفهرس: